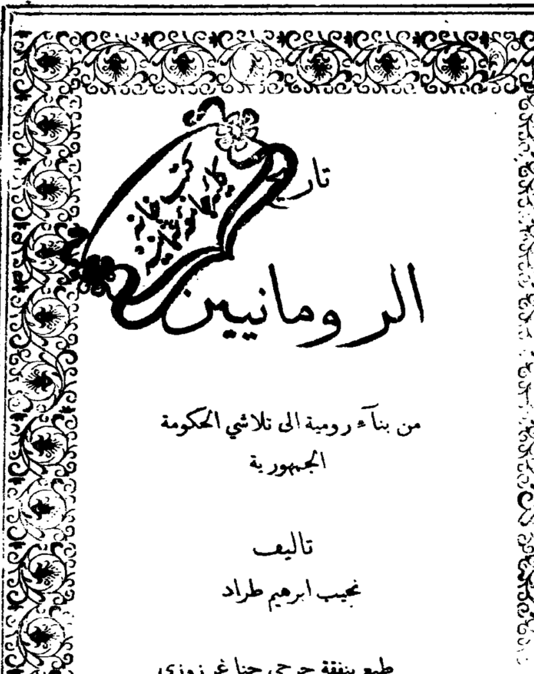
190269



تاريخ الرومانيين

من بناء رومية الى تلاشي الحكومة الجمهورية

تاليف

نجيب ابرهيم طراد

طبع بنفقة جرجي حنا غرزوزي
مدير المطبعة اللبنانية

طبع في بيروت بالمطبعة اللبنانية سنة ١٨٨٦

المقدمة

ان التاريخ هو شاهد الازمنة ونور الحقيقة وحيوة الذاكرة ومدرسة الحيوة ورسول القدم كما قال ذلك اشهر خطباء الرومانيين فاي شيء اذًا اعظم من التاريخ واي انسان لا يحتاج اليهِ اذا اراد ان يكون على بصيرة في احوال حياتهِ الدنيا نعم هو مشكاة هدى تنير عقولنا فتقيها من العثار في حنادس الجهل ناشرة لنا فعال الاولى طوتهم الارض فاصبحوا بعد العز والفخار هباءً منثورًا لتكون اعمالهم للناس ما حيوا تبصرة وذكرى تحذرهم من ارتكاب المنكرات وتنذرهم بسوء العاقبة وشر العقاب وتحرضهم على فعل الخير لرفع شان الانسانية وتوفير اسباب التمدن العائد على المجتمع البشري بالراحة والسلام

ولما كان لكل شيء آفة كانت آفة التاريخ الاختلاق ولقد نطق بعضهم عن الهوى فسقط وما كتبهُ في زاوية الذل والنسيان فيجب على المورخ ان يكون عليمًا خبيرًا قد عرك الدهر وعرف طباع الانام ومكرهم حتى اذا ما اراد تدوين حادث محصهُ بفكر ثاقب ونشرهُ صحيحًا يعتمد عليهِ المعاصرون والخلف

ولا يخفى ما لتاريخ الرومانيين من الفائدة والشهرة في العالم فان الاوربيين يدرسونهُ في مدارسهم كعلم لا بد منهُ لذلك قد عنيت بجمعهِ

من عدة كتب انكليزية وفرنسوية وجعلته تحفة لبني الوطن
اما لغتنا العربية فمحتاجة كل الاحتياج الى كتب كثيرة فليت
ابناءها الكرام يقتدون بالغربيين ويقبلون على
تنشيط طلبة العلم واهله فيرفعوا منارهُ ويخطوا
لهم على جبهة الدهر ذكرًا لا يمحى وليتهم
يقرأون التواريخ بالغدوّ والآصال
فيدروا اسباب نجاح الامم وكيف
افلح اليونانيون وغيرهم في الازمنة
القديمة والحديثة ليمتطوا مطايا
الجهد والاقدام ويحاكوا
اعظم امم الارض
تمدنًا وفلاحًا







فاتحة الكتاب

في اصل الرومانيين وبناء رومية

لم يستولِ اليونانيون على ترواده الاَّ بعد حروب طويلة سالت فيها على الارض فخضّبتها دماء الابطال ومهج الرجال ولقد أظهر الفريقان في جميع المعامع التي حدثت من البسالة والباس ما يشهد لجبابرة تلك الاعصر بثبات الجنان والخبرة بالضرب والطعن عند احتدام نار الوغى على ان ما روتهُ عنهم الشعراء وما اثبتتهُ في هذا الشان كتب المتقدمين مملوءٌ بالخرافات والمبالغات الشعرية التي لا يعول عليها المؤرخون ولا يعتدّ بها المحققون عند قصّ اخبارهم القديمة العهد. ولما كان القصد من ذكر خراب ترواده معرفة تاريخ اسلاف الرومانيين الاولين او بالحري بيان نسب مؤسس رومية حسب راي الاكثرين لان ذلك كما لا يخفى بمثابة توطئة لتاريخ هذه الامة نقول بالاختصار ان أنياس وهو امير ترواديّ حينما كلّ من العراك واصبح غير قادر على رد الاعداء الذين دخلوا المدينة عنوةً او بخيانة اولاد انتينور الجيّ مع عائلتهِ وقسم من الترواديين الى معاقل جبل ايدا وتحصن فيها آمنًا لظنهِ ان اليونانيين سيتركونهم ويرحلون غير ان المحاصرين هدموا المدينة وجمعوا الاسلاب وقصدوا أنياس ليوقعوا بهِ وبمن تبعهُ فجزع جدًّا وارسل يسالهم السلام فاجابوا طلبهُ بشرط ان يغادر على الاثر وطنهُ وتلك الربوع فسافر بحرًا الى شبه جزيرة بلّيني في مكدونيا وبنى فيها مدينة دعاها أنيا اسكن بها قسمًا من جمهور الترواديين الذين تبعوهُ ورحل بعد ذلك الى سيسيليا (صقلية) فترك قسمًا اخر من رجالهِ بدربانم وهي مدينة

استعمر فيها قبيل وصولهم أليمس واجستس فئة ترواديه وظلت سفنة تمخر البحر حتى وصلت الى لاتيوم وهي ارض واقعة الى الجانب الشرقي من نهر التيبر وسكانها هم الأُبُورِجِيْنْ (الوطنيون) المعروفون باللاتنيين نسبةً الى ملكهم لاتينس الذي كان مالكًا عليهم في ذلك الحين فعسكر الترواديون عند مصب النهر ودعوا معسكرهم هذا ترواده تذكارًا لوطنهم العزيز آملين نيل الراحة والسلام بعد تلك المحن والاخطار

وبلغ الملك لاتينس ان اقوامًا غرباء قد احتلوا بلادهُ قصد الاقامة فيها وكانت الحرب وقتئذٍ ثائرة بينهُ وبين الرُتليين فقلق جدًا واشفق على ملكهِ من حدثان الدهر وفي الحال نهض بعساكرهِ لمحاربتهم ولما دنا منهم نظر جيشًا مرتبًا ومتاهبًا للقتال فاخذتهُ الرعدة وخاف الفشل فرام المخابرة قبل النزال فتقدم اليهِ انياس وحدثهُ بحديث حروبهم مع اليونانيين وكيف انهم خاطروا بالنفس والنفيس دفاعًا عن ترواده مدينتهم المحبوبة الى ان قال

ايها الملك

قد اتينا هذه البلاد نطلب مكانًا نلجئ اليهِ ونسكن فيهِ بامان فما نحن ممن يرغب في ضررك انما الضرورة قد احوجتنا ان ناخذ جبرًا ما هو لازم لنا فغضّ الطرف عما حدث واعلم اننا نودّ ان نعيضك مما اخذناهُ اضطرارًا وسنجهد في صون ارضك من الاعداء وشنّ الغارة على من يناويك ولا تظننا نخشى قتالك ان أبيت محالفتنا اذ حربك ليست اول واعظم حرب خضنا عجاجها غير مبالين

فعجب لاتينس من شهامة وجسارة الترواديين وعرف انهم يكونون لهُ في الشدائد حصنًا منيعًا لذلك رضي بما طلبوهُ فانتصروا لهُ من اعدائهِ واذلوا من ناواه

وتزوج انياس لافينيا بْنة لاتينس واحبها جدًا حتى انهُ دعا معسكرهُ

لافينيوم بدلاً من ترواده اسمهِ الاول وتزوج التروادیون بنات لاتينيات فاصبح الفريقان شعبًا واحدًا

وكان ترنس ابن اخ الملكة يرغب في زواج لافينيا املاً ان يتسلط على اللاتنيين بعد موت الملك لاتينس على انهُ لما راى خيبتهُ ونجاح انياس حنق جدًا واراد الانتقام فحضَّ الرتليين على قتال اللاتنيين فثارت بين الفريقين حرب شديدة مات فيها لاتينس وترنس فاستتب الامر لانياس وملك بلا معارض على بلاد اللاتيوم وبعد ثلاثة اعوام مات هو ايضًا في حرب حدثت بينهُ وبين الرُتليين والاترور يين فحسبهُ قومهُ في عداد الالهة واقاموا ملكًا عليهم ابنهُ اسكانيوس من كريوزا بْنة بريام ملك ترواده فاخذ اسكانيوس بثار ابيهِ وبدد شمل الاعداء ووطد شوكتهُ بما ابدى من الحمية والباس في ساحة القتال

واستبدَّ اسكانيوس بالملك بعد هذا الانتصار واظهر من العظمة والجبروت ما دعا لافينيا الى الحسد والخوف على نفسها وعلى ولدها الذي كانت وقتئذٍ حبلى بهِ فعمدت الى الهرب سرًا فرارًا من دسائسهِ ومكرهِ واختفت في غابة عند رئيس رعاة ابيها لاتينس وولدت هناك ابنًا دعتهُ سلفيوس ولما شاع خبر هرب الملكة اخذ الشعب يؤوّل الامر بما يعود على اسكانيوس بالشين والشنار ويحط رفعة شانهِ فوجب عليهِ اذ ذاك ارضاء للجميع ان يبحث عن لافينيا ويرجعها الى المدينة مع ابنها الذي لم ينظر اليهِ قط نظرة الاخاء ولم يعاملهُ معاملة شقيق في سائر الاحوال وبنى اسكانيوس اخيرًا مدينة جديدة دعاها ألبا لونغا وترك لافينيوم لسلفيوس وما ذلك الا لكون هذه المدينة ملكًا شرعيًا للافينيا قد وهبها اياها انياس اذ سماها باسمها

اما بناء البا لونغا فكان في السنة الثلثين بعد بناء لافينيوم وملك اسكانيوس اثنتي عشرة سنة على البا ومات مخلفًا ابنهُ ايلوس الا ان اللاتنيين

ابوا الانقياد الى ايلوس وكرهوا انقسام المملكة الى شطرين فملكوا سلفيوس على جميع البلاد زاعمين انهُ احق بالملك من غيرهِ لانهُ حفيد لاتينس وارضوا ايلوس بجعلهِ رئيسًا على كهنتهم ومدبرًا للمعابد والدين

وتمتع الشعب بالراحة والسلام نحو اربعمائة سنة فلم يحدث حينئذٍ حادث مهم يحملنا على بسط الكلام في تاريخ هذه المدة لذلك نجتزئ بذكر اسماء الملوك الذين ملكوا بعد اسكانيوس ومدة ملك كل منهم

ملك					
ملك	سلفيوس	٣٩ سنة	وخلفهُ	ابنهُ	انياس سلفيوس
«	انياس سلفيوس	٣١ «	«	«	لاتينس سلفيوس
«	لاتينس سلفيوس	٥١ «	«	«	ألبا
«	البا	٣٩ «	«	«	كابتس
«	كابتس	٣٦ «	«	«	كابس
«	كابس	٣٨ «	«	«	كالبتس
«	كالبتس	١٣ «	«	«	تيبرينيس
«	تيبرينيس	٨ «	«	«	اغريبا
«	اغريبا	٤١ «	«	«	ألاديوس
«	ألاديوس	١٩ «	«	«	افنتينس
«	افنتينس	٣٧ «	«	«	بروكاس
«	بروكاس	٢٣ «			

وكان لبروكاس ابنان اسم احدهما نوميتور واسم الاخر اميليوس فلما مات اوصى بالملك لنوميتور لانهُ البكر

ويظهر ان اميليوس كان اشجع واقدر من نوميتور واكثر منهُ مكرًا واسمى فطنة وتدبيرًا فلم يحفل بحقوق اخيهِ الشرعية ولم يبالِ بوصية ابيهِ بل خلعهُ عن سرير مملكتهِ واستبدَّ بعدهُ بالملك ظالمًا وحتم عليهِ بان يعيش معتزلاً عن السياسة والناس ولكي يوطد سلطتهُ ويامن كل منازع لهُ عمد

الى ابادة نسل اخيهِ فقتل اجستس ابنهُ الوحيد ومنع ابنته رَيا سلفيا من الزواج بان جعلها تنذر العفة وتنخرط في سلك العذارى المقيمات في هيكل فستا لخدمة هذه الإلهة وعبادتها غير ان حذره هذا لم يجدهِ نفعًا لان رَيا سلفيا لم تحافظ على العفة بل حبلت وولدت توأمين وحينما شاع خبر حبلها اذاعت ان المريخ اله الحرب قد فضّ بكارتها لتنجو من القصاص الشديد المعدّ لاولئك العذارى خادمات فستا عندما يرتكبن فاحشة ولما علم اميليوس بما حدث غضب جدًّا وامر بقتل ابنة اخيهِ وقيل لم يقتلها بل امر بسجنها سجنًا موّبدًا اما ابناها اللذان ولدتهما فوضعا في سفط والقيا الى نهر التيبر وظل السفط عائمًا الى ان صدمهُ حجر بالقرب من ضفة النهر فقلبهُ وسقط الطفلان على الارض ويزعم الرومانيون ان ذئبة سمعت بكاهما فاقبلت اليهما وبامر الآلهة ارضعتهما والصحيح ان أكّا لورنسيا زوجة فوستيلس رئيس رعاة الملك الملقبة بالذئبة قد اخذتهما وارضعتهما الى ان ترعرعا واعتنت بهما غاية الاعتناء. وقد سماهما فوستيلس روملس ورمس وارسلهما الى مدينة غابي في اللاتيوم ليتعلما علوم وآداب اليونانيين لانهُ على ما يظن كان عالمًا بامرهما فاراد ان يربيهما تربية حسنة ويهذبهما تهذيبًا يليق بهما فبرعا في كل ما تعلماهُ وكانا مهيبين تلوح عليهما سمات العظمة والباس فخافهما جميع سكان البرّية وانقادوا لهما طائعين وحدثت مشاجرة بين رعاة اميليوس ورعاة نوميتور فانتصر الاخوان لرعاة نوميتور واذاقا رعاة اميليوس الويل والنكال فصبر هولاء على الذل وفي قلوبهم من روملس ورمس حزازات لا يشفيها سوى الانتقام منهما فباتوا يرقبون الفرصة ويبحثون عن الوسائل التي تبلغهم مأربهم

وفي احد الاعياد بينما ذانك الاخوان كانا يجريان بعض امور دينية احاط المغلوبون برمس من كل جهة وقادوهُ اسيرًا الى نوميتور الذي كان ينفق اكثر ساعاتهِ في البرية وشكوهُ اليهِ قائلين ان هذا الرجل ظالم متعدّ

لا يرعى علينا حرمة ولا يحفظ لنا ذماماً فعاملهُ ايها الامير حسبما يامر العدل والانصاف واكفنا جورهُ وفجورهُ فهمَّ نوميتور بقتل رمس بعد ما استاذن في ذلك اخاهُ اميليوس الا انهُ ارجأَ تنفيذ الحكم اشفاقًا على راعٍ اظهر من الشجاعة والمروءة ما تعجز عنهُ الفرسان المعدودة وابدى من الصفات الحميدة ما ينزههُ عن دناءة الرعاة ولما خلا معهُ سالهُ عن وطنهِ وابويهِ فاجابهُ رمس لا علم لي بذلك انما الراعي الذي رباني مع اخي روملس اخبرنا اننا توأمان وانهُ قد وجدنا مطروحين على ضفة النهر فاعتنى بتربيتنا شفقة منهُ علينا ولما سمع نوميتور هذا الحديث ذهل وتذكر حفيديهِ وراى عمرهما وهو ثماني عشرة سنة يوافق المدة التي طرح فيها الاميران وهما طفلان في نهر التيبر فتحوَّل حينئذٍ غضبهُ على رمس الى حنو ابوي وتبدلت تهديداتهُ بالوداد العظيم وكاشفهُ بسر مولدهما واطلعهُ على حقيقة حالهما وارجعهُ الى البرية ليدبر مع روملس على الاخذ بالثار وحدث في اثناء ذلك ان روملس لما راى اخاهُ ابطأَ قلق جدًّا واراد الذهاب على الفور لتنكيل من غدر بهِ واردآء من هو باسهِ فردَّهُ فوستيلس واخبرهُ بما كان يجهلهُ من امر ولادتهِ وخيانة اميليوس فثارت بهِ الحمية وعمد الى خلاص جدهِ وامهِ واذ كان يجمع الفلاحين ويعمل كل ما هو لازم لبلوغ ماربهِ اقبل عليهِ رمس واعلمهُ ما كان فتواطآ على ذلك وهجما بغتة على المدينة والقصر بمن معهما من الرجال وقتلا الحراس وذبحا اميليوس الذي ملك اثنتين واربعين سنة وارجعا جدهما نوميتور ملكًا على البا ولما راى نوميتور ان البا قد ضاقت باهلها وبجيش روملس اشار على حفيديهِ ان يبنيا مدينة بالقرب من التيبر حيث طرحتهما الامواج فرضيا بما اشار بهِ عليهما فاعطاهما ادوات وآلات كثيرة لحرث الارض وعبيدًا وبهائم للخدمة واذن لهما ان ياخذا من رعاياهُ من اراد منهم ان يتبعهما واضاف روملس ورمس الى من تبعهما من ألبا سكان مدينتي بلنتيوم وساتورنيا وقسما رجالهما الى فرقتين تولى كل واحدٍ امر فرقة وذلك

لتسهيل العمل وحسن ادارتهِ ولما عزما على تاسيس المدينة وقع بينهما الشقاق واختلفا على المكان الذي يجب بناء المدينة فيهِ فتقاضيا في الامر الى نوميتور فاجاب بوجوب زجر الطير لاستشارة الالهة فاتفقا على ان الذي ينظر قبل الاخر عقاباً او يبصر عقباناً اكثر من اخيهِ تكون الالهة قد حكمت لهُ وبكرا في اليوم المعين ووقف كلٌّ بالمكان الذي يريد بناء مدينة فيهِ واقاما شهوداً يشهدون بما يحدث اما روملس فلكي يغش اخاه او لكي يلهيهُ ارسل رسلاً تخبرهُ انهُ راى عقباناً وقبل وصول الرسل الى رمس نظر هذا حقيقةً ست عقبان فركض الى اخيهِ ليتحقق صدقهُ ولما وصل الى هناك ابصر روملس اثنتي عشرة عقاباً فصرخ لرمس فرحاً واشار اليهِ بيدهِ قائلاً انظر يا اخي واحكم بصدق ما اخبرتك رسلي بهِ غير ان رمس علم اخيراً بخداعهِ فكان ذلك داعياً الى الخصام وحازب كل واحد من القوم رئيسهُ واشتد النزاع حتى آل الامر الى القتال ولما حمي الوطيس بادر فوستيلس الى اطفاء نار الفتنة فولج بين الفريقين ليردهما فضربهُ احد المتحاربين ضربه سقتهُ كاس المنون

ويظن بعض المؤرخين ان رمس مات في هذه المعركة ويؤكد البعض الآخر ان رجلاً اسمهُ فابيوس قد قتلهُ لانهُ وثب فوق سور المدينة احتقاراً لها ويقول لفيوس ان روملس نفسهُ قتلهُ

وقبل ان شرعوا في بناء المدينة على جبل بالاتينس قدموا الذبائح للالهة واشعلوا النيران امام خيامهم ووثب جميع الحاضرين في تلك النيران ليتطهروا وحفروا خندقاً حول المكان الذي تعقد بهِ فيما بعد جمعياتهم . وطرحوا فيهِ اثماراً وتراباً اتوا بهِ من بلادهم او من بلاد اخرى ودعوهُ « موندس » اي العالم وجعلوهُ المركز الذي ستبنى حولهُ المدينة وقرن روملس ثورين وشق الارض تلماً واحداً على هيئة مربع ليبين دائرة المدينة التي سموها رومية وبنى السور على هذا التلم

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ بناء رومية قال فرّوانها شيدت في السنة الثالثة من الالومبياد السادس اي سنة ٤٢١ بعد خراب تروادة او سنة ٧٥٢ ق . م ويظن الرومانيون ان بناءها كان في ٢١ نيسان اي في عيد بالس إلهة الرعاة لذلك كانوا يعيدون العيدين في يوم واحد

الباب الاول

في ملوك رومية وهم سبعة
من سنة ٧٥٢ الى سنة ٥١٠ ق . م
او من سنة ١ الى سنة ٢٤٢ ب ر

الفصل الاول

في ملك رومُلس
من سنة ٧٥٢ الى سنة ٧١٦ ق . م
او من سنة ١ الى سنة ٣٧ ب . ر

لما أتمّ رومُلس بناء المدينة جمع الشعب وخاطبهُ بما معناه

لو كانت قوى المدائن منحصرة في علوّ اسوارها وعمق خنادقها لوجب علينا ان نخاف اشد الخوف على ما اتممنا بناءهُ الان اذ لا يعسر على المقاتل الجبار ان يتسوّر الاسوار ويهدمها مهما علت وماذا تنفع الحصون لدى الفتن والحروب الاهلية نعم انها تحمي الشعب من عدوّ غريب يدهمهُ بغتةً

ولكنها لا تستطيع ردّهُ وقهرهُ فليكن اتكالكم على الشجاعة والفطنة والتدبير لتنالوا الظفر والزموا الاتحاد والعدل لتمنعوا الشقاق ان يسري بينكم وتطفئوا نار الفتن الاهلية لانهُ كم مدن حصينة قد سقطت في ايدي اعدائها لجبن اهلها وانقسامهم فاصرفوا همكم اذًا لتنظيم الجنود ومراعاة القانون تامنوا كل غائلة واعلموا ان نجاح الامم متوقف ايضًا على امر اخر مهم جدًا وهو اقامة حكومة ثابتة . فاعملوا ما ترونهُ حسنًا لانني خاضع لكل ما ترومون اجراءهُ واعدّ تسميتكم المدينة باسمي شرفًا عظيمًا لا أحرمهُ الى الابد

وحينما فرغ روملس من كلامهِ ونظر الشعب الى شجاعتهِ وشهامتهِ رضيهُ ملكًا على رومية والقى اليهِ مقاليد الامور

واحصى روملس بعد ذلك قومهُ فبلغ عددهم ثلثة آلاف راجل وثلثمائة فارس فقسمهم الى ثلثة اقسام متساوية واقام على كل قسم رئيسًا وقسم ايضًا كل قسم الى عشر فرق واقام لكل فرقة قائدًا وقسم ارض رومية الى ثلثة اقسام غير متساوية وخصص قسماً منها بخدمة الدين وجعل قسماً اخر لنفقة الملك والباقي وهو القسم الاكبر اعطاهُ للشعب

وقسم الشعب الى شرفاء وعوام وخص بالاولين كل المناصب العالية وسمح لكل واحد من العوام ان يختار وليًا لهُ مَنْ ارادهُ من الشرفاء ووضع قانونًا لهذا الامر ما لهُ انهُ يجب على الوليّ ان يدير اعمال تابعهِ وان ينجدهُ في الملمات وان يدافع عن صوالحهِ متى مست الحاجة وعلى التابع اذا كان الشريف فقيرًا ان يقوم بجهاز بناتهِ لما يتزوجن وان يفي دينهُ ويفديهُ او يفدي اولادهُ اذا أسروا في الحرب ولا يسوغ لاحد منهما ان يشكو الاخر ولا ان يشهد عليهِ واذا اتى امرؤٌ ذلك يعدّ خائنًا ويكون دمهُ مهدورًا وشكل روملس مجلسًا عاليًا مؤلفًا من مائة عضو ليعينهُ على السياسة الخارجية وتدبير امور الشعب ونظم من الفرسان حرسًا ملوكيًا ومنع في شرائعهِ النساء عن شرب الخمر على الاطلاق والرجال عن التزوج باكثر من امرأة واحدة

وجعل المرأة ترث زوجها اذا مات ولم يكن لها اولاد واذا مات عن اولادٍ فلها من الميراث كواحدٍ منهم وفرض على البنين الخضوع التام لآبائهم وإعطي الاباء حقًا ان يتصرفوا ببنيهم كما يشاءون وان يبيعوهم عبيدًا اذا أرادوا ومنع الوطنيين من مباشرة الاشغال التي لا تلزمها حركة عظيمة وخصّ هذه الاعمال بالغرباء والعبيد وفرض على الرومانيين جميعًا اما التجند لحماية الوطن وخدمته او حرث الارض وجعل مدينته ملجأ للمذنبين وحمى لمن اثقلت الديون كاهلهُ فتقاطرت اليها اللصوص والقتلة من كل فج وأتاها من سئم الحياة في وطنهِ ولم يكن لاكثر الرومانيين نساء فسأل الملك الصابنيين والامم المجاورة ان يرخصوا لرجالهِ التزوج ببناتهم فرفض الصابنيون طلبهُ وردوا رسلهُ قائلين لو جعل رومُلس مدينتهُ ملجأً للعواهر والجواري كما جعلها حمى للصوص والقتلة لاكتفى ذل السؤال وحصل على ما يروم ولما بلغ رومُلس هذا الجواب وغر صدرهُ عليهم واراد الانتقام مصمماً على خطف بناتهم وتزويج رجالهِ بهنّ غصبًا وحدث بعد ذلك انهُ بينما كان قوم يحفرون بالقرب من رومية وجدوا مذبحًا تحت الارض للاله كونسس اله المشورة فعزم رومُلس على الاحتفال بعيدٍ لهذا الاله واجراء العاب عمومية واعلن ذلك للصابنيين فهرعوا الى رومية رجالاً ونساءً فبالغ الرومانيون في اكرامهم وعمل كل ما يرضيهم مدة ايام العيد الا انهُ في اليوم الاخير بينما الالعاب كانت جارية وابصار المتفرجين شاخصة اليها هجم الرومانيون على البنات الصابنيات وخطفوهنّ قوّةً واقتدارًا ولم يستطع الصابنيون المدافعة عن بناتهم لانهم كانوا عزلاً لذلك ولوا منهزمين .

وفي الغد جمع رومُلس البنات الصابنيّات وكلمهنّ قائلاً

لم يخطفكنّ الرومانيون امس ليتزوجوكنّ سفاحًا بل لتكنّ لهم حلائل طاهرات وان هذه الطريقة مألوفة في بلاد اليونانيين وهي تعود بالفخر على النساء اكثر من غيرها فخففنَ غضبكن والاحزان ولو فرض ذلك ذنبًا

فالذنب راجع بلا ريب الى آباَئكنَّ الذين رفضوا طلبنا باحتقار وما عليكنَّ الآن سوى محبة رجال يعدون زواجهم بكنَّ سعادة عظيمة ومعلوم ان الخطأ والاساءة الى شخص قد يكونان سبب صداقتهِ ووداده فستشاهدنَّ من بعولكنَّ حبًا ينسيكنَّ آباءكنَّ والاوطان

وارسل الصابنيون رسلاً الى روملس يسألونهُ ردَّ بناتهم لانهم لم يريدوا خوض عجاج الحرب قبل استعمال الوسائل السلمية فأبى روملس اجابة ما سالوهُ اياهُ وطلب اليهم ان يعلنوا رضاهم التام بهذا الزواج وبينما المخابرات كانت جارية في هذا الشان نهض اكرون ملك سانينا واغار على الرومانيين وكان اكرون فارسًا مغوارًا وقرمًا شجاعًا وسبب حربهِ انهُ لما راى تقدم الرومانيين وما اظهروا من الجسارة في خطف بنات الصابنيين خاف على ملكهِ منهم واراد اذلالهم قبل ان تقوى شوكتهم فخرج اليهِ روملس بجنودهِ ونشب القتال بين الفريقين ودام برهة الى ان التقى الملكان وطلبا النزال فافترق الجيشان ينظران ماذا يكون ونذر روملس على نفسهِ انهُ اذا غلب خصمهُ يقدم اسلابهُ غنيمةً لجوبتير فنشط حينئذٍ لاتكالهِ على الالهة وطعن اكرون طعنة عجلت باجلهِ ولما راى السانينيون رئيسهم قتيلاً ولوا منهزمين فلحق بهم الرومانيين ودخلوا مدينتهم ظافرين واعطاهم روملس الأمان غير انهُ هدم سانينا ونقل سكانها الى رومية ومنحهم حقوقًا كالوطنيين ووفى نذرهُ لجوبتير بان بنى لهُ هيكلاً صغيرًا وضع فيهِ اسلاب اكرون واخضع بعد ذلك الأنتمنيين ونقلهم الى رومية وارسل قسماً من شعبهِ يسكن بمدنهم واشتهر روملس في الشجاعة والحلم فتسابق الاتروريون في الخضوع لهُ اختيارًا

واضاف روملس الى المدينة رابية ساترنيوس المدعوة بالكابيتولينس وبنى على قمتها قلعة حصينة واحاطها بالاسوار والابراج المنيعة وكل هذه الحصون كانت عالية تشرف على المدينة وعلى الاراضي المجاورة اما الصابنيون

فلم ترهبهم قوى روملس المتكاثرة ولم ترعهم جنودهُ ولا حصونهُ بل زحفوا الى رومية بجيش عرمرم جرار يتقدمهُ ملكهم طيطس طاطيس آملين الاخذ بالثار وارداء الاولى البسوهم العار بخطف بناتهم فجمع ملك رومية العساكر ورتب الجنود التي امدَّهُ بها جدهُ نوميتور والاَ ترورريون وصف جيوشهُ هذه على رابيتي اسكيلنوس وكويرينالس واقام ينتظر الصابنيين ليوقع بهم

وعسكر الصابنيون عند سفح رابية سانرنيوس ولم يجسروا على مقاتلة الرومانيين لان مراكز هولاء كانت جيدة فباتوا يطوفون حول تلك الرابية لعلهم يجدون بابًا بالجونة وكانت طار بايا ابنة حاكم الحصون قد نظرت الى الصابنيين ورات في سواعدهم واصابعهم اسورة وخواتم فادهشها ذلك المنظر ورغبت في الحصول على تلك الحلى فارسلت احدى جواريها تسال قائد الصابنيين مقابلتها في مكان عينتهُ لهُ ولما ادلهم الليل اقبل طاطيس الى المكان المعهود واتفق معها على انهُ يمنحها ما ترغب فيهِ بشرط ان تفتح لجنودهِ احد ابواب السور غير ان طار بايا ندمت بعد ذلك على ما فعلت وارادت تحويل خيانتها الى شرك توقع فيهِ الاعداء فسألت روملس ارسال فرقة من العساكر لمحاربة طاطيس قائلة انهُ يامل الدخول الى القلعة من باب ستفتحهُ لهُ على ان الرسول المرسل من قبلها لابلاغ روملس ما طلبتهُ خانها واخبر ملك الصابنيين بما دبرت فاتاها في الوقت المعين بعدد عديد من العساكر والفرسان واستولى على قلعة وحصون رابية سانرنيوس اما طار بايا فقد قتلها الجنود لانهم رموا بمجانهم عليها ايفاء بوعدهم كما زعموا لذلك دعا الشعب تلك الرابية طار بيس وقد عرفت بهذا الاسم الى ان سموها كابيتولينس كما ستعلم

وأمن الصابنيون باستيلائهم على الحصون غوائل الحرب ومضت مدة لم يحصل فيها سوى مناوشات خفيفة لا تذكر الا ان الفريقين صمما بعد ذلك على الحرب والكفاح فجرت بينهما ليلاً موقعة لم يخسر فيها احدٌ مركزهُ وفي

الموقعة الثانية فاز الرومانيون بادئ بدء وكسروا جناحي اعدائهم ولما راى مانيوس كورتيوس القائد الصابني تقهقر قومهُ هجم على وسط الجيش الروماني ليمكّن جناحيْ جيشهِ من الاجتماع فكسرهُ ولحق بالمنهزمين الى ابواب رومية وحينما ابصر روملس ذلك رجع وهجم على كورتيوس فالتقاهُ هذا وصدّهُ واشغلهُ بالقتال حتى سهل لاصحابهِ الانضمام والرجوع الى معسكرهم ودامت رحى الحرب دائرة حتى تبارز القائدان وجرح كورتيوس جراحًا قوية فوهن ونظر واذا هو محاط بالاعداء من كل جانب فرمى بنفسهِ الى بحيرة كانت هناك فتركهُ روملس وانصرف لقتال الصابنيين ظانًّا انهُ يغرق فيها اما كورتيوس فتخلص من الموت بما خيل سبب موتهِ ودعي ذلك المكان بحيرة كورتيوس

وضايق روملس اعداءهُ وهجم عليهم هجمة الاسد الرئبال فذعروا وولوا هاربين والتجأوا الى القلعة وتبعهم الرومانيون راجين استرجاعها حينئذٍ اخذ الصابنيون يدحرجون عليهم الاحجار من قمة الرابية فاصاب روملس حجر كاد يذهب بحياتهِ فوقع مغشيًا عليهِ ولما راى قومهُ ما اصابهُ حملوهُ ورجعوا الى المدينة منهزمين امام الصابنيين وحينما افاق جمع الجنود وخرج للقاء الاعداء وقبل ان ينشب القتال اتت النساء الصابنيات ناشرات شعورهنَّ وحاملات اولادهنَّ واعترضن بين الفريقين باكيات يسألن بعولهنَّ وآباءهنَّ ان يكفوا حربًا تعود عليهن بالوبال

وقد روى ديونسيس ما حدث قال ان الفريقين لم يبقَ لهم طاقة للقتال بعد تلك المعامع والحروب فاخذ الصابنيون يفكرون فيما يلزم اجراؤهُ مترددين في هل يرحلون بعدما يخربون اراضي الرومانيين او يطلبون مددًا من مدنهم لتجديد الحرب وقهر الاعداء وهكذا بات الرومانيون لا يدرون ماذا يفعلون لانهم يعلمون علم اليقين ان اعداءهم اشداء وقادرون على تعوّض خسارتهم باكثر سهولة منهم اما النساء التي جرت الحرب لاجلهنَّ فاجتمعن وقررن ان يتوسطن الصلح بين الامتين وعرضن ما قررنهُ

للملك والمجلس فأُذن لهنَّ في ذلك بشرط ان يغادرن في المدينة اولادهن فلبسن المسح وتركن الزينة والحلى وخرجن الى معسكر الصابنيين ولما وصلن اليهِ رمين بانفسهنَّ على ارجل ابائهن واقربائهن واخذن في البكاء والعويل فتحركت الشفقة في صدور الجميع وعقد الملك طاطيس مجلساً من قوادهِ وعظمائهِ للمذاكرة في هذا الامر فوقفت احدى النسآء المسماة هرسيليا وخطبت قائلة

اذا كنتم قد فتحتم هذه الحرب حبًا بنا نسأكم ان تكفوها شفقة علينا ورحمة لاولادنا نعم اننا قد خطفنا من ايدي ابآئنا ظلمًا انما الذين خطفونا هم الان أزواجنا وقد اهملتم خلاصنا مدة طويلة فغدونا مرتبطات مع الاولى كنا نبغضهم باوثق عرى الوداد واننا لنخاف عليهم الان ان عرض لهم خطر ونندبهم ماحيينا ان قضوا اجلهم في ساحة القتال وانكم لم تاتوا لتاخذوا بثار عذارى وتكشفوا عارهنَّ بل اتيتم لسلب نسآء من رجالهنَّ وخطف امهات من اولادهنَّ ففعلكم هذا لا يعدّ خلاصًا لنا بل اسرًا اشد وبالاً علينا من اسرنا الاول

ولما كان الصابنيون قد ملوا القتال لما لقوا من اهوالهِ رضوا بكف الحرب واجتمع روملس وطاطيس وعقدا صلحًا بموجب عهدة مآلها ان كلا الملكين يسكن في رومية ويكونان متساويين في السلطة وانهُ يسكن فيها ايضًا من اراد من الصابنيين ولا يكون بينهم وبين الوطنيين فرق في الحقوق ويبقى اسم المدينة رومية الاَّ ان سكانها يدعون كورتس وهو اسم خاص بالصابنيين وشكل طاطيس لنفسهِ مجلسًا عاليًا مؤلفًا من مائة عضو لهُ ذات حقوق وامتياز مجلس مؤسس رومية والتأم كلٌّ من المجلسين بادئ بدء في قصر ملكهِ غير انهما التأما اخيرًا سوية بالقرب من هيكل فولكانس وقد دعي ذلك المكان لالتئامهما فيهِ كوميتيوم اي محل الاجتماع

ولم ينسَ الرومانيون احسان النسآء الصابنيات اليهم كيف ولا وهنَّ

اللواتي خلصنهم من ورطة الحرب ووسعن نطاق المملكة بالعهدة التي تمت على يدهنّ لذلك اكرموهنّ جدًّا ورفعوا مقامهنّ ولم يسمح لروماني ان يتكلم كلامًا غير اديب في حضرتهنّ وأُذن لهنّ ان يعلقن في اعناق اولادهنّ كرات ذهبية تميزهم عن باقي الاولاد وان يلبسنهم لباسًا لا يمكن غيرهم لبسهُ

وعاش الملكان خمسة اعوام في اتحاد تام وكان روملس ساكنًا على رابية بالاتينس وطاطيس على رابية طاربيس وسكن الصابنيون الذين هاجروا الى رومية على الرابية التي دعوها كورينالس تذكارًا لمدينتهم كورس او تبركًا باسم الههم كويرس واصبحت الارض الواقعة بين رابيتي بالاتينس وطربايس سوقًا عموميًا للامتين المتحدتين سموهُ فورم وكانوا يجتمعون فيهِ ايضًا للمذاكرة في الامور السياسية

واغار الكامريون على اراضي رومية فحاربهم الملكان وكسراهم ونقلا من مدينتهم كامريوم اربعة الاف نفس وارسلا من رومية جماعة تسكن هناك بدلاً منهم وحدث ان البعض من رعايا طاطيس غزا اللافنيين فارسل اللافنيون رسلاً الى رومية يطلبون ارضاءً وتعويضًا مما خسروهُ فارتأى روملس ان يسلم اليهم المعتدين غير ان طاطيس رفض ذلك وقال انهُ ليس من العدل ان نسلم قومًا رومانيين الى الغرباء وانهُ من الواجب على المتظلمين ان يأتوا رومية ويرافعوا خصومهم فيها وحدث ايضًا انهُ بينما اولئك الرسل كانوا راجعين الى اوطانهم غدر بهم اللصوص المشار اليهم وقتلوا بعضهم وشتتوا الباقين ولما جدّد اللافنيون شكواهم قبض روملس على المذنبين وسلمهم اليهم من غير ان يعلم طاطيس ما فعل فعدّ طاطيس ذلك من باب الاهانة ونهض ببعض فرسانهِ ولحق باللافنيين وخلص رجالهُ من ايديهم

وكان ملكا رومية يذهبان كل سنة الى لافنيوم ليقدّما القرابين لبعض

آلهة ترو ادية يزعمان انها تحمي مملكتها واذ كانا يقدمان الذبائح في هذه السنة كما جرت العادة هجم بعض اقرباء واصدقاء اللافنيين المقتولين على طاطيس وذبحوهُ عند المذبح فاحضر روملس جثة رفيقهِ الحرومية ودفنها بكل اكرام على جبل افنتينس

واستتب حينئذٍ الامر لروملس وملك وحدهُ بلا معارض فنفى من المدينة قتلة الرسل اللافنيين ودعا الى رومية قاتلي طاطيس وبعد ما فحص دعواهم صرفهم بلا قصاص لانهم حسبوا ابرياء اذ ما اتوهُ كان انتقامًا عادلاً لا يوجب عليهم عقابًا

وجاهر الكمريون بالعصيان فاخضعهم روملس بعد قتال عنيف ونقلهم الى رومية وارسل الى كمريوم بدلاً منهم فئة رومانية وقهر الفدنيين واخذ مدينتهم واسكن فيها قومًا من الرومانيين وتصدى لهُ في حروبهِ هذه الفيون فقاتلهم وانتصر عليهم واسر منهم جمًا غفيرًا ولما راوا ما آل امرهم اليهِ ارسلوا رسلاً يسالونهُ السلام فاجابهم الى ما سألوه اياه وعقد معهم صلحًا لمائة سنة فسلموا اليهِ بعضًا من مدنهم الصغيرة الواقعة على ضفات نهر التيبر

ومن العجب العجاب ان روملس الذي كان صارفًا همهُ في توسيع نطاق مملكتهِ وباذلاً جهدهُ في اخضاع الامم المجاورة لمدينتهِ لم يستولِ على ألبا حين موت جدّهِ نوميتور وهو وارثهُ الشرعي الوحيد بل تركها متمتعة بالحرية والاستقلال مكتفيًا بان يكون لهُ الحق ان ينصّب كل سنة حاكمًا يسوس شعبها ويدبر اعمالهم ويظهر ان روملس بعد نصراتهِ العديدة وفوزهِ العظيم احتقر ابناء جنسهِ وتكبر مستبدًّا بالملك وغير مبالٍ بالعظماء والآباء (هذا لقب اعضاء المجلس العالي) فانفوا من اعمالهِ هذه ووغرت صدورهم عليهِ وعمدوا الى الانتقام منهُ باية وسيلة كانت

وفي اليوم السابع من شهر تموز في السنة السابعة والثلثين من تأسيس رومية والستين وقيل الخامسة والخمسين من عمر روملس عرض الملك

جيشهُ خارج المدينة في سهل هناك وحضرت الآباء هذا العرض فاخذ الملك يخاطب العساكر وبينما هو يخاطبهم هبت الرياح وعصفت وهطلت الامطار فتفرقت الجنود ولم يبقَ سوى الملك واعضاء المجلس فاحاطوا بهِ من كل جانب وقتلوهُ واخفوا جثتهُ واشاعوا ان الآلهة قد نقلتهُ الى السماء في مركبة نارية فسرت الجهال بهذا الخبر وصدقتهُ اما العاقلون فتوسموا فيهِ خديعةً وكذبًا وكان يوليوس بروكيلوس احد الآباء رجلاً معتبرًا مشهودًا لهُ بالصدق ومعروفًا انهُ صديق روملس الحميم فهذا سألهُ المجلس ان يتمَّ الخديعة ففعل ولما كان الشعب مجتمعًا قصَّ عليهِ ان روملس قد ظهر لهُ بغتةً خارج المدينة فنظر اليهِ واذا هو لابسٌ سلاحًا يخطف الابصار ببريقهِ ومنظرهُ كمنظر الآلهة فتخشع عند رؤيتهِ وخاطبهُ بهذه الكلمات

ـــ لماذا ايها الملك ولأي ذنب قد تركتنا هدفًا لسهام المرجفين الاولى رمونا باعظم واقبح التهم ولماذا غادرت مدينتنا وخلفت لنا ببعادك النوح والاشجان . فاجابهُ روملس ـــ قد ارادت الآلهة يابروكيلوس ان اعيش بين الناس لارفع شان رومية الى اعلى درجات المجد والفخار ولما تم ذلك قد رجعت الى السماء من حيث اتيت فاذهب وحرّض الرومانيين على محبة القناعة والتمرينات الحربية لانهم بهذين الامرين سيملكون يومًا جميع الارض

ولما سمع الشعب هذا الكلام ابتهج جدًّا وقرّر عبادة روملس كالهٍ ودعاهُ كويرنس وهكذا سرَّ المجلس ان يضع في مصاف الآلهة من لم يرضهُ ملكًا على رومية

الفصل الثاني

في ملك نوما

من سنة ٧١٥ الى سنة ٦٧٣ ق.م

او من سنة ٣٨ الى سنة ٨٠ ب . ر

ومات روملس ولم يكن لهُ عقب فاجتمع الشعب واجمع على انتخاب ملك يتبوأ عرش رومية غير انهُ لم يتفق على الرجل الذي يجب انتقاؤهُ لهذا المنصب الخطير فتفرَّق بعد الاجتماع احزابًا متباينة الآراء وكان الرومانيون الاولون مؤسسو المدينة يطلبون تولية احدهم لظنهم انهم أحق بذلك من الصابنيين فخالفهم هولاء وحسبوا الانقياد لهم فيما برومونة اهانة وعارًا فاغتنمت الآباء اعضاء المجلس هذه الفرصة وقبضوا على زمام الاحكام مدة عام واحد منقسمين الى عشر فرق تتناوب الحكم على التوالي ولما تمادى بهم الامر وكره القوم هذا الانقسام وتلك الحالة الشبيهة بالحالة الفوضوية عمدوا الى تنصيب ملك عليهم ونفوا النزاع بان جعلوا الرومانيين يختارون ملكًا بشرط ان يكون المختار صابنيًا

وكان في صابنيا رجل شريف اسمهُ نوما بومبيليوس مشهورٌ بالفضل والتقوى ومحب للعزلة لا تستفزهُ السلطة على الناس ولا يروم غير التسلط على امياله وكبح جماح شهواته البشرية وكانت امرأتهُ طاطيا ابنة الملك طاطيس لا تحب المجد الدنيوي وتوثر الراحة في العزلة على الفخار والاكرام في قصور الملوك فعاشت معهُ في كورس ثلثة عشر عامًا ولما قضت نحبها زاد اعتكاف نوما على العبادة والتامل في طبائع الآلهة فغادر المدينة وعاش

في البرية منفرداً ياوي الكهوف ويتردّد الى الينابيع والعيون المقدسة

فهذا انتخبهُ الرومانيون ليتسلط عليهم وارسلوا اليهِ الابوين يوليوس بروكيلوس الالباني وفالريوس فولسس الصابنيّ ليخبراهُ بذلك فابى قبول ما عرضاه واجاب الرسولين قائلاً حيث ان النجاح في التغيير غير اكيد فمن الجنون اذا كان المرء موسرًا وحاصلاً على كل ما هو ضروريّ لهُ ان يتطلب تغيير حالتهِ الحاضرة او ان يرضى بذلك التغيير لانهُ يكون قد آثر امانيهُ على راحتهِ المقرَّرة ومن ينكر ما دون التسلط على الرومانيين من العناء والعذاب الم تريا كيف انهم ظنوا روملس قد قتل طاطيس رفيقهُ وكيف انهم اتهموا المجلس بقتل الملك مع انهم يحسبون روملس سليل الهٍ قد حفظهُ في طفوليتهِ من الاخطار بطريقة عجيبة اما انا فانسان قد اشتهر بصفات لا تؤهلهُ ان يسوس الناس ولا ان يدافع عن رومية ويصونها من اعدائها الكثيرين فهي تحتاج اشدّ الاحتياج الى امير مغوار شجاع واي منفعة يا ترى ياملها الشعب من ملك يصرف همهُ في توطيد السلام والعدل وحثّ الناس على التقوى ولا ريب ان اميرًا كهذا يكون محتقرًا من رعاياه الذين دابهم الطمع وشن الغارة على السوى

فرغب اليهِ الرسولان الا برفض طلب الرومانيين كي ينقذهم من النزاع الدائم والشقاق والح عليهِ ابوهُ وصديقهُ مارسيوس في قبول ما قدم لهُ قائلين هب انك راضٍ بحالتك الحاضرة ولا تود السلطة والاموال ألست تحفل بامر الآلهة التي عينتك ملكًا ولعلك تظن انها قد أنارت قلبك بمحبة العدل لتقيم في البرية بلا فائدة فسرير الملك هو المقام العالي الذي تتلألأ منهُ انوار الفضيلة جاهدة في جذب قلوب الناس اليها واخضاعهم لسلطتها ألم تنظر الى اكرام الرومانيين للملك طاطيس وحبهم لروملس الذي عبدوهُ بعد موتهِ ولربما نفقو رومية اثرك فتخفض جناح كبريائها وتنزع منها محبة الحرب والغارات عاكفة على التقوى والعبادة فاقتنع هذا

الفيلسوف بما قيل لهُ ورضيَ بما طلب اليهِ وبعد ما قدم القرابين للآلهة مشى الى المدينة فالتقاهُ في الطريق اعضاء المجلس وهم فرحون بهِ منهللون لانتخابهِ

ولما وصل الى رومية لم يرد باديء بدء ان يلبس لباس الملك بل ذهب توًّا الى رابية طاربيس ليستشير الآلهة وجلس على حجر هناك متجهًا الى الجنوب ومغطيًا راسهُ ببرقع ووقف رئيس العيافة وراءهُ مادًّا يدهُ اليمنى فوق راسهِ ومصليًا لهُ ثم نظر الى السماء متيمنًا فرأى بعض طيور تفاءل بها الحاضرون وعدُّوها دليلاً على قبول الآلهة بهذا الانتخاب فنزل الملك حينئذٍ من الرابية وذهب الى البيت المعد لهُ واخذ من ذلك الوقت في تهذيب الشعب وتوطيد السلام وزرع الالفة بين الجميع ووسع المدينة بان مدَّ اسوارها حول الرابية كوربنالس

قال بليتاركوس ان نوما كان يعتقد باللهٍ واحدٍ واجب الوجود غير متغير وغير منظور ولذلك منع الرومانيين من تمثيل الهتهم بصورة رجل او بهيمة ومنعهم ايضًا من ذبح الذبائح وفرض عليهم فقط تقديم قرابين للآلهة من خبزٍ وعسلٍ وخمرٍ ولبن

ورتب المعابد ونظم الكهنة وكثر الاحتفالات الدينية ليسرَّ الشعب ويشغلهُ عن الحروب والاطماع وبنى هيكلاً للاله جانس رب الفطنة والتدبير واله ابتداء كل عمل ونهايتهِ وامر ان يغلق هذ الهيكل في ايام السلم ويفتح في زمن الحرب وحرم الآباء حق التسلط المطلق على اولادهم بعد الارشاد او بالحري بعد زواجهم لانهُ ليس من العدل ان يتزوَّج رجلٌ حرَّةً فتصبح امرأتهُ عن قليل ان رام ابوهُ بيعهُ زوجة عبد رقّ ووضع قوانين قاسية مآلها صيانة النساء وحفظهنَّ من الفجور الا انهُ سمح للرجل ان يقرض امرأتهُ لصديقهِ متى ولدت لهُ بنين فكان ذلك بمثابة طلاق وفتي لاحياء نسل من كانت امرأتهُ عاقرًا وكان لهُ الحق ان يرجعها الى بيتهِ متى

اراد وان يقرضها لاناس آخرين حينما يشاء

ووهب عساكر رملس قسماً من الاراضي التي فتحوها في حروبهم وغاراتهم واعتنى بامر الحراثة كل الاعتناء واقام نظارًا ورؤساء نظار لملاحظة اشغال الزراعة وقصاص الفلاح الكسلان ومكافاة النشيط وقسم الصنائع والصناع الى حرف وطوائف واقام لكل حرفة تمثالاً واعطى الجميع امتيازات وسمح لكل طائفة ان تملك عقارًا وتذخر في صندوق عمومي مالاً للقيام بنفقات بعض احتفالات وقرابين خصوصية فتوطدت الالفة والمحبة بين الرومانيين والصابنيين ونسوا انقسامهم القديم واحزابهم الماضية واقبلوا على الشغل والاتحاد واصلح نوما حساب السنة لان العام الروماني كان ثلثمائة واربعة ايام فجعلة ثلثمائة وخمسة وخمسين يومًا اي زاد يومًا واحدًا على السنة القمرية لان الرومانيين كانوا يتشاءمون بالشفع وكانت السنة عندهم تبتدىء في اول ادار فجعل اولها غرة كانون الثاني ولكي توافق سنتهُ السنة الشمسية اضاف اليها كل عامين شهرًا واحدًا دعاهُ مرسيدينس كان عدد ايامهِ اثنين وعشرين يومًا في السنة الثانية وثلثة وعشرين يومًا في السنة الرابعة

وملك نوما ثلاث واربعين سنة وعاش اثنتين وثمانين وفي ايامهِ تمتع الرومانيون بالسلام التام فلم يشنوا الغارة على احد ولم يشن احد الغارة عليهم وكان هذا الملك العاقل محبوبًا من الجميع فلما مات بكاهُ الشعب بكاء اليتيم على ابيهِ وحزن كلٌّ عليهِ حزن الثكلى ودفنوهُ حسب امرهِ خارج المدينة ووضعوا معهُ في القبر الكتب التي الفها ولم يكن لهُ اولاد سوى ابنة اسمها بومبيليا تزوجها نوما بن مارسيوس الذي اقنعهُ ان يملك على رومية وولدت بومبيليا انكوس مارسيوس ملك الرومانيين الرابع

الفصل الثالث

في ملك طلس هوستيليوس
من سنة ٦٧٢ الى سنة ٦٤١ ق٠م
او من سنة ٨٠ الى سنة ١١٢ ب ٠ ر

كان طلس هوستيليوس الذي خلف نوما سيدًا عزيزًا وغنيًا كريمًا فوزّع على المحتاجين من الرومانيين العقارات والاموال التي حبسها سلفاهُ على نفقة الملك والكهنة وضمن تقديم ما يلزم لذلك من مالهِ وقد اشتهر بكونهِ بطلاً صنديدًا يحب الحرب والكفاح وهمامًا مغوارًا لا تقعدهُ المصاعب عن نيل ما يبتغيهِ فبات يرقب الفرصة ليقاتل من الامم المجاورة من يجاهر بالعدوان لان شرائع نوما كانت تحظرهُ الغزو والغارات وتمنعهُ من الاعتداء على احد

ونظر كليوس رئيس الالبانيين رفعة شان الرومانيين فخالج قلبهُ الحسد ورأى نجاحهم وثروتهم فزاد بهِ الكمد واراد قتالهم فلم يرَ الى ذلك داعيًا فعمد الى تدبير حيلة تثير الفتنة وتحمل الرومانيين على خوض الحرب كمهاجمين لينال ما يبتغيهِ ولا يكون ملومًا بنزع السلام ونقض العهود فارسل سرًّا بعض رجالٍ فقراء وامرهم ان يغيروا على ارض رومية وينهبوا ما يمكنهم نهبهُ ففعلوا ما أُمروا بهِ ولما راى الرومانيون ما جرى بعثوا جيشًا يتأثرهم ليفتك بهم فادرك الجيش الروماني تلك الشرذمة وقتل منها من قتلهُ واثخن بعضًا بالجراح واسر الباقين حينئذٍ جمع كليس الالبانيين واخبرهم باعتداء الرومانيين عليهم واراهم الرجال المجروحين وحرضهم على مقاتلتهم

فثارت الحمية بالالبانيين وارسلوا رسلاً الى رومية يطلبون ارضاء وتعويضاً مهددين الرومانيين بالحرب ان لم يعطوهم ما يرومون ولما راى طلس الرسل عرف حاجتهم واراد رد كيد الالبانيين في نحرهم وتبرئة قومه فارجأ مقابلتهم معتذراً واحلهم محلاً جميلاً واكرمهم غاية الاكرام وارسل رسلاً الى البا تطلب بالحاح تعويضاً فقابلهم كليس وقال لهم انكم نبذتم حقوقنا ونكثتم العهود وقد وجهت الى ملككم رسلاً واظنهُ لم يصغِ اليهم وبناء على ذلك اعدكم اعداء لنا واطلب قتالكم لعل الصارم البتار ينصفنا فانقلبت الرسل راجعة واخبرت الملك بما كان فدعا طلس رسل الالبانيين وحادثهم بلطف مستخبراً عن بغيتهم فاطلعوهُ طلع امرهم واعلموهُ ان كليس يود الحرب اذا لم يعطَ تعويضاً فاجابهم طلس اذهبوا وقولوا لهُ ان ملك رومية يطلب الى الآلهة ان تذل الامة التي رفضت اولاً التسوية والصلح راغبة في العدوان

واخذ الشعبان في الاستعداد للحرب ولما انقضى الاجل المضروب زحف الجيشان وابتدأ القتال ومات في اثناء ذلك كليس وخلفهُ في الرئاسة على الالبانيين ماتيوس فوسيتيوس وبلغ الامتين المتحاربتين ان الفدنيين والفيين يرومون الايقاع بهما حينما يرونهما قد ضعفا من جرى الحروب فاشفق الرئيس الالباني على امتهِ من شرّ الاعداء وخابر طلس بامر الصلح والاتحاد فقبل طلس بذلك واتفقا على ان يبرز من كل فريق ثلثة رجال والفريق الذي تستظهر رجالهُ على اقرانهم يعد ظافراً ولهُ حق التسلط على الفريق الآخر

فبرز من معسكر الالبانيين ثلثة اخوة اسمهم الكور ياسيون وخرج من صفوف الرومانيين ثلثة اخوة ايضاً اسمهم الاوراسيون ومن غريب الاتفاق ان الاوراسيين كانوا ابناء خالة الكورياسيين وكان كل واحد منهم مساوياً قرنهُ في العمر والشجاعة فهولاء هم الذين اقدموا على سفك دمائهم

فدى الامتين ووسيلة للاتحاد ناسين صِلات القرابة وحقوق النسب ومجردين الصوارم ليفتك بعضهم ببعض خدمة للوطن فتقدموا جميعاً للميدان بقلب لا يخامرهُ الجزع الا انهم لما دنوا وابصر كلٌّ من قرنهِ خصماً وقريباً تعانقوا باكين وافترقوا للكرّ والكفاح ولم يتمادَ بهم الامر حتى خرَّ اثنان من الاوراسيين مجندلين فعلت في معسكر الالبانيين ضجة الفرح واصوات السرور وحزن الرومانيون وايقنوا بالذل بعد الافتخار ونظر الاوراسي الى خصومهِ فوجدهم مثخنين بالجراح ورأى نفسهُ سالمًا غير مجروح فعمد الى الهرب ليفرقهم ولما بصر بهِ الكور ياسيون منهزمًا اتبعوهُ فالتفت اليهم وكانوا قد تفرقوا فهجم على الاول وذبحهُ وبادر الى الثاني فقتلهُ ولحق بالثالث فجندلهُ وجمع اسلاب الثلثة ورجع ظافرًا غانمًا وهكذا انتهت هذه المعمعة الشهيرة التي خوَّلت رومية التسلط على ألبا

وكلل الملك طلس الاوراسيَّ باكليل الظفر فدخل هذا الفتى رومية مسرورًا بما فعل وكانت اختهُ تحب احد الكور ياسيين وراءت بين الاسلاب ثوب من تحبهُ ملطخًا بالدم وكانت هي نفسها قد خاطت ذلك الثوب فنشرت شعرها وضربت صدرها ومزّقت ثيابها وقالت لاخيها ايها الوحش الشرير كيف تسفك دم اقربائك الذين كنت تودهم كاخوتك وتقتل بقساوة خطيب شقيقتك فحنق الاوراسي من كلامها واجابها اذهبي الى حبيبك مع شهواتك الوحشية يامن نسيت اخوتها والوطن ثم استل سيفهُ وضربها قائلاً فليهلك هكذا من يندب عدوًا لرومية

وقبض على الاوراسي كجانٍ وجيء بهِ الى الملك لينظر في دعواهُ ويحكم عليهِ فرام طلس خلاصهُ فلم يقدر لان ذنبهُ كان عظيماً فوكل امرهُ الى حكمين حاسبًا ما اقترفهُ ذنبًا سياسيًا فقضى الحكمان عليهِ بالقتل ولما همَّ الجلاد بقتلهِ قام ابوهُ واشار الى الشعب قائلاً ايها الرومانيون كيف تسمحون ان يقتل اليوم مخلص رومية وانت ايها الجلاد كيف تربط يديهِ

اللتين نلنا بهما الظفر وابن نقتلهُ أداخل المدينة امام الاسلاب التي غنمها بشجاعتهِ ام خارج الاسوار بين قبور الكور ياسيين نعم اننا نرى في كل مكان آثار مجدهِ الذي يجب ان يصونهُ من هذا القتل الشنيع

ونظر الجمهور الى دموع الاب وثبات الابن فاشفق عليهما وفك رباط ذلك الفتى الشجاع صافحًا عن ذنبهِ

وتذكر طلس خيانة الفدنيين وما نووهُ لهُ من الشر حينما كانت الحرب ثائرة بينهُ وبين الالبانيين فامر رؤساءهم ان ياتوا رومية ليبرئوا انفسهم لدى المجلس العالي فلم يرضخ الفدنيون لما أمروا بهِ بل اتحدوا مع الفيين وجمعوا العساكر والابطال وزحفوا للقتال وكان فوسيتيوس رئيس الالبانيين قد واطأهم على ذلك املاً ان يضعف شوكة الرومانيين ليتسنى لهُ الاستقلال غير انهُ لم يجسر على اعلان هذا الامر بل كتمهُ خيفة ان تدور عليهِ الدوائر وخرج بعساكره اجابة لطلب طلس الذي نهض في الحال لمحاربة اعدائهِ وأخبر فوسيتيوس جنودهُ بما نوى فاستحسنوا رايهُ وعولوا على حفظ الحيادة حتى اذا ما تبين لهم الظافر من الفريقين هجموا على المغلوب واعانوا القوم الغالبين وعلم طلس بخداع الالبانيين فتربص في مكانهِ قليلاً صابرًا على الاهوال ثم اقتحم مع جيوشهِ صفوف الاعداء. فاذاقهم حربًا لا تبقي ولا تذر فتشتتوا في تلك البيداء. ولحق بهم الالبانيون وقتلوا منهم جما غفيرًا

وفي الغد ارسل طلس كتيبة من جنودهِ لتخرب ألبا وأمر الجيوش الالبانية والرومانية ان تحضر اليهِ بلا سلاح ففعلت ذلك الا ان الرومانيين تقلدوا حسبما اوعز اليهم سرًّا سيوفهم تحت ثيابهم ولما انتظمت الصفوف اخذ طلس يتكلم عن خيانة وخداع فوسيتيوس ولما فرغ امر بقتلهِ مع الرؤساء الذين وافقوهُ في تلك الدسيسة ونقل الى رومية من بقي من عساكر وسكان البا ومنحهم حقوقًا كالوطنيين واسكنهم على رابية كليس التي اضافها الى المدينة

وظلّ الفدنيون مجاهرين بالعصيان فاغار عليهم طلس واستولى على مدينتهم قسرًا وقتل زعمآء العصاة وسمح للباقين منهم ان يسكنوا في بلادهم كما كانوا مقرّبين فقط بسيادة الرومانيين وحارب الصابنيين وقهرهم بعد وقائع عظيمة ثم أبت المدن اللاتينية التي كانت تابعة لالبا الخضوع له فزحف اليها برجاله وقاتلها الا انهُ لم يخضع منها سوى مدينة مادُلها فارتدّ عنها راجعًا الى رومية بعد ما أضرّ زرعها وأتلف اغلالها في ذلك العام

ولما شاخ طلس داخلهُ الوسواس وزادت اوهامهُ وقوي إعتقادهُ بخرافات الرومانيين الدينية فصار لا يكذب خبرًا يموهونهُ عليه و يصدق كل ما كانوا يقصونهُ من سماع اصوات من السمآء وهو يامر بتقديم الذبائح للآلهة كفارة عن خطاياهُ وذنوب الشعب قيل ان نارًا سقطت من السمآء على قصرهِ فحرقتهُ مع بنيه وامرأته وقيل ان انكس مارسيوس قد قتله وتبوأ بعدهُ سرير المملكة

الفصل الرابع

في ملك انكس مارسيوس

من سنة ٦٤١ الى سنة ٦١٦ ق٠م

او من سنة ١١٣ الى سنة ١٣٧ ب ٠ ر

واراد الملك الجديد انكس اصلاح ما فسد من عوائد الشعب بعد موت جدّهِ نوما واحيآء محبة الفلاحة والزراعة في قلوب الجميع ماشيًا على سنن الخير والتقوى وراغبًا في اجتناب الحروب ما امكن ونظرت الامم المجاورة الى افعاله هذه وامياله السلمية فاحتقرتهُ وخالت الاوان قد آن

للانتقام من الرومانيين وتعوض ما فقدتهُ في السنين الماضية فنهض اللاتنيون وجاهروا بالعدوان فالتقاهم انكس بجنوده وكسرهم ونقل سكان بعض مدنهم الى رومية واسكنهم على رابية افنتينس التي اضافها الى المدينة ومدَّ ايضاً الاسوار حول رابية جانيكولم وبنى هناك قلعة وجسرًا فوق النهر وحفر خندقًا عظيماً حول الاماكن الواطية ليصونها من الاعداء اذا هجموا بغتة وحارب بعد ذلك الصابنيين والفدنيين واخضعهم ووسع هيكل جوبيتر فرتريوس وبنى مدينة ومرفأ اوستيا عند مصب نهر التيبر على بعد ستة عشر ميلاً من رومية وكان بين رجالهِ فارسٌ اتروري اسمهُ طاركوينس قد اشتهر بشجاعتهِ وذكاه وخبرتهِ بالفنون الحربية فأحبهُ انكس جدًّا ورفع مقامهُ وادخلهُ عضوًا في المجلس العالي . ومات انكس بعدما ملك اربعة وعشرين عامًا تاركًا ولدين اقام عليهما وصيًّا ومناظرًا صديقهُ طاركوينس المذكور

الفصل الخامس

في ملك طاركوينس برسكس اوطاركوينس الاول

من سنة ٦١٦ الى سنة ٥٧٨ ق . م

او سنة ١٣٧ الى سنة ١٧٥ ب . ر

كان بكرنثوث في عهد سيبسلس الظالم ملك تلك المدينة رجلٌ غنيٌّ جدًّا اسمهُ دامارتس من العائلة الشريفة التى استلب سيبسلس الملك منها فهذا الرجل لما راى جور الامير الجديد أشفق على نفسهِ واموالهِ منهُ فجمع ما عندهُ من السلع والمال ورحل في الحال الى طاركويني احدى مدن

أترو ريا العظيمة وسكن فيها مستوطنًا وتزوج هناك امرأة شريفة ولدت لهُ ابنين اسم احدهما ارنكس واسم الاخر لوكومو ومات ارنكس قبل ابيهِ تاركًا امرأتهُ حبلى ومات دمارتس ايضًا في ذلك الحين جاهلاً امر حبل كنتهِ وتاركًا كل ثروتهِ للوكومو ابنهِ الاصغر وهكذا حرم ابن أرنكس قبل ان يولد حصتهُ من ميراث جده فدعوهُ لذلك اجاريوس اي الفقير

اما لوكومو فشرع يبحث عن الوسائل التي تخولهُ العظمة والفخار في مدينة طاركوبني راغبًا في الارتقاء الى المناصب العالية و باذلاً جهدهُ في استمالة الجمهور توصلاً الى ما يبتغيهِ الا انهُ خاب مسعاه ولم يفز بطائل لكونهِ عدَّ غريبًا غير اهل لنيل ما هو ساع لنيلهِ فرحل لذلك الى رومية واقام فيها فمنحهُ ملكها حقوقًا كالوطنيين واكرمهُ غاية الاكرام واعلى مقامهُ ودعا لوكومو ذاتهُ طاركوينس بدلاً من دامارتس واحبهُ الشعب الروماني ومال اليهِ لشجاعتهِ وفطنتهِ وسخائهِ ولما مات انكس طمحت ابصارهُ الى الملك وصمم على اختلاسهِ من ابن انكس القاصر فجمع الرومانيين وحضهم على انتخابهِ ملكًا عليهم مظهرًا لهم فضائلهُ وذاكرًا الافعال الخيرية والاعمال العظيمة التي اجراها لهم فرضي الرومانيون بهِ ملكًا وانقادوا لهُ طائعين

وزاد طاركوينس الآباء اعضاء المجلس العالي مائة عضو ليقوي حزبهُ ويزيد عدد المنتصرين لهُ وكان اولئك الاعضاء الحديثون من العوام فاعطاهم حقوقًا وامتيازات كالاعضاء الباقين واعتبرت اولادهم من القوم الشرفاء

وادعت الامم المجاورة التي اخضعها الرومانيون قبلاً ان خضوعها كان واجبًا مدة حيوة الملك الذي حاربها وعقد معها صلحًا وانها قد امست الآن مستقلة اذ تلك العهود قد ماتت بموت الملك واشهر بعض اللاتينيين الحرب فتقدم طاركوينس بعساكره وحاصر مدينة ابيولي واستولى عليها بخدعة وباع سكانها عبيدًا وندم الكرستيميون على عصيانهم فصفح عنهم

واسكن بينهم جماعة من الرومانيين واستولى بعد ذلك على كولاسيا وملك عليها اجاريوس ابن اخيهِ الذي دُعي كولاتينس نسبة الى المدينة المذكورة وزحف الى كورنيكولم وأذاق اهلها ثمر العصيان وحارب اللاتينيين والصابنيين وبعضاً من الاترورييين وغلبهم فدان لهُ الجميع صاغرين ولما رجع الى رومية دخلها بافتخار عظيم محتفلاً بنصراتهِ العديدة وأنفق الاموال التي جمعها من المدن المغلوبة في بناءِ ملعب لاجل الالعاب الرومانية العمومية

وكانت اتروريا بلاداً واسعة جداً مقسومة الى اثني عشر قسماً فلما رأى امراؤها طاركوينس قد غلب بعضاً منهم نهضوا جميعاً لمحاربتهِ واستولوا على بلاد الفدنيين بخيانة بعض سكانها ومن هناك اغاروا على اراضي رومية فصبر طاركوينس مدة الى ان جهز جنوداً وفرساناً كافية وخرج لقتالهم فجرى بين الفريقين موقعتان نال الرومانيون في كلتيهما الظفر على اعدائهم ولما كانت فدنيا مدينة الفدنيين مفتاح اراضي رومية عوَّل طاركوينس على اخذها . وبعد ما كسر الاتروريين في موقعة ثالثة حاصرها واستولى عليها وقتل بعض سكانها الذين خانوهُ وسلموها الى الاعداءِ ووهب اراضيهم لعساكره ثم اسرع وقاتل الاتروريين لانهم كانوا عازمين على جمع جنودٍ جديدة وانتصر عليهم فارسلوا اليهِ رسلاً يسالونهُ السلام ويعلنون خضوعهم لهُ فرضي بما طلبوه اليهِ وامر بكف العدوان

وبعث الاتروريون الى طاركوينس دلالة على خضوعهم لهُ تاج ذهب وعرش عاج وصولجاناً وثوباً موشياً وثوباً آخر ارجوانياً فلبس طاركوينس هذه الثياب الفاخرة واحتفل بنصرتهِ راكباً في مركبة مذهبة تجرها اربعة افراس

وصرف همهُ بعد هذه النصرات في اصلاح المدينة فبنى سورها من الحجارة المنحوتة وأزال المستنقعات التي كانت في الاماكن الواطية حول الفورم

و بنى قنوات عظيمة لجلب المياه الى رومية وطرح الاقذار الى الخارج واصلح الفورم وشاد فيه حوانيت للبائعين والصيارفة وفتح مدارس للصبيان والبنات و بني هياكل للالهة وقاعات وغرفًا للحكام ثم نهض لمحاربة الصابنيين محتجًا بانهم اعانوا الاترور بين حينما كان يحاربهم وزاد في ذلك الحين فرسانهُ وجعل عددهم يبلغ الفًا وثمانمائة فارس وأمدَّ الاترور يون الصابنيين بفرقة من جنودهم وانت الجيوش المتحدة وعسكرت عند مصب نهر أنيو في التيبر و بنت جسرًا هناك اما طاركوينس فعسكر على نهر انيو ونظر حركة المياه الجارية فخطر في بالهِ ان يحرق الجسر الذي بنتهُ اعداؤُهُ فعمل قوارب وملاها حطبًا يابسًا وكبريتًا ومواد اخرى سريعة الاحتراق وقذف هذه القوارب ليلاً بعد ما اشعلها في نهر أنيو من جهة وفي نهر التيبر من جهة اخرى فسارت مسرعة لان الريح كانت موافقة لها فالتهب الجسر حالاً واحتدمت النار وتراكض الصابنيون لاطفائها تاركين معسكرهم بلا حراس فتقدم طاركوينس بعساكره تحت جنح الظلام واستولى عليهِ قبل بزوغ الشمس وذعر الاعداء لما ابصروا ذلك وانهزموا فمات بعضهم حريقًا و بعضهم بسيف الرومانيين والبعض الاخر غرقًا وزحف بعد ذلك الى صابينيا وقاتل اهلها وكسرهم ثم هادنهم وارتدَّ راجعًا ولما انقضت ايام المدنة جمع الصابنيون جندًا جديدًا وعبروا نهر انيو وأغاروا على ارض رومية فبادر طاركوينس اليهم وقهرهم بتدبيره و بسالة جنوده وظنَّ الصابنيون انكسارهم ناتجًا من جهل وضعف قائدهم فخلعوهُ وانتخبوا قائدًا اخر وهموا بالهجوم على الرومانيين فالتقاهم طاركوينس واغار عليهم فارتدوا الى الوراء وتحصنوا في معسكرهم و بقوا فيهِ محصورين الى ان كانت ليلة حالكة الادم وشديدة العواصف خرجوا فيها من معسكرهم سرًّا وساروا الى بلادهم تحت جنح الظلام غير انهم لم ينجوا من سيف طاركوينس لانهُ كسرهم في السنة التالية كسرة هدت منهم الازكان وأكرههم على ان يسلموا اليهِ مدنهم الحصينة

ليسلموا من شرّهِ وان يعقدوا معهُ صلحًا مقرّين بسيادة الرومانيين وخضوعهم التام لهم

وحقد ابنا انكس مارسيوس على طاركوينس لانهُ خانهما وسلب منهما الملك فكانا يجهدان دائمًا في احباط اعمالهِ وتسويد سيرتهِ في اعين الشعب وهو يزداد مع ذلك عظمة وباسًا غير مبالٍ بتهم الحاسدين المرجفين ولا مكترث بمكائدهم وخبثهم ساعيًا لادراك ما يبتغيهِ من توسيع نطاق المملكة وزيادة فخره ومجدهِ كيف لا وهو اول ملك روماني جلس على عرش ولبس تاجًا وثوبًا مزركشًا أرجوانيًّا ولما راى ابنا انكس ان كل اجتهادهما لم يجدهما نفعًا استاجرا شابين اللذان تزيّا بزي فلاحين وحملا فاسين وذهبا الى امام قصر الملك واخذا يتشاجران هناك ويتصايحان فخرج اليهما بعض الشرط وقادهما الى الملك فشرع كل منهما يقص قصتهُ ويعرض شكواه بحدة وجلبة وهما يتقاطعان الكلام ويزيدان الصراخ فانف الملك منهما وامرهما ان يتكلما بهدوٍ واذ كان مصغيًا الى احدهما ايي شكواه رفع الاخر فاسهُ وضربهُ بها فشق راسهُ وافلت مع رفيقهِ وانهزما

وشاع هذا الخبر حالاً فتراكض الرومانيون ليعلموا جلية الامر فاوصدت طاناكويل زوجة طاركوينس باب القصر محتجة بان الملك مجروح يحتاج الى الراحة والسكون ثم خاطبت الشعب من كوّة قائلة ان جراح الملك ليست بليغة كما ظننت اولاً بل سيشفى عن قليل ويامرهم لذلك ان يطيعوا في كل الامور سرفيوس طليوس صهرهُ وفي الغد جلس سرفيوس على العرش ولبس الثياب الملوكية وتولى القضاء وامر باحضار ابني انكس فلم يوجدا لانهما هربا من المدينة فحجز عقارتهما وما يملكان وحكم عليهما بانهما مذنبان خائنان

ودامت الحال هكذا بعض ايام الى ان استتب الامر لسرفيوس طليوس فاشهر موت الملك ببكاءٍ وعويل وشيع جنازتهُ باحتفال عظيم ثم قبض

على زمام الاحكام من غير ان ينتخبهُ الشعب والمجلس انتخابًا قانونيًا

الفصل السادس

في ملك سرفيوس طليوس
من سنة ٥٧٨ الى سنة ٥٣٤ ق.م
او
او من سنة ١٧٥ الى سنة ٢١٩ ب. ر

كان سرفيوس ابن اسيرة جلبها طاركوينس الى رومية من احدى المدن التي خربها ولم يعرف لهُ ابٌ شرعيٌّ او بالحري لم يتفق المورخون في هذا الامر غير انهم اجمعوا على كونهِ ولد في قصر الملك قبل تحرير امهِ التي كانت بديعة الجمال فاحبها الملك والملكة حبًا شديدًا واعتقاها واحبا لاجلها ابنها سرفيوس وربياهُ تربية حسنة وزوجاهُ ابنتهما وفوض اليهِ طاركوينس مرارًا عديدة فصل مسائل عمومية وحسم مشاكل سياسية فكان يتصرَّف في كل ذلك تصرف عاقل فطين فعرف الشعب فضلهُ وسجاياه الحسنة وقدرهُ حق قدرهِ لذلك لم يمنعهُ من القضاء والتسلط عند موت الملك كما تقدم المقال

وأنف الشرفاء واعضاء المجلس من فعل سرفيوس وارتقائهِ سرير الملك بلا انتخاب قانوني فاجتمعوا في منازلهم وتذاكروا في الامر مليًا وصمموا على ان يخلعوهُ ويحكموا عليهِ بذلك في اول مرة يلتئم مجلسهم اما سرفيوس فشرع يستميل العوام اليهِ ليقاوم بهم سلطة الشرفاء ثم جمعهم واخذ بين

يديه حفيدي طاركوينس وخاطب الجمهور قائلاً . ايها الرومانيون هذان هما حفيدا ملككم العظيم الذي قتلهُ كما علمتم القوم الظالمون وقد اوصى الملك اليَّ بهما وهو على فراش الموت افلا اعمل بموجب وصيتهِ ذاكرًا احسانهُ العميم اليَّ وانعامهُ العظيم عليَّ واني لاحثكم على مشاركتي في هذه الخدمة الجلى وارغب اليكم ان تساعدوني في هذا الامر مقابلة لما بذلتهُ في خدمة الوطن وانني لمستنكف ايها الرومانيون ان اراكم عبيد دائنيكم فانتم قد فتحتم بذراعكم ودماكم الاراضي التي استولى عليها العظماء ولا اراكم تملكون سوى قطعة ارض صغيرة لا تكفيكم غلتها فانتم مجبرون لذلك ان تحرثوا ارض اولئك العتاة لتعيشوا فلا ريب انكم قد احتملتم كثيرًا وحملتم زمنًا طويلاً جور الشرفاء الذين بالكاد يحسبونكم احرارًا لسبب فقركم ولكن انعموا بالاً فلسوف امنحكم كل ما يلزمكم

ووفى بعد ذلك سرفيوس من مالهِ دين الفقراء واصدر منشورًا يامر بهِ الذين اختلسوا الاراضي العمومية ان يخلوها في وقت عينهُ لهم ووزع تلك الاراضي على من ليس لهُ ملك

ووضع قوانين جديدة ابطل بها بعض امتيازات للشرفاء وحارب الفيين الذين جاهروا بالعصيان واخضعهم ووهب اراضيهم لمن كان فقيرًا بين الرومانيين ودخل المدينة باحتفال عظيم على رغم المجلس والعظماء ووسع رومية باضافتهِ اليها رابيتي اسكويلينس وفيمينالس وزوج حفيدي طاركوينس بابنتيهِ ليجازي اباهُ ويامن شرهما واحصى الشعب وقسمهُ الى ستة اقسام حسب ثروة كل واحد منهُ وفرض على كل قسم مكوسًا يدفعها وقت الحرب وذلك بالنظر الى غناه لا بالنظر الى عدد رجالهِ كما كان قبلاً وقسم الاقسام الى فرق وكثَّر الفرق الغنية وقلَّل الفقيرة من غير ان ينظر في هذا الامر الى عدد انفس القسم بل الى ثروتهِ كما اشرنا لان القسم الاول كان يشتمل على ثمانين فرقة والقسم الاخير وهو اكثر الاقسام انفسًا كان

يشتمل على فرقة واحدة وجعل حقوق الانتخاب واصوات الاقتراع حسب عدد الفرق ونظم الجندية وقسم رجالهُ الى عساكر عاملين وهم الذين لم يتجاوز عمرهم الخامسة والاربعين والى محافظين وهم الذين تجاوزوا هذا الحد وبلغ عدد الاحرار القادرين على الحرب اربعة وثمانين الفًا وسبعمائة رجل وامر ان يجدد احصاءُ الشعب وتقسيمهُ على النمط المذكور كل خمسة اعوام لان الدنيا كما لا يخفى دولاب تحدث في احوال بنيها تغييرًا مستمرًّا ۔

وعوّل هذا الملك الحكيم على زيادة عدد الوطنيين بوسيلة لم تخطر قط على بال احد من اسلافهِ وذلك انهُ تذكر زمن عبوديتهِ فاشفق على حالة اولئك الذين جعلهم سوءُ الحظ عبيدًا وامر بان كل عبد قد اعتقهُ مولاه واراد السكنى في رومية يعدُّ وطنيًا وابى الآباءُ اعضاءُ المجلس بادىء بدءٍ التصديق على هذا الامر فجمعهم وقال لهم لو كانت الطبيعة قد وضعت حدًّا فاصلاً او فرقًا بيّنًا بين من ولد حرًّا ومن ولد عبدًا لوجب علينا ان نراعي هذا الاختلاف ونفرز من الناس الذين يخالفونهم بالطبع والطبيعة غير انهُ لما كان هذا الفرق في احوال الانام نتيجة الحظ فقط وجب عليكم ايها الآباءُ ان تصلحوا بحكمتكم الفائقة احكام إلهة عمياءَ وهل تظنون هذه الإلهة إلهة الحظ التي تحملكم على احتقار رجال شجعان أُسروا في الحرب تعدكم نعماً دائمًا فكم امة قد اشتهرت بالشجاعة والباس قد خانها الدهر واذلها بعد الافتخار مع ذلك لِمَ لا تحسبون عبيدكم المعتقين وطنيين وانتم قد حررتموهم لانهُ اذا كان العبد شريرًا فلماذا تعتقونهُ واذا كان صادقًا وامينًا فاي مانع يمنعكم من اعتباره رومانيًا او كيف نحسب في عداد الوطنيين الذين ياتون من المدن المجاورة ليستوطنوا في مدينتنا غير باحثين عن اصلهم ونحرم هذا الحق من عاش معنا وتخلق باخلاقنا وعدَّ اهلاً لان يعتق ويكون حرًّا أتغفلون عن المنفعة العمومية التي تتطلب هذا الامر وتجهلون منفعتكم ايضًا ألستم تعلمون ان وجود الذين اعتقتموهم في عداد الوطنيين

ما يزيد سلطتكم ونفوذكم وعدد المنتصرين لكم

فانتصحت الآباء بكلامهِ وصدّقت على امره بشان المعتقين واقام سرفيوس قضاة من اعضاء المجلس لينظروا في الدعاوي المدنية والجزائية ويفصلوا الخصومات ووضع لهم شرائع وقوانين يحكمون بموجبها

واراد الملك توطيد السلام وتقوية صلات الاتحاد بين شعبهِ وبعض الامم المجاورة فخابر اللاتينيين والصابنيين في بناء هيكل برومية للإلهة ديانا يحضرون اليهِ مرةً في كل سنة ليقدموا مع الرومانيين الذبائح والقرابين لهذه المعبودة وينظروا بعد انقضاء ايام العيد في المشاكل التي تعرض لهم فقبل اللاتينيون والصابنيون بما اشار بهِ وبنوا الهيكل المذكور على رابية افنتينس وعقدوا معهُ عهدًا ووضعوا قوانين لترتيب الجلسات وفصل الدعاوي ونقشوا العهد والقوانين على عمود حفظ في هيكل ديانا الى ايام اغسطس قيصر

وقد روي عن هذا الملك الفاضل انهُ اراد في اخر حياتهِ ان يعتزل عن السياسة والملك ويقيم في رومية حكومة جمهورية الا انهُ لم يستطع اجراء ذلك الامر كيف لا وصهرهُ طاركوينس البكر الملقب بالعاتي كان واقفًا لهُ بالمرصاد وكانت زوجة طاركوينس هذا تجهد في ان تلطف عوائد بعلها بلطفها وادبها وهو يزداد على مرّ الزمان قسوةً وفجورًا وكانت امرأة اخيهِ شرسة متكبرة تلح على زوجها العاقل ان يستخدم وسائل دنية بربرية لسلب الملك من ابيها وهو لا يرضخ الا لا ميالهِ الحسنة ولا يحب غير السلم والعدل فاخذت هذه الفاجرة تشكو سوء حظها لتزوجها رجلاً على زعمها سخيف العقل بليدًا وشرعت تتزلف من سلفها الذي احبها وتواطآ معها على سمّ بعلها وامرأتهِ ليقترن بها ويدبرا ما يبتغيان ففعلا هذا الفعل القبيح ثم عمد طاركوينس الى اهلاك سرفيوس فاستمال اليهِ السواد الاعظم من الآباء الذين كرهوا الملك لحبتهِ العوام وملكهِ على الرومانيين بلا انتخاب

قانوني

وعلم سرفيوس بما كان صهرهُ وابنتهُ يدبران فاراد ان ينصح لهما لعلهما يرجعان عن غيهما و يعقلان فاحتقراهُ وصمم لذلك طاركوينس على عرض دعواه للمجلس العالي وشكاية حيوانهُ لم يبالِ بالآبآء اذ ملك بالرغم عنهم وانهُ قد ادعى كونهُ وصيًا عليهِ ليختلس الملك منهُ فاجابهُ سرفيوس قائلاً انني لم املك كوكيل عنك او عن اخيك ولكنني اقدمت فقط على صيانة حياتكما من ابنيّ انكس اللذان بلا ريب احق منكما بالملك لوكان الملك كما تزعم بالوراثة ثم قال والآن ايها الآبآء لماذا انتم جاهدون مع هذا الرجل في اهلاكي هل رايتموني ظالمًا فرمتم الانتقام مني او خلتموني متكبرًا فاحببتم اذلالي مَنْ مِنْ ملوككم السابقين عمل ما عملتهُ لكم وسار السيرة التي سرتها ألم احب الوطنيين جميعًا كما يحب الاب الحنون اولادهُ وهلا اقمت منكم قضاة ينظرون في امور الشعب ولكنكم قد كرهتموني لمحبتي العوام مع هذا اذا رايتم طاركوينس افضل مني وصممتم على تمليكهِ فانا لا استنكف من ذلك بل اعرض الامر للشعب الذي ولاني

وفض المجلس بعد ذلك وامر باجتماع الشعب في الفورم او الساحة العمومية ولما ازدحمت الاقدام هناك وقف بين القوم خطيبًا واسترعام السمع ذاكرًا حروبهُ والنصرات التي حازها بشجاعتهِ وتدبيره ثم اجمل كلامهُ عن القوانين التي وضعها والمنافع الكثيرة التي انالها الامة الى ان قال قد ظهر لي منازع ينازعني السلطة التي تقلدتها لاسعى في سبيل سعادتكم ايها الرومانيون و يزعم ان جدّهُ قد اورثهُ الملك عند موتهِ وانهُ لا حق لكم في تولية من تودون توليتهُ افترضون بذلك ولا تغضبون او تدعونهُ يسلب حقوقكم وانتم صابرون واذا كنتم قد مللتم ملكي وسئمتم مني وفضلتم طاركوينس عليّ فانا اطلب اليكم ان تستردوا قضيب الملك الذي اعطيتموني ايهِ

فحنق الشعب عند سماعهِ هذه الكلمات وهمَّ بقتل طاركوينس الذي اسرع الى منزلهِ فرارًا من القتل وهيجان العوام اما سرفيوس فرجع الى قصره ظافرًا فرحًا

ولما كانت ايام الحصاد وكان اكثر الشعب خارج المدينة متفرقًا في الحقول لجمع اغلالهِ لبس طاركوينس ثيابًا ملوكية ورتب خدامهُ واصدقاءهُ على هيئة جند واعوان وذهب معهم الى الهيكل حيث كان الآباء عازمين على الالتئام وارسل يامرهم باسم الملك طاركوينس ان ياتوا في الحال ثم تقدم بهدو ورصانة وجلس على العرش وكان بعض الاعضاء عالمًا بالخدعة فجاء مسرعًا ليرى ما يكون واما الاكثرون فظنوا سرفيوس قد مات فبادروا الى الحضور لئلا يحسب غيابهم في مثل هذه الاحوال ذنبًا ولما انتظمت الجلسة اخذ طاركوينس يطعن في حميهِ قائلاً انهُ عبدٌ وابن اسيرة وانهُ قد ملك بالمكر والخداع لا بانتخاب الشعب والآباء كما جرت العادة وانهُ قد سلب املاك الشرفاء ووهبها للادنياء نظيرهِ وقد حمَّل العظماء اثقالاً كانت مفروضة على العموم وقد قسم الرومانيين الى اقسام وفرق حسب ثروة كل واحدٍ منهم ليجعل اموالهم مطمحًا للابصار وعرضة للحسد او بالحري ليوزعها بين الشحاذين متى اراد

وما اتم طاركوينس كلامهُ الا ورأى سرفيوس مقبلاً فنهض اليهِ وامسكهُ بيدهِ وسحبهُ الى الباب ومن هناك طرحهُ الى أسفل ثم أرسل بعض رجالٍ اجهزوا عليهِ وسمعت طوليا زوجة طاركوينس ما حدث فاتت مسرورة لتهنيء بعلها وقيل ان مركبتها مرت على جثة ابيها وتلطخت بدمهِ وقد دعيت تلك الطريق فيكوس سيليرانس اي الطريق الشريرة

وهكذا مات هذا الملك الحكيم الذي عاش اربعة وسبعين عامًا وملك اربعة واربعين وبقيت جثته مطروحة الى ان ادلهم الليل فاخذتها امرأتهُ ودفنتها سرًّا اما الشعب فحزن عليهِ جدًّا وكانت العبيد تحتفل لهُ كل سنة

بعيدٍ في هيكل ديانا تذكاراً لمحبتهِ اياهم واحسانهِ اليهم

الفصل السابع

في ملك طاركوينس العاتي او طاركوينس الثاني
وهو آخر ملوك رومية
من سنة ٥٣٤ الى سنة ٥١٠ ق٠م
او
او من سنة ٢١٩ الى سنة ٢٤٢ ب٠ ر

وخلا الجو لطاركوينس ونال ما كان يبتغيهِ فاستبد بالملك وعنا غير خاشٍ لاعمالهِ رقيباً ولا راحم في ظلمهِ غريباً او قريباً يجري ما يروم اجراءهُ من غير استشارة المجلس والشعب ولقد تسنى لهُ ذلك وامن كل غائلة بتنظيمهِ فرقة عساكر غرباء لوقاية شخصهِ وتنفيذ اوامرهِ وزاد هذا الظالم فجورهُ فجوراً بان منع المظلوم من التشكي وعزل القضاة الذين اقامهم سرفيوس واعلن نفسهُ الحاكم الوحيد الذي ترفع اليهِ الشكوى والقادر على فصل كل معضلة ودعوى وكان ينظر في سائر الاحوال الى الاغنياء كمذنبين ليلتهم اموالهم ويرديهم اذا امكنهُ ذلك . ولقد قتل شيخاً جليلاً اسمهُ يونيوس سليل عائلة شريفة واباً يونيوس بروتوس الشهير الذي الغى الحكومة الملكية وكان طاركوينس الاول قد زوَّج يونيوس هذا بابنتهِ لسبب ثروتهِ العظيمة فامر الملك الجديد بقتلهِ مع ابنهِ ليستولي على املاكهِ واموالهِ الكثيرة انما بروتوس نجا من القتل بتباهلهِ

ولم يراعِ طاركوينس في جورهِ غنيًا او فقيرًا بل كان الجميع لديهِ سوآءً. فابطل قوانين سرفيوس وتقسيمهُ الشعب الى اقسام وفرق وجعل جباية المكوس حسب عدد الانفس لا حسب الثروة كما رتب سلفهُ

وعلم طاركوينس ملل الرومانيين منهُ وضغنهم عليهِ فسعى في محالفة الامم الغريبة لتكون لهُ عونًا في الشدائد ونصيرة على قومهِ اذا مست الحاجة وزوج لذلك اوكتافيوس ماميليوس البطل اللاتيني بابنتهِ واكتسب بوساطتهِ صداقة كثيرٍ من روسآء وعظمآء اللاتينيين

وسال اللاتينيين ان يرسلوا الى رومية رسلاً ليخابرهم في امور جليلة فاتت الرسل واجتمعت في اليوم المعين بهيكل فلورا واقامت فيهِ تنتظر طاركوينس الذي لم يحضر في ذلك النهار ولم يبعث احدًا يخبر المجتمعين بما يشغلهُ عن الحضور ولما عيل صبر الجماعة وملت الانتظار قام ترنس هردونيوس الذي كان يبغض ماميليوس صهر الملك وقال لارفاقهِ انني لا اعجب من تلقيب الرومانيين طاركوينس بالعاتي كيف لا وهو قد اراد الآن ان يسخر من الامة اللاتينية فدعا روساءها الى الاجتماع وحينما اجتمعوا رفض مقابلتهم فلا ريب انهُ رام سبر غورنا ليرى صبرنا ويعلم كيف يظلمنا متى خضعنا لهُ فلنرجع اذًا الى بلادنا غير مبالين بهِ وبمقابلتهِ اما ماميليوس فاعتذر عن الملك ورغب الى السفرآء ان يلتئموا في الغد ففعلوا ولما انتظمت الجلسة في اليوم الثاني اتى طاركوينس واعلم الرسل ان مرادهُ تولي قيادة جيوشهم قائلاً ان ذلك حقٌ قد ورثهُ من جده وانهُ قد جمعهم ليلتمس منهم التصديق على هذا الامر فاعترضهُ هردونيوس اعتراضًا قويًا ودحض دعواهُ بحججٍ دامغة وبراهين ناصعة واستنهض همة رفقائهِ وحثهم على ان لا ينيلوا هذا الامير المتكبر الجائر ما يبتغيهِ لئلا يقعوا في فخاخ ظلمهِ ولات حين مناص

فذهل طاركوينس من جسارة هردونيوس ولم يستطع ان يجيبهُ ببنت

شفقة غير انهُ سال الرسل الاجتماع مرة اخرى ثم سعى في استمالة خدام هردونيوس اليهِ وأغراهم بتخبئة اسلحة بين امتعة سيدهم ففعلوا وقابل بعد ذلك اللاتينيين وقال لهم ان هردونيوس قد تكلم ما تكلمهُ عن بغض وضغينة لانهُ رام الاقتران بابنتي فابيت مصاهرتهُ مع ذلك ما لنا ولهذا الكلام فالمهم المهم ايها اللاتينيون ان تنظروا الى وقاية انفسكم وحريتكم وتمنعوا غدر هذا الخبيث الماكر الذي نصب لكم احبولة ويريد اهلاككم جميعًا ليتسنى لهُ التسلط المطلق على سائر المدن اللاتينية وقد خبأ اسلحة بين امتعتهِ ليغدر بكم وينال ماربهُ فرعب الحاضرون جدًّا وبادروا في الحال الى فحص القضية وتحقيقها ولما وجدوا الاسلحة بين امتعتهِ كما ذكر الملك قاموا عليهِ وقتلوهُ وجددوا مع طاركوينس الاتحاد ورضوا بهِ قائد جيوشهم العام وحالفهُ ايضًا في ذلك الحين الارنيون او الجبليون وبعض من الفولسيين ثم حارب الفولسيين الذين لم يحالفوهُ واستولى على مدينتهم وترك اسلابها غنيمة لعساكرهِ وزحف الى صابنيا وقاتل الصابنيين وقهرهم وارتدَّ راجعًا الى رومية ودخلها باحتفال عظيم واخذ في اتمام بناء الملعب والقنوات التي شرع بها جدهُ

وكره الشرفاء اعمالهُ الوحشية وسئموا مظالمهُ الكثيرة فغادروا وطنهم ولجأوا الى غابي وهي مدينة في اللاتيوم على بعد اثني عشر ميلاً من رومية فالتقاهم سكانها بالترحاب واحلوهم عندهم محلاً عاليًا وبادروا الى محاربة طاركوينس انتصارًا لاولئك التعساء فدامت الحرب بين الفريقين سبعة اعوام واضرتها ضررًا بليغًا اذ المعامع والغارات كانت متتابعة ومانعة الفلاحين من زرع اراضيهم فقلَّت الحنطة في رومية وغلت اثمانها وبات جميع الرومانيين في ضنك عظيم فهاجوا وطلبوا الى الملك بالحاح اما ان يعقد صلحًا مع الاعداء او يعطيهم قوتًا حينئذٍ دبر طاركوينس حيلة املتها عليهِ شراسة اخلاقهِ وخيانتهُ وأتمها دناءة ورداءة ابنهِ سكستس طاركوينس

الذي تظاهر انهُ مغتاظٌ من ابيهِ وخرج من المدينة منهزمًا ولجيء الى غابي فاكرمهُ الغابيون وقلدوهُ قيادة فرقة من جنودهم وكان سكستس يغير بفرقتهِ على اراضي رومية ويرجع ظافرًا غانمًا ونظر الغابيون الى شجاعتهِ واخلاصهِ لهم فاغتروا بهِ وائتمنوهُ وجعلوهُ قائدًا عامًّا لجيشهم فاستتب لهُ الامر واصبح الآمر الناهي ثم ارسل عبدًا يسأل اباهُ عما يلزم ان يفعل فقاد طاركوينس العبد الى بستان واخذ يحطم بعصاه رؤُوس سوق الخشخاش الطويلة وصرفهُ من غير ان يكلمهُ اما سكستس ففهم مغزى هذا الرمز وقتل رؤَساء الغابيين وكبراءهم وفتح ابواب المدينة للرومانيين فدخلها طاركوينس منتصرًا ولم يوذ اهلها بل عامل الجميع بالرفق والاحسان وملَّك عليهم ابنهُ سكستس المذكور

واتت طاركوينس يومًا امرأَة معها تسعة اسفار تريد بيعها بثمن فاحش جدًا فرفض الملك اشتراءها فذهبت وحرقت ثلثة منها ثم رجعت وطلبت الثمن الاول فطردوها باحتقار وظنوها مختلَّة الشعور فمضت وحرقت ثلثة كتب أيضًا وجاءت تطلب بالباقي ما طلبتهُ اولاً ثمن التسعة فعجب طاركوينس من فعلها ورام معرفة فحوى هذه الاسفار فدفعها الى العائفين ففحصوها وعرفوا انها كتب ساحرة كُوميَ فنقد الملك للمرأة الثمن واخذ الكتب وحفظها باعتناء . ولما بني هيكل جوبتير كابيتولينس وضعت فيهِ بمحل افرد لها لانها اعتبرت مقدسة ومشتملة على معرفة طالع الرومانيين واسرار المستقبل .

واتم طاركوينس بناء هيكل جوبتير على رابية طاريبس التي دعيت حينئذٍ كابيتولينس لانهُ بينما الفعلة كانت تحفر في الارض وجدت راس انسان (في اللاتينية كابوت) غائصًا بالدم كانهُ مذبوح حديثًا فاعلن المبصرون ان هذا الامر رمز يشير الى كون رومية ستصبح راس او عاصمة العالم .

وفشا الطاعون في رومية وظهرت علامات مخيفة رعبت طاركويتس وحملتهُ على ارسال ابنيهِ مع يونيوس بروتوس الى بلاد اليونان ليستشيروا وحي دلفي عن اسباب الوباء والوسائل اللازمة لازالتهِ فقدم ابنا الملك هدايا فاخرة وقرابين ثمينة للاله ابولون وقدم بروتوس عصا ضخمة ومجوفة ملأَها من داخل بالذهب الابريز كنايةً عن فطنتهِ ومجاياهُ الحسنة المستترة تحت برقع التباله ولم يعلم رفيقاه ما حوت العصا فاستغربا في الضحك سخرًا منهُ ثم اوحى اليهم الاله ما اوحى واخبرهم انهُ سيطرأُ على الحكومة تغيير وسيكون في رومية ملك جديد وان الرجل الذي سيتسلط على الرومانيين هو واحدٌ من الحاضرين الذي يسبق صاحبيهِ الى تقبيل امهِ فادرك بروتوس مغزى الوحي وسقط على الارض وقبلها لانها ام كل حي ولما رجعوا الى رومية راوا الحرب منتشبة بين الرومانيين والرتليين وكان الملك طاركوينس قد زحف بجيشهِ لمحاصرة أرديا ولم يكن القتال حينئذٍ عنيفًا بل كانت القواد تقضي اكثر الاوقات باللهو والمسرات وحدث يومًا ان سكستس طاركوينس ادب مادبة دعا اليهـا اخوهُ وقريبهُ كولاتينوس واخذ الداعي والمدعوون يتكلمون عن النساء وفضلهنّ وكان كلٌّ يعظم شان امرأتهِ ويفضلها على سواها حتى افضى بهم الامر الى اللجاج فعمدوا الى امتطاء صهوات الخيل والذهاب توًّا الى منازلهم لينظروا ما تعمل نساؤهم فاتوا اولاً رومية ووجدوا حلائل الطاركوينيين مشتغلات بالمزح والافراح ومنهمكات في احياء ليلتهنَّ مع اترابهنَّ وارتشاف كؤوس الصفو والانشراح ثم مضوا الى كولاسيا فرأوا لوكريسيا امرأة كولاتينس قائمة مع خادماتهـا بغزل الصوف والاشغال وكانت لوكريسيا هذه بديعة الحسن والجمال فافتتن سكستس بها وتيمهُ حبها

وبعد بضعة ايام رجع سكستس سرًّا الى كولاسيا ونزل في بيت نسيبهِ كولاتينس فالتقتهُ لوكريسيا بالترحاب واكرمتهُ غاية الاكرام وافردت لهُ

غرفة لينام فيها ولما ادلهم الليل وقد رقد كل من في المنزل انسلّ سكستس من غرفته ودخل خدر لوكريسيا مجردًا حسامهُ ودنا من سريرها ووضع يدهُ اليسرى على صدرها وايقظها وقال لها لوكريسيا انا سكستس طاركوينس اياك والصراخ والا قتلتك بحدّ هذا القرضاب ثم طفق يبثّ لها شكواه ويظهر غرامهُ وجواه متلطفًا تارة ومتهددًا اخرى وهي تدفعهُ عنها وتزداد منهُ نفورًا عند ذلك قال لها انهُ عازم على قتلها وقتل احد عبيدها واتهامها بالزنى معهُ واذاعة فجورها بين الملا فخافت لوكريسيا من هذه التهم وان تكن باطلة واشفقت على صيتها وطهارتها وأنالت سكستس كرهًا ما كان يتمناه

وفي الغد نهض سكستس باكرًا ورجع الى المعسكر اما لوكريسيا فلبست لباس الحداد ووضعت تحت ثوبها مدية وكتبت الى زوجها وابيها لوكريسيوس ان يحضرا بالعجل فاتيا حالاً مع بروتوس والاب فالريوس ولما استقرّ بهم القرار حدثتهم بحديثها وحثتهم على الانتقام من ذلك الوحش الضاري ثم استلت مديتها وطعنت بها صدرها وسقطت على الارض لا حراك لها فعلا صراخ ونواح زوجها وابيها وبكاها كل من حضر وتقدم بروتوس واخذ المدية وهي تقطر دمًا ورفعها قائلاً اقسم بالالهة اني آخذ بثار لوكريسيا واني ابيد طاركوينس ونسلهُ الفاسق الشرير ودفع المدية الى الباقين الذين اقسموا كذلك ثم اخبر بروتوس اصحابهُ بسبب تبالهِهِ وحرّضهم الا يضيعوا الوقت بالبكاء على لوكريسيا وان يتصرفوا في الامر كابطال رومانيين ساعين فقط للانتقام واشار عليهم ان يوصدوا ابواب المدينة ويضعوا عليها حراسًا امناء كيلا يصل خبر مكيدتهم الى الملك فاجروا ما ارتأوهُ بسرعة عظيمة لان لوكريسيوس كان حاكم رومية من قبل طاركوينس وقادرًا ان يفعل فيها ما يشاء بلا مانع او معارض

وجمع بروتوس الشعب واراه جثة لوكريسيا واخبرهُ بما حدث وبسبب تبالهِهِ . ثم خطب خطابًا طويلاً اظهر فيهِ رداءة طاركوينس

وظلمة وختم كلامهُ بوجوب خلعهِ وطردهِ من رومية لاراحة الناس منهُ ومن اولاده الفاجرين العتاة فهاج القوم جدًّا عند سماعهم ذلك ورضوا بما ارتآه بروتوس وصدقوا على امر المجلس بهذا الشان

وابطل الرومانيون الحكومة الملكية ونادوا بالحكومة الجمهورية وبلغ الخبر الجيش الذي كان خارج المدينة يحارب الرتليين فسر بهِ وانضم الى المجلس ورجع الى رومية بعد ما عُقد الصلح مع سكان ارديا لخمسة عشر عامًا اما طاركوينس فذهب مع بنيهِ الى بلاد أتروريا وطن عائلة امه آملاً وجود اصدقاء ونصراء يعينونهُ على ابادة خصومهِ واسترجاع ما فقدهُ

الباب الثاني

من ابتداء الحكومة الجمهورية سنة ٥٠٩ الى حين
تجديد بناء رومية سنة ٣٨٨ ق.م بعد ما حرقها الغاليون
او
من سنة ٢٤٤ الى سنة ٣٦٥ ب.ر

الفصل الاول

في القنصلية الاولى

وانتخب الرومانيون لرئاسة الجمهورية بروتوس وكولاتينس زوج

لوكريسيا ودعوهما قنصلين ومنحوهما حق التسلط على الشعب وادارة الاعمال كلها كما كانت تفعل الملوك الا ان انتخابهما كان لسنة واحدة

وقدم القنصلان ذبائح وقرابين للآلهة كفارة عن آثامها وحلفا امام الشعب يمينًا الا يدعا طاركوينس ولا اولادهُ ولا احدًا من الناس يملك على رومية فيما بعد وهكذا حلف الشعب والآباء ثم اختار القوم رئيسًا للكهنة وانصرف الجميع مسرورين

وكان الطاركوينيون لا يألون جهدًا في تهييج اعداء رومية عليها واغرائهم بقتالها وكانوا يطوفون المدن والقرى لهذه الغاية واقام طاركوينس الشيخ في طاركويني واستمال اهلها بخداعهِ وجعلهم يرسلون رسلاً الى مجلس رومية يعرضون لهُ وجوب مرافعة الملك علنًا قبل طرده ويهددون الرومانيين ان ابوا اجابة ما سئلوهُ بان الامم المجاورة ستنهض يدًا واحدة لمحاربتهم وتكرههم على الاذعان وعرف الآباء خبث ورداءة طاركوينس وما وراء طلبهِ من الاخطار العظيمة فردوا الرسل خائبين لانهم لم يخشوا قتالاً او وعيدًا بل جهدوا في تقوية سلطتهم وتوطيد الجمهورية

وكان اكثر الفتيان الشرفاء في عهد الملك السابق قد اعتادوا اللهو والمسرات وارتكاب الفواحش لا يحسبون للقوانين حسابًا ولا يخافون لرفعة شانهم عقابًا وكانوا جميعهم مولعين بزخرفة الملابس وبهجة الاجتماعات والاحتفالات الملوكية فنظروا الى بساطة الحكومة الجديدة وعدلها وقساوة شرائعها نظرة الياس والاحتقار وباتوا ياسفون على ايامهم وافراحهم الماضية ويتمنون عود طاركوينس وجوره لتعود اليهم اوقات الصفو والهناء

ورأى اولاد الملك تلك الامور فظنوا امكان استخدام هولاء الفتيان لنيل مآربهم فسعوا اولاً في استرجاع امتعتهم واملاكهم وجعلوا اهل طاركويني يرسلون لهذه الغاية رسلاً الى رومية واعطوهم اوامر سرية لاثارة الفتن وقتل القنصلين ان امكنهم قتلهما

ونال الرسل ما طلبوهُ على رغم بروتوس لان كولاتينس رضي مع الشعب بانالتهم سوْلهم وبينما القوم كانوا منهمكين في ارجاع امتعة الملك وبيع املاكهِ قدر الرسل المذكورون على اثارة الفتنة واغراء بعض فتيان من جملتهم ابنا بروتوس بقتل القنصلين وصمم هولاء الفتيان على بذل النفوس توصلاً الى بغيتهم وحلفوا يمينًا بربرية وهي كما زعموا عظيمة وذلك انهم اتوا برجل وذبحوهُ وشربوا من دمهِ واقسموا على الثبات والتعاون وكانوا يجتمعون في محل للمذاكرة ثم كتبوا كتبًا الى الملك المنفي واعطوها للرسل غير ان احد عبيدهم عرف مكيدتهم واطلع عليها فالريوس الذي سعى مع اخيهِ واصدقائهِ لتحقيق القضية فتسنى لهُ الحصول على اوراق وكتب هولاء الماكرين والقبض عليهم جميعًا ـ

وفي اليوم التالي أحضر الاسراء الى محل الاجتماع وجلس القنصلان امام الشعب لينظرا في دعواهم فنادى بروتوس اولاً ابنيهِ وتلا الاوراق التي كتباها الى طاركوينس وامرهما بصوت جهير ان يجيبا عن ذلك ويتبرأا من هذه التهم البينة ان امكنهما الاحتجاج فاضطرب الفتيان وتلعثما وبكيا حتى كادا يشرقان بالدموع ورأت الاباء اعضاء المجلس بكاءهما وعبراتهما المتساقطة من جفونهما كالديمة المدرار فاشفقت عليهما وودت خلاصهما ولو بالنفي من المدينه وتلك الديار وبكى كولاتينس ايضًا اما بروتوس فنهض ودعا الشرط وقال لهم خذوهما وعجلوا باجلهما فقبض عليهما الشرط وبعد ان جلدوهما ضربوا عنقيهما وكان بروتوس ينظر الى كل ذلك بقلب ثابت ووجه عبوس ولما شرب ابناهُ كاس الحمام وخرّا صريعين مضى الى منزلهِ تاركًا لرفيقهِ النظر في دعوى الباقين

وكان كولاتينس يرغب في خلاص المذنبين الباقين لانهم اقرباؤهُ فسمح لهم بيوم يستعدون فيهِ للمدافعة عن انفسهم وامر ان يسلم اليهم العبد الذي وشى بهم فعارضهُ فالريوس والشعب ولم يرض احدٌ سواه بتسليمهِ .

واستفتى الجمع بروتوس في هذا الامر فاجاب اني قد فعلت ما فعلتهُ بموجب حقوقي الابوية وانهُ على الشعب الان الحكم على هولاء المذنبين حينئذٍ اصدر الجمع أمرًا بقتلهم كلهم ما خلا الرسل الذين طُردوا من المدينة وحُرر العبد الذي كشف المكيدة وأُعطي جزآء على ذلك خمسة وعشرين الف قصّ نحاسي (نحو ثمانين ليرة انكليزية ونصفًا) ثم أبطل المجلس امر ردّ املاك طاركوينس عليهِ وهَدَمَ قصرهُ ووزع عقاراتهِ على الوطنيين المحتاجين

وقويت شوكة بروتوس لما أظهر من القساوة في الحكم على ابنيهِ وتوطدت حكومتهُ لما ابدى من الهمة والنشاط في جميع اعمالهِ اما كولاتينس فاحتقرهُ الرومانيون وأنفوا منهُ لسلوكهِ مسلك الضعف والجبن وظنوهُ خائنًا لكونه قريب الطاركوينيين وكان بروتوس يبغض رفيقهُ اما لجنوحهِ الى الملك السابق او لتباينهما في المشارب والطباع فاغتنم هذه الفرصة وكلم الشعب قائلاً يابني الوطن لو عرفتم طبع كل من القنصلين عند انتخابهما واقدمتم على اختيار رجلين متوافقين في السجايا والاميال لكانت حكومتكم الجديدة بلا عيب غير انهُ يوجد بيني وبين رفيقي فرقٌ عظيم كالفرق بين مبغض الظلم ومحب الظالمين لان جنوح كولاتينس الى اقربائهِ الاشرار يجعلهُ يعمل كل ما هو آيلٌ لارجاعهم الم تروني سفكت دم ابنيَّ لصيانة حريتكم حينما كان كولاتينس جاهدًا في نزعها أَلعلكم ترجون منهُ خلاف ذلك وهو الذي قد سعى في ردّ املاك الجائرين واحتال في خلاص المذنبين فيا كولاتينس كيف أعفو عنك وانا الذي لم يعفُ عن سفك دم ولديهِ نعم انك رجلٌ حاضرٌ معنا ولكنّ قلبك غائب مع اعدآئنا . انت خائن تود وقاية ظالمي الوطن وترغب في اردآئي لاني ادافع عنهُ بغيرة ونشاط وبنآء عليهِ اعلمك انك معزول عن منصبك وانتم ايها الرومانيون ستلتئمون فرقًا للمصادقة على ما قلتهُ ولكم الخيار في انتخاب كولاتينس او بروتوس ولكنكم لا تقدرون على انتخابهما معًا

وأراد كولاتينس ان يجيب رفيقهُ ويبرأ ذاتهُ فلم يستطع لان هيجان الشعب كان عظيماً فرضخ لما أمر بهِ واعتزل عن منصبهِ ومضى الى مدينة لافينيوم وسكن فيها

وانتخب الجمهور قنصلاً ورفيقًا لبروتوس بوبليوس فالريوس وكان بوبليوس هذا مشهورًا بثروتهِ وحذقهِ وفصاحتهِ يحب الزهد والقناعة ويسلك في كل الامور مسلك الحكيم الفطين وعفا القنصلان عن الذين حازبوا طاركوينس بشرط ان يرجعوا الى المدينة بمدى عشرين يومًا فارتدَّ الى رومية عددٌ عديد من كبرائها

وبلغ الملك المنفي ما كان فتقدم بالجنود التي جهزها الفيون واهل طاركوبني واغار على اراضي رومية فالتقاه القنصلان بالجيوش الرومانية وكان بروتوس يقود فرقة الفرسان وفالريوس فرق المشاة وابصر احد اولاد طاركوينس القنصل بروتوس يتقدم فرقتهُ محاطًا بالجند والاعوان فصرخ ها هوذا عدونا الالد الذي نفانا من وطننا واستلب السلطة منا ثم نخس جوادهُ وهجم على بروتوس فبادر اليهِ هذا بقلب اقسى من الحجر وطعن كل منهما قرنهُ طعنة ذهبت بحياتهِ فخرّا مجندلين يخبطان بدماهما بعد ذلك حملت العساكر على العساكر واشتدَّ القتال بين الفريقين ودام الى المساءِ ولم يعلم ايهما الظافر حتى شاع خبر انهُ سمع صوت من غابة هناك يعلن النصر للرومانيين فرعب الاعداءُ من تلك الاشاعة وتركوا معسكرهم وولوا منهزمين .

وبكى الجميع بروتوس وحزنوا عليهِ لانهُ هو البطل الذي سفك دم ابنيهِ وبذل مهجتهُ فدى الوطن وحريتهِ . ونقلت جثتهُ الى رومية ودُفنت في الفورم وأبنهُ فالريوس وهو اول روماني أُبّن ميتًا وحدَّت النساءُ عامًا كاملاً حزنًا على من انتصر لجنسهنَّ وحمى عرضهنَّ من القوم الطغام

ووضع فالريوس قوانين عادلة وخفف سلطة القناصل ومنح الجمهور

حقوقًا جديدة فدعاهُ الرومانيون بوبليكولا اي المحبوب من الشعب وانتخبوا لهُ رفيقًا بدلاً من بروتوس لوكريسيوس ابا لوكريسيا الذي مات بعد انتخابهِ بايام قليلة فانتقوا لهذا المنصب العالي أوراسيوس بلفيلوس

الفصل الثاني

وفي سنة ٥٠٦ ق. م اراد بورسينا ملك مدينة كلوسيوم في بلاد أترور يا الانتصار لطاركوينس فزحف الى رومية بجيش جرّار وحاصر قلعة جانكولم واستولى عليها وأخرج منها الرومانيين الذين رجعوا الى الورآء ليدافعوا عن الجسر فتأثرهم بورسينا ونشبت الحرب بين الفريقين وقاتل الرومانيون في ذلك اليوم قتال الابطال وصبروا على الاهوال الى ان جرح قائدان من قوادهم العظام فذعروا وولوا منهزمين وكاد الاترور يون يدخلون المدينة لولا شجاعة أُوراتيوس كوكلس الذي ردّ وحدهُ هجمات الاعدآء. ومكّن القنصلين بفعلهِ هذا من هدم الجسر فوقع بالنهر وهو مدجج بالسلاح وكانت النبال تسقط عليهِ كالمطر الاّ انهُ نجا منها سابحًا وعمل لهُ الشعب تمثالاً نحاسيًا وُضع في هيكل فولكانس تذكارًا لبسالتهِ وجهادهِ بحماية الجمهورية ومنحهُ اراضي كثيرة ودراهم وافرة جزآء لهُ على اعمالهِ هذه التي خلدها التاريخ

واشتدّ الجوع في المدينة ولما علم بورسينا بذلك أرسل يخبر الرومانيين انهُ يعطيهم قوتًا كافيًا ان كانوا يقبلون بتمليك طاركوينس عليهم فاجابوهُ ان الجوع اقل ضررًا من العبودية والظلم

وكان في رومية فتى شريف اسمهُ ميسيوس كوردوس فهذا لما رأى الحالة التعيسة التي آل امرهم اليها تزيّا بزي الاترورِيين ووضع مدية تحت ثيابهِ وخرج من المدينة وبما انهُ كان يتكلم جيدًا اللغة الاترورية لم يجد مانعًا من دخولهِ الى معسكر الاعداء فانسل بين العساكر والقواد وتخلل الخيام الى ان وصل الى سرادق الملك فولجهُ وكان بورسينا في ذلك النهار جالسًا مع وزيره يعرض الجيش فظن ميسيوس الوزير انهُ الملك فوثب عليهِ وطعنهُ طعنة كانت القاضية ثم هم بالهرب فامسكهُ الحاضرون اما بورسينا فتعجب من شجاعة هذا البطل الذي كانت تلوح عليهِ سمات الحنق والقهر لانهُ لم يقتل من كان متعمّدًا قتلهُ وكانهُ اراد ان يقاص نفسهُ على خطاءِه فوضع يدهُ في النار التي اعدت لاهلاكهِ وكان ينظر اليها وهي تحترق من غير اظهار ألم او ضجر حينئذٍ تحول غضب الملك الى اندهال عظيم وخاف خوفًا شديدًا لما اعلمهُ ميسيوس أن ثلث مئة فتى روماني قد تعاهدوا باقسام عظيمة ان يقتلوهُ فعفا عنهُ واطلقهُ بعد ما اعطاه المدية التي كان عازمًا على اردائهِ بها ثم عقد مجلسًا للائتمار بالوسائل التي يلزم اتخاذها لصيانة نفسهِ من الاخطار المحيطة بهِ وكان ابنهُ أرونس يحب الرومانيين لبأسهم وجسارتهم فقال لهُ ان احسن الوسائل الواقية هي ابرام صلح مع هذه الامة فانتصح الملك بهذا الكلام وكف عن الحرب والعدوان

وارسل الرومانيون الى برسينا رهائن عشر بنات عذارى وعشرة صبيان من احسن العائلات وحدث انهُ بينما كانت اولئك البنات يغتسلن في النهر نظرت احداهنّ المسماة كليليا الى رومية فشاقها منظرها وتذكرت وطنها فاخذت تسبح والبنات يتبعنها حتى وصلن جميعًا الى الضفة المقابلة ودخلن المدينة سالمات وشاع هذا الخبر حالاً وبلغ بورسينا فزاد عجبهُ من جسارة الرومانيين واعتبارهُ لهم ولما رُدّت البنات عليهِ أطلق كليليا ورفيقاتها قائلاً ان صدق الامة الرومانية هو خير كفيل للمحافظة على المعاهدة ثم

رحل الى بلاده تاركاً خيام عساكره مملوءة بالمؤونة والزاد

وقد روى بعض المؤرخين ان بورسينا قد استولى على رومية واذلها حتى انهُ منع اهلها من استعمال الحديد بغير اشغال الزراعة اما الرواية الاولى فحكاها لفيوس الذي دأبهُ مدح الرومانيين

وفي هذه الاعصر الخشنة لم يتقن الرومانيون او بالحري لم يعرفوا سوى فنيّ الزراعة والحرب وكانوا يتقوّتون بغلال حقولهم او بما كانوا ينهبونهُ في غزواتهم الامم المجاورة وغاراتهم عليها . وكل الاعمال اليدوية ما خلا هذين الفنين كانت مجهولة في رومية او مخصوصة بالعبيد والغرباء لانهم كانوا جميعًا فلاحين وكان جميع الفلاحين عساكر ولنا دليل على ذلك ما سنراهُ في هذا التاريخ من ان بعض مشاهير قوادهم الذين فتحوا المدائن وحازوا النصرات العظيمة كانوا ياتون بهم من حقولهم وهم يشتغلون بحرثها الى ساحات القتال ومواقف الضرب والطعان وكان العظماء يعوّدون اولادهم الاعمال المتعبة والعيشة الخشنة لتقوى ابدانهم ويكونوا اقدر على احتمال اتعاب الحروب

ومن عوائد الرومانيين في ايام ملوكهم انهم كانوا يبيعون نصف الاراضي التي يغتنمونها قيامًا بالنفقات اللازمة للحرب ويعطون النصف الباقي للفقراء او ياجرونهُ لهم باجرة طفيفة غير ان الاباء والشرفاء القابضين في ايام الجمهورية على عنان الاحكام اهملوا هذه العوائد الحسنة وشرعوا يسلبون لانفسهم ما امكنهم سلبهُ من تلك الاراضي فزادت ثروتهم وكثر دخلهم وقلت اموال الخزينة وحرم الجندي الذي خاطر بحياتهِ لتوسيع نطاق بلاده قطعة ارض صغيرة ياخذها اجرة لهُ وجزاء على بسالتهِ

ولما كان الجندي غير مأجور على اتعابهِ وخدماتهِ كان يحتاج احيانًا الى استقراض مال من الشرفاء ورهن قطعة ارضهِ الصغيرة حتى اذا ما تكاثر الدين لسبب الرباء الفاحش بادر الدائن الى القبض عليهِ واستعباده

او بيعهِ

وفي ذلك الحين أشفق المديونون على انفسهم من جور دائنيهم فعرضوا أمرهم للمجلس وشكوا عسرهم متظلمين بقولهم انهم بعد ما ذاقوا غمرات الموت في محاربة الطاركوينيين والذب عن حرية العموم قد اصبحوا عبيدًا لمواطنيهم فلم يجب المجلس نداهم ولم يصغِ الى صوت شكواهم وكان اللاتينيون قد نهضوا سنة ٤٩٧ ق.م لقتال الرومانيين انتصارًا لطاركوينس فابى حينئذٍ العوام ولا سيما المديونون التجند محتجين انهم قد سئموا الحيوة بخدمة موالٍ طمعين وقساة وانهم غير مجبرين على الدفاع عن وطن لا يملكون من ارضهِ قيد باع بل قد صمموا اذا لم يسامحوا بما عليهم من الديون ان يغادروا المدينة فرارًا من ظلم دائنيهم

ورأى المجلس والشرفاء الاخطار المحيطة بهم من كل جانب فادركوا ضرورة تسليم زمام السياسة لرجل واحد يكون مطلق السلطة ليقطع دابر المفسدين ويمنع الشقاق ان يسري بين الوطنيين ويكون وسيلة الى انضمامهم واجتماع كلمتهم في ازمنة الحرب والشدائد وانتخبوا لهذا الامر طيطس لارتيوس احد القنصلين الحاليين ولقبوهُ بالدكتاتور

وكان لهذا الحاكم سلطة مطلقة على حيوة واموال جميع الرومانيين وكان اذا مشى يتقدمهُ اربعة وعشرون شرطيًا حاملين أفؤسًا اما انتخابهُ فكان في الاوقات العسرة جدًا ولمدة ستة اشهر فقط وعدل لارتيوس في احكامهِ واظهر ثباتًا عظيمًا في اجراء كل اعمالهِ حتى أدّب العصاة واخمد نار الفتنة واحصى الشعب حسب قوانين الملك سرفيوس طلس وجهّز جنودًا قسمها الى ثلاث فرق وخرج لقتال اللاتينيين فاستظهر عليهم في الوقعات القليلة التي حدثت ثم هادنهم وانكفأ راجعًا الى رومية واستعفى من منصبهِ قبل انقضاء الاجل المسمى

وأغرى طاركوينس اللاتينيين سنة ٤٩٥ ق.م بقتال الرومانيين

ايضاً فنهضوا بعدد عديد من الابطال والفرسان واغاروا على ارض الجمهورية فزحف الدكتاتور بوستيموس لمحاربتهم وعسكر على رابية بالقرب من بحيرة رَجلّس واقام القنصل فرجينوس على رابية اخرى تجاههُ واتى اللاتينيون وعسكروا بين الرابيتين وأمر بوستيموس قائد الفرسان ان يذهب في الليل سرًّا ويتحصن على رابية ثالثة واقعة في الجهة التي يرد منها المدد الى الاعداء ثم هجم الرومانيون على جيوش اللاتينيين فابتدر هولاء اليهم بعزم ثابت وأمل وطيد بالظفر لكونهم اكثر عددًا منهم اما الرومانيون فلم يبالوا بالاهوال ولم ترعهم كثرة الاعداء بل انقضوا عليهم انقضاض الصواعق واقتحموا صفوفهم كالضراغم فنهبوا مهج الرجال وجندلوا الفرسان والابطال وانجلت تلك المعمعة عن قتل ابني طاركوينس وارداء كثير من قواد الفريقين وأبصر اللاتينيون من سيوف خصومهم الموت الزؤام فاركنوا الى الهزيمة ناجين بانفسهم ودعيت هذه الحرب حرب رجلّس نسبة الى البحيرة المذكورة آنفاً وهي شهيرة بالتاريخ لانها أضعفت اللاتينيين وقوضت صرح مجدهم فذلوا وخضعوا لرومية وطردوا طاركوينس من بلادهم فذهب هذا الملك وسكن بكومي ومات فيها

ودخل الدكتاتور الى المدينة ببهجة عظيمة محتفلاً بنصرتهِ وأجرى العاباً عمومية وبنى هيكلاً لكستور وبوليكس بطليْ ترواده لانهما نظرا على ما قيل راكبين فرسين ابيضين وخائضين عجاج الحرب لاعانة الرومانيين وقد روى احد المؤرخين ان بوستيموس ورفاقهُ نظروا في المعمعة فارسين عظيمين كانهما من الجبابرة يتقدمان فرقة الفرسان ويلقيان الرعب في قلوب الاعداء وفي المساء بعد ما انهزم اللاتينيون ظهر ذانك الفارسان في رومية وبشرا الشعب بانتصار الرومانيين وتواريا عن الابصار فتاكد القوم انهما كستور وبوليكس اللذان حضرا لنصرتهم

الفصل الثالث

وظن الشرفآء انهم أمنوا بموت طاركوينس حدثان الدهر واصبحوا في غني عن الشعب لذلك عادوا الى جورهم القديم في معاملة المديونين ناسين شرائع الانسانية والعدل الآمرة بالمعروف والاحسان فملّ العوام من الظلم والعذاب وباتوا في قلق عظيم وبينما كانوا ملتئمين في محل الاجتماع أقبل عليهم رجلٌ مكبلٌ بالسلاسل ورمي بنفسو بينهم مستجيرًا وكان هذا الرجل طويل القامة مهزولاً وثيابهُ كانت وسخة بالية وشعرهُ اشعث وطويلاً فعرفهُ الحاضرون لانهم رأوهُ مرارًا عديدة يخوض عجاج الحرب كالاسد الرئبال غير مبالٍ بالصوارم والموت الزؤام الا انهم جهلوا أمرهُ وعجبوا من استحالة حالهِ فقال لهم ذلك الشيخ ياقوم انني قد فقدت حريتي وكل ما املكهُ في سبيل الدفاع عن حرية الوطن وقد وقعت الان في يد دائني القاسي الذي لا تاخذهُ شفقة عليَّ بل قد اودعني وابنيَّ السجن واسلمني الى عبيده ليوسعوني ضربًا ثم خلع ثيابهُ ورأى الجمهور ظهرهُ داميًا من الجلد وصدرهُ مخدشًا بطعنات رماح الاعدآء وضربات سيوفهم فلم يتمالك احدٌ عن الغيظ بل علا الضجيج وزاد الحنق وتراكض الشعب من كل جهة وهو يشتم الشرفآء ويلعنهم كأن روح الثورة قد دبت في جميع الصدور الا ان القنصل سرفيوس قدر على ازالة هذه الفتنة وصرف المتجمعين واعدًا اياهم بمنع الدائنين عن اهانة مديونيهم ومطالبتهم الى ان يصدر المجلس أمرًا بهذا الشان

ونظر اعدآء الرومانيين كالفولسيين والصابنيين انقسامهم وثورة

العوام فنهضوا مراراً المحاربتهم غير انهم كانوا يرتدون عنهم بالخيبة والفشل لان الشرفآء كانوا عند اقتراب عدو او دنو خطر منهم يتملقون الشعب ويعدونهُ وعوداً كاذبة ليحملوهُ على الحرب والدفاع حتى اذا ما انجلى الخطب وانقشعت سحب الاخطار وبدا جوُّ السياسة صافياً نكثوا عهودهم ونقضوا وعدهم وعادوا الى ما كانوا عليهِ من اهانه مديونيهم وظلمهم

اما الآن (سنة ٤٩٣ ق.م) وقد تفاقم الخطب وعظم المصاب وعرف العوام دهآء العظمآء ومكرهم فاجتمعوا خارج المدينة وجاهروا بالعصيان ثم ذهبوا الى رابية دعوها فيما بعد الجبل المقدس وهي على بعد ثلثة اميال من رومية واقاموا عليها مدة ينتظرون فرجاً من الضيق وخلاصاً من العذاب

ورأى المجلس ما كان فجزع جدًّا وخشي وقوع الحروب الاهلية وحدوث ما ينجم عن هذه الحروب من المضار فانفذ في الحال عشرة رسل ليرضوا القوم المتظلمين ويرجعوهم الى المدينة ولما وصل الرسل نهض احدهم وهو منينيوس واخبر الحاضرين ان المجلس قد قرَّر الصفح عن ذنوبهم واعفآء المديونين المفلسين من ديونهم واطلاق سبيل من كان منهم مسجوناً وانهُ سيخابرهم في وضع قانون جديد بشان القرض والاستقراض وحرضهم جميعاً على الخضوع للمجلس والسير بموجب احكامهِ مظهراً ضرورة ذلك بتشبيهِ المجلس بالمعدة التي تغذّي الجسد من القوت الذي تاخذهُ هي لنفسها مقدمة لكل عضوٍ منهُ الغذآء الذي يلائمهُ ومستنتجاً ان بقآء الجسد ونموَّهُ متوقفان على حيوة المعدة ثم قال لهم الى مَ تتهمون الآبآء ايها الرومانيون بانهم قد طردوكم من وطنكم وكيف يخامر قلبكم هذا الفكر وهم يجهدون دائماً في منفعتكم ويسالونكم الآن الرجوع الى المدينة ليلاقوكم فيها بالترحاب والاكرام

فسرَّ الجمهور الحاضر من كلامهِ الا انهُ لم يرجع الى المدينة قبل ان

صُرح لهُ باقامة وكيلين عن الشعب ينتخبان منهُ في كل سنة ويكون لهما الحق في حماية المظلوم ونقض احكام المجلس متى رأياها غير عادلة فانقسمت الامة الرومانية الى حزبين متباينين احدهما حزب العوام المنقاد لأرآء وسياسة وكيليهِ والآخر حزب الشرفآء التابع للمجلس والقنصلين

وجمع القنصل كومينيوس عساكر سنة ٤٩٣ وزحف لمحاربة الفولسيين فكسرهم في واقعتين واستولى على مدينتين من مدائنهم ثم تقدم لمحاصرة كوريولي عاصمة بلادهم فالتقاهُ الكور يوليون ومنعوا جنودهُ عن تسور الاسوار وكادوا يفتكون بهِ فتكًا ذريعًا لولا الفتى الشريف كايوس مارسيوس الذي بادر اليهم كالغضنفر واذاقهم بطعناتهِ المتتابعة وهجمات اعوانهِ حربًا لا تبقي ولا تذر فارتدوا الى الورآء خاسئين وملك الرومانيون مدينتهم وضربوا عليهم الذلة وفي الغد جلس القنصل على سريره ودعا مرسيوس امام الجند واثنى على اعمالهِ ثنآء جميلاً ثم كللهُ باكليل الانتصار واعطاه عشر الاسلاب وجوادًا مطهماً واذن لهُ أن يختار من الاسرآء عشرة عبيد فابى هذا البطل الصنديد قبول ما قدم لهُ ولم ياخذ سوى الحصان وعبدٍ واحد اعتقهُ في الحال لانهُ كان صديقهُ ولقب مارسيوس في ذلك الحين بكوريولانس نسبة الى مدينة كوريولي التي استولى عليها بشجاعتهِ وتدبيره وكان هذا الفتى جافي الخلق عنيدًا لا يثنيهِ عما يروم خطرٌ او وعيد وكان اذا خطر في بالهِ امرٌ يسعى لادراكهِ بهمة ونشاط مستسهلاً الصعب وباذلاً اذا اقتضت الحال النفس والنفيس فاغضب العوام باخلاقهِ هذه وحملهم على كرههِ لانهُ في المجاعة التي حدثت سنة ٤٩١ ق.م حازب الشرفآء مانعًا الفقرآء ان ياخذوا مجانًا الحنطة المجلوبة من الخارج لاعالتهم وراغبًا في احباط اعمال وكيلي الشعب وابطال سلطتهما لتتسنى للشرفآء السيادة المطلقة فهاج العوام هيجانًا عظيماً وطردوهُ من المدينة فخرج منها سنة ٤٩٠ ق.م حاقدًا غضوبًا ومصمماً على الانتقام وبعد ان مكث مدة في أراضيهِ ذهب الى

انتيوم سنة ٤٨٨ ق . م وهي مدينة كبيرة في بلاد الفولسيين ودخل منزل انيوس طلّس قائد جيوشهم وجلس بالقرب من مذبح الآلهة فلم يعرفهُ احدٌ لانهُ كان مبرقعاً ولما اتى طلّس صاحب المنزل وخاطبهُ مستخبراً عن امره زاح اللثام واجابهُ بهذه الكلمات

انا كايوس مارسيوس الملقب بكوريولانس قد طردت من رومية لان الشعب كرهني ظلماً والشرفاء لم يستطيعوا حمايتي لسبب جبنهم العظيم فاليك قد جئت الان طالباً نصرتك للانتقام من أعدائي واعدائكم واسالك اذا كانت الحكومة لا ترضى عني ولا تقبلني خادماً لها ان تسلب بيدك حيوة عدوّك القديم القادر على اضرار بلادك اذا لم تاخذ بناصره او تعمد الى ارداثه فعجب طلّس من بسالته وقال لهُ لا تخف يامرسيوس قد امنت الينا ففزت منا بالامان وانا لنقدرك حق قدرك ونعد وجودك بيننا نعمة كبرى وسننتفع بخدماتك لان قائداً مثلك شهيراً يحق لهُ كل اكرام ثم خلا معهُ للبحث عن الوسائل اللازمة لتجديد الحرب مع الرومانيين

وكان الرومانيون يستعدون وقتئذٍ لاجراء العاب عمومية عقيب اهداء هيكل لجو بيتر فهرع الى رومية للتفرّج على تلك الالعاب جموع كثيرة من الامم المجاورة لا سيما من الفولسيين الذين انتشروا في جميع احياء المدينة وضواحيها وكان عدد المتفرجين وافراً جداً حتى ان القنصلين خشيا من حدوث حادث يعبث براحة الاهلين فاغتنم طلّس وكوريولانس هذه الفرصة واذاعا ان الفولسيين عازمون على حرق المدينة فصدق الرومانيون هذا الخبر واصدر المجلس امراً بحظر عليهم البقاء في رومية ويامرهم بالرحيل حالاً فانصرفوا جميعاً الى مدنهم صاغرين ولما علم طلس بذلك قال لهم أتصبرون ياقوم على هذه الاهانة ولا تشكون وتنظرون الى صلف الرومانيين وافعالهم المنكرة ولا تغضبون فلقد نقضوا العهود ونكثوا الوعود وجاهروا بالعدوان غير مبالين ولعمرى انهم سيشنون الغارة علينا و يغزون

ارضنا و يتركون ديارنا اطلالاً بالية ينعق فيها البوم والرخم فابتدروا اذاً سلاحكم ايها الابطال واتكلوا على كور يولانس الفارس المغوار الذي شهدتم وقعاته واختبرتم بسالته لانهُ قد لجيء الينا الآن لننتصر لهُ من امته التي لم تقدرهُ حق قدره ولم تراعِ مقامهُ ثم دعا كور يولانس فتقدم هذا امام الحضور وحدثهم بحديثهِ وأعرب لهم عن رغبتهِ في اخذ الثار وحثهم على القتال بعبارات حماسية وحجج قوية الى ان ثارت الحمية بالجميع وسرت فيهم روح الانتقام وعولوا على الحرب الا انهم ارسلوا بادىء بدء رسلاً الى رومية يسالون مجلسها ردّ الاراضي التي اخذها الرومانيون في غاراتهم السابقة على الفولسيين وبمعاهداتهم الاجبارية معهم لئلا ينشب القتال و يكونوا هم المسؤولين بولانهم رفضوا الصلح والتسوية حسبما يامر العدل والانصاف فاجابهم القنصل بكلام وجيز قائلاً ان الخوف لا يحمل الرومانيين على تسليم ما ملكوهُ بقوتهم و بطشهم وانهُ اذا كان الفولسيون يبتدرون السلاح اولاً فالرومانيون لا يسبقونهم ابداً الى تركهِ ولما رجعت الرسل حمل طلّس على اللاتينيين ليمنعهم من امداد الرومانيين واغار كور يولانس على اراضي رومية فاسر من رجالها عدداً عديداً لانهم كانوا متفرقين في الحقول غير مستعدين للقتال واستاق غنماً و بقراً واخذ حنطة وافرة وانكفأ للقآء طلّس ظافراً غانماً وابصر الفولسيون انتصارهُ فاقبلوا على التجند آملين الكسب والنصر تحت لوآء قائد شهير شجاع وعاد كور يولانس الى ساحة الضرب والطعان واستولى على عدة مدن رومانية ولاتينية ثم زحف الى رومية وحاصرها ولما نظر الشعب تقدمهُ وكثرة نصراتهِ ورأى جيوشهُ في تلك البطاح تتموج كالبحر الزاخر رعب وخارت قواهُ واقبل الى الفورم يستجير بروسآئهِ و يطلب اليهم بالحاح ان يبطلوا امر نفي كور يولانس و يسألوهُ كف العدوان فائتمر المجلس مليًا وارسل اليهِ رسلاً يستعطفونهُ و يعرضون لهُ رغبة الرومانيين في السلام وندمهم على ما جرى فردهم كور يولانس خائبين

لانهُ طلب لابرام الصلح شروطًا قاسية لا يمكن الشعب الروماني قبولها فارسل اليهِ المجلس رسلاً آخرين من اصدقآئهِ واقربآئهِ فلم يحفل بهم ولم يصغ اليهم بل صرفهم بالخيبة والفشل كالاولين فضاق الجميع ذرعًا وبعثوا اليهِ بالكهنة لابسين الملابس الاحتفالية ليسترضوهُ ويحملوهُ على تلطيف الشروط فلم يستطع هولآء ايضًا تغيير شيء مما صمم عليهِ ولم يكن حظهم منهُ باسعد من حظ السابقين حينئذٍ قامت فانوريا امهُ وفولومينيا امرأتهُ واخذتا ابنيهِ وخرجتا من المدينة مع عدة نسآء شريفات وتوجهن جميعًا الى معسكر الفولسيين وحينما ابصر كوريولانس امهُ وامرأتهُ باكيتين تسالانهِ السلام وصيانة بلاده من الخراب بعبارات تفتت الاكباد حن وبكى وقال وقال لامهِ يا اماه قد غلبتني وانسيتني بكلامك اساءة وطني اليَّ وقد خلصت رومية بفعلك هذا الا انك اهلكت ابنك وفي الغد جمع جنوده ورحل بهم الى ارض الفولسيين حيث مات قتلاً كمجرم خائن لانهُ ارتدَّ عن رومية بعد ما كاد يستولي عليها وقال ليفيوس ان الفولسيين لم يقتلوهُ بل عاش بينهم زمنًا طويلاً بالحزن والكدر لانهُ اضاع حياتهُ بلا فائدة او لانهُ بذل جهدهُ في اذلال امتهِ مع انهُ كان قادرًا على نفعها اكثر من غيره

الفصل الرابع

ومرت على رومية بعد حرب كوريولانس مدة ثلثين سنة لم يسمع فيها سوى صليل السلاح وصهيل الجياد في قتال الامم المجاورة لا سيما الفولسيين والاكويين والفيين والصابنيين ولم يرَ في اثنائها ايام مهادنة هولآء الاعدآء

سوى اضطراب داخلي ناشيء عن نزاع وكلاء الشعب الدائم للشرفاء وطمعهم في توسيع نطاق سلطتهم وتخفيض سيادة العظماء وثروتهم وكانوا يتذرعون الى نيل ما يبتغونهُ بوسائل تستميل الجمهور من ذلك القانون العقاري الذي اشتدت لاجلهِ الخصومات بين الكبراء والعوام حتى انهُ في الحرب التي حدثت سنة ٤٧٠ قتل القنصل ابيوس كلوديوس عُشر عساكره لانهم رفضوا القتال وولوا منهزمين ومآل هذا القانون توزيع الاراضي المغتنمة بين الفقراء اما القانون الترنتيوسي فكان عادلاً جداً لان مآلهُ منع الشرفاء الحاكمين عن النظر في الدعاوي كما تقضي اميالهم واهواؤُهم واجبارهم على حسم المشاكل بموجب دستور بسنهُ رجال حكماء ينتخبهم الشعب لهذه الغاية

واغار الاكويون سنة ٤٥٧ ق.م على اراضي امة حليفة الرومانيين ونهبوا منها ما امكنهم نهبهُ ثم ارتدوا وعسكروا على بعد اثني عشر ميلاً من رومية فارسل اليهم المجلس ثلثة سفراء يشتكون من فعلهم ويرغبون اليهم ردَّ ما اخذوهُ وكان قائد هذه الجنود جالساً حينئذٍ تحت شجرة يستظل بها فلم يجب السفراء عما طلبوه بل قال لهم سلوا هذه الشجرة ما اردتموهُ لان لي شغلاً شاغلاً يمنعني عن اجابتكم ولما رجعت السفراء الى رومية وعلم المجلس ما حدث وجه احد القنصلين لمحاربتهِ وبعث القنصل الاخر ليغزو ويخرب بلاد الاكويين ونهض الصابنيون ايضاً في ذلك الحين لقتال رومية فالتقاهم القنصل نونيوس وكسرهم ثم هجم على المدن الصابنية ونهبها اما القنصل منوسيوس فلم يستطع رد الاكويين الذين لما رأوا ضعفهُ بادروا اليهِ وحصروهُ في معسكره آملين ان الجوع يكرههُ على التسليم وبلغ الخبر المجلس فعمد الى اقامة رجلٍ شريف يدعى سنسنَّاتس ديكتاتوراً وارسل اليهِ رسلاً يخبرونهُ بذلك فلقي الرسل سنسنَّاتس يحرث ارضهُ بيده وكان العرق اذ ذاك مكللاً جبهتهُ من عظم التعب وحينما علم هذا الشيخ النشيط ما طرأ

على وطنهِ واعتماد الجمهور عليهِ بدليل انتخابهِ لهذا المنصب الخطير اسرع الى رومية وجهز من رجالها جيشاً كافياً وخرج منها في الحال واغار على الاعداء فنكل بهم واسر من بقي منهم في قيد الحياة وبعد ان جعلهم يمرون تحت النير دلالة على العبودية خلى سبيلهم جميعاً ما خلا قائدهم وعشرة رجال ابقاهم ليمشوا امامهُ عند دخولهِ المدينة واحتفالهِ بنصرتهِ ثم ارتدَّ الى رومية وولجها ظافراً غانماً واستعفى من منصبهِ الذي تقلدهُ ستة عشر يوماً فقط ورجع الى بستانهِ ليحرثهُ ويعتني بهِ راضياً بفقرهِ وعيشتهِ الخشنة ومؤثراً حالتهُ هذه على السلطة والراحة فاذا نظرنا الى طباع الرومانيين واقتناعهم وتاملنا ثباتهم وصبرهم على الاهوال في ساحات القتال وتالبهم لرفع شان بلادهم لا نعجب من ارتقائهم معارج الفلاح وتسلطهم على ممالك العالم

وفي السنة التالية تمكن العوام من زيادة عدد وكلائهم فجعلوهم عشرة ينتخبونهم كل عام كما كانوا ينتخبون الوكيلين الا انهُ لم يسمح لاحد ان يتقلد هذه الوظيفة سنتين على التوالي

وفي سنة ٤٥١ ق.م رضي المجلس بالقانون الترنتيوسي المشار اليهِ انفاً وارسل الى بلاد اليونان سفراء ليدرسوا الشريعة اليونانية وينسخوا منها ما يرونهُ موافقاً للجمهورية الرومانية ولما رجع هولاء السفراء قام الشعب باتفاق الاراء عشرة ولاة او دسمفير ليتولوا القضاء ويقوموا مقام القنصلين والوكلاء الذين ابطلت وظيفتهم في هذا العام ويسنوا القوانين اللازمة للامة فعدل الدسمفير بادىء بدء ووضعوا شرائع عرفت بشرائع الاثني عشر لوحاً لانها كتبت على اثني عشر لوحاً نحاسياً وهاك بيانها بالتفصيل لتلم ببعض عوائد وطباع هذا الشعب الشهير

اللوح الاوّل

في الدعاوي

المادة الاولى . اذا دعيت الى دار القضآء فاذهب حالاً مع خصمك

المادة الثانية . اذا ابى خصمك الحضور لدى القاضي فاقم شهودًا عليهِ ليمكنك احضاره جبرًا

المادة الثالثة . اذا اراد خصمك الفرار منك يمكنك القبض عليهِ

المادة الرابعة . اذا كان خصمك مريضًا او شيخًا عاجزًا يلزم ان تحضرهُ في مركبة وان ابى الامتثال فلست مجبرًا على تقديم مركبة

المادة الخامسة . اذا قدم خصمك كفيلاً يلزمك اطلاقهُ

المادة السادسة . ان كفيل الغني يلزم ان يكون غنيًا اما كفيل الفقير فمقبول مهما كان

المادة السابعة . على القاضي ان يفصل الدعوى حسب اتفاق الخصوم

المادة الثامنة . اذا لم يكن اتفاق بين الفريقين فعلى الحاكم ان يسمع الدعوى من طلوع الشمس الى الظهر بحضور الخصمين

المادة التاسعة . ان الحكم بالدعوى المشار اليها يكون بعد الظهر بحضور الخصمين

المادة العاشرة . لا تحاكم ولا قضآء بعد غروب الشمس

المادة الحادية عشرة . اذا اتفق الخصمان على اقامة حكم يفصل لهما الدعوى فليقدما كفيلين يكفلان حضورهما ومن يغب يغرَّم بدفع مقدار من الدراهم يصير تعينهُ ما لم يمنعهُ عن

الحضور مانع كمرض او ايفآء نذرٍ او اشغال عمومية فتؤجل رؤية الدعوى الى الغد

المادة الثانية عشرة . من لم يمكنهُ احضار شهود يشهدون بصحة دعواه فليذهب الى امام منزل خصمهِ ويعلن ما يدّعيهِ بصراخ وجلبة

اللوح الثاني

في السرقات

المادة الاولى . من يقتل لصًّا يدهمهُ ليلاً لا يعاقب على قتلهِ

المادة الثانية . اذا قبض على لص وهو يسرق في النهار يجلد ويمسي عبد الرجل الذي نوى استلاب امتعتهِ واذا كان هذا اللص عبدًا يجلد ويطرح على راسهِ من قمة الكابيتولينس. اما اذا كان ولدًا قاصرًا فيعاقب حسبما يرتئي الحاكم ويعوض الرجل المسروق مما فقدهُ

المادة الثالثة . من يقتل لصًّا قد اشهر سلاحًا لا يعاقب على قتلهِ

المادة الرابعة . اذا فتش منزل ووجد فيهِ امتعة مسلوبة يقاص صاحبهُ حالاً كلصٍ ارتكب السرقة علنًا

المادة الخامسة . من يسرق خفية يدفع ثمن ما يسرقهُ مضاعفًا

المادة السادسة . من يعتدِ على غيره ويقطع اشجاره يدفع ٢٥ قصًا نحاسيًا عن كل شجرة يقطعها

المادة السابعة . من باتَ ببستان غيرهِ خفيةً ويدوس زرعهُ او يحصدهُ

بشنق في ذلك المكان ويكون قتلهُ بمثابة ذبيحة تقدم لسيرس إلهة الزراعة ولكن اذا كان الجاني ولدًا قاصرًا يقاص بما يرتئيهِ الحاكم مناسبًا ويغرم بدفع ثمن ما اتلفهُ مضاعفًا

المادة الثامنة . اذا عفا الرجل المسروق منهُ شيءٌ عن السارق او توافقا يعاف اللص من كل عقاب

المادة التاسعة . لا يعتبر الزمان على الاطلاق حقًا للملك الامتعة المسلوبة ولا يحق لغريب ان يملك مال روماني وطني لسبب طول مدة استيلائهِ عليهِ

المادة العاشرة . اذا خان المؤتمن وتصرّف بالأمانة يدفع قيمتها مضاعفة

الماة الحادية عشرة . من وجد مالهُ عند رجل قد استولى عليهِ بخيانة فليشكُ امرهُ الى القاضي الذي يقيم حكمًا لتحقيق الدعوى ويغرم المالك غير الشرعي بدفع ضعف قيمة ما اتلفهُ من ذلك المال

المادة الثانية عشرة . اذا سرق عبد بامر مولاه شيئًا خفية او اتلفهُ يسلم العبد الى الرجل المسروق منهُ كتعويض ما خسرهُ

اللوح الثالث

في القرض والاستقراض وحقوق الدائن على المديون

المادة الاولى . من ياخذ ربا اكثر من واحد بالمائة يغرم بدفع قيمة

ما اقرضهُ اربع مرار

المادة الثانية . من يقرّ بدين او يحكم عليهِ بهِ يمهل ثلثين يوماً ليوفيهُ واذا لم يستطع بعد ذلك ايفاءهُ يحضر لدى القاضي

المادة الثالثة . اذا لم يوفِ المديون دينهُ ولم يجد كفيلاً يمكن الدائن ان يجيء بهِ الى منزلهِ ويقيدهُ بسلسلة حديدية لا يزيد وزنها عن الخمسة عشر رطلاً اورو بيًّا

المادة الرابعة . اذا ابى المديون المقبوض عليهِ او لم يقدر ان ينفق من مالهِ يقدم لهُ الدائن طعامهُ

المادة الخامسة . يسجن الدائن المديون ستين يوماً ثم يعرضهُ في السوق ثلثة ايام معلناً قيمة دينهِ

المادة السادسة . اذ كان رجل مديوناً لكثيرين يقطع جسدهُ في اليوم الثالث من عرضهِ بالسوق قطعاً يقتسمها الدائنون او يباع للغرباء الساكنين وراء نهر التيبر

اللوح الرابع

في حقوق الآباء على البنين

المادة الاولى . للاب حق ان يربي او يقتل او يبيع بنيهِ الشرعيين متى أراد

المادة الثانية . لا سلطة للأب على ولدهِ اذا باعهُ ثلث مرار

المادة الثالثة . اذا ولد للرجل ولد أشوه فليقتلهُ حالاً

المادة الرابعة . على الولد ان يعيل اباهُ متى افتقر واحتاج واذا كان

الاب قد اهمل تربيتهُ ولم يعلمهُ مهنة فلا يجبر على اعالتهِ

المادة الخامسة . ابن الزنى غير مجبر أن يشتغل لاعالة ابيهِ

اللوح الخامس

في الميراث وما يتعلق بهِ

المادة الاولى . اذا مات رجلٌ عن اولاد توزع تركتهُ بينهم واذا كان اولاده قاصرين يوكل أمرهم الى الوصي الذي عينهُ

المادة الثانية . اذا مات رجلٌ ولم يكن لهُ عقب ولم يوصِ بمالهِ لاحد يرثهُ اقرب انسبآئهِ

المادة الثالثة . اذا مات عبد معتق ولم يكن لهُ اولاد يرثهُ مولاهُ او بنوهُ

المادة الرابعة . اذا مات مديون يوفى دينهُ من التركة وما يبقى بعد ذلك يوزع بين الوارثين

المادة الخامسة . اذا مات رجلٌ عن ولد قاصر ولم يعين لهُ وصيًا يتولى امره اقرب انسبآئهِ

المادة السادسة . اذا جنَّ رجلٌ او اصبح مسرفًا يتولى ادارة اعمالهِ احد اقربآئهِ او رجل من عائلتهِ اذا لم يكن لهُ اقربآء

اللوح السادس

في البيع والشرآء

المادة الاولى · يلزم ان يكون البيع صريحًا

المادة الثانية · اذا حرر عبد بشرط ان يدفع مقدارًا من النقود ثم بيع بعد ذلك يعتق متى نقد مولاه الدراهم المفروضة

المادة الثالثة · لا يحق لاحد ان يملك سلعة لم يدفع ثمنها

المادة الرابعة · ان مرور الزمان في العقارات عامان وفي الامتعة المنقولة عام واحدٌ

المادة الخامسة · يرجح في الدعاوى حق المالك وفي الخصومات على الحرية والاستعباد حق طالب الحرية

اللوح السابع

في الجنايات والاضرار

المادة الاولى · اذا اتلفت بهيمة شيئًا في بستان احد ياخذ صاحب البستان تعويضًا او البهيمة

المادة الثانية · اذا كان لك عمود ووجدته في بيت او كرم رجل اخر فلا تنقض ذلك البيت او تخرب الكرمة ولكن خذ ضعف قيمة الشيء المسلوب

المادة الثالثة · من يحرق بيت غيره او يشعل قمحة فليسجن ويجلد

ويحرق ولكن اذا كان ما اتاه عن غير عمدٍ فليُعطِ تعويضًا وإذا كان فقيرًا يؤدب

المادة الرابعة . يعاقب الجاني بمثل ما جنت يداه وإذا رضي المضرور تعويضًا يعفى عنه

المادة الخامسة . من ضرب معتقًا ففك لهُ عظمة من جسده يعطهِ ثلثمائة رطل نحاسًا ولعبد مائة وخمسين

المادة السادسة . من يلطم رجلاً او يشتمهُ ينقدهُ خمسة وعشرين قصانحاسيا

المادة السابعة . من يذم رجلاً بكلام مهين او ابيات تفضحهُ وتعطل صيتهُ يجلد

المادة الثامنة . من شهد مرة في دعوى ثم رفض الشهادة يرذل ولا تقوم شهادتهُ فيما بعد

المادة التاسعة . من شهد بالزور يطرح على راسهِ من قمة الكابيتولينوس

المادة العاشرة . من قتل معتقًا او سحرهُ او سمهُ يعدم كقاتل

المادة الحادية عشرة . من يقتل أبًا او امًا يوضع في كيس جلد ويطرح في النهر

المادة الثانية عشرة . اذا أهمل الوصي اشغال القاصر ينبه على اهمالهِ وإذا اختلس منهُ شيئًا يرد عليهِ قيمة ما أخذه مضاعفة

المادة الثالثة عشرة . اذا غش الوليّ تابعهُ يعد محتقرًا مرذولاً

اللوح الثامن

في الاملاك خارج المدينة

المادة الاولى . يترك بين المنازل مجال عرضهُ قدمان ونصف

المادة الثانية . يمكن المتعاقدين ان يجروا ما يتفقون عليهِ بشرط الا يخالفوا الشرائع العمومية

المادة الثالثة . اذا اختلف جاران على حدود أرضهما يقيم القاضي حكماً للنظر في ذلك

المادة الرابعة . اذا كانت شجرة تؤذي بظلها بستاناً آخر نقطع اغصانها على علو خمس عشر قدماً

المادة الخامسه . اذا سقطت أثمار شجرة في البستان المجاور فلصاحبها الحق أن يجمع تلك الاثمار

المادة السادسة . اذا عمل رجل قناة في بستان لصرف مياه المطر منهُ الى الحقل المجاور يقيم القاضي حكماً لتقدير الضرر ومنعهِ

المادة السابعة . اذا كانت الطريق مستقيمة يكون عرضها ثماني اقدام والا فست عشرة قدماً

المادة الثامنة . اذا كانت الطريق الواقعة بين حقلين ردية يمكن المسافر ان يمر في الحقل الذي يختارهُ

اللوح التاسع

فى حقوق العوام

المادة الاولى . الجميع في الحقوق سوآء

المادة الثانية . المديون الذي استعبد واعتق والغربآء الذين عصوا وثابوا الى الطاعة يمنحون حقوقهم القديمة

المادة الثالثة . القاضي الذي ياخذ الرشوة يعد مجرماً

المادة الرابعة . الدعاوى المقامة على رجل روماني وطني بشان حياتهِ وحريتهِ وحقوقهِ تعرض في محل الاجتماع

المادة الخامسة . يقيم الشعب مفتشين ليفحصوا الدعاوى المهمة

المادة السادسة . الذين يلتئمون ليلاً في المدينة لاجل القاء الفتن يقتلون

المادة السابعة . كل من يحرّض غريبًا على محاربة رومية او يسلم رجلاً وطنيًا الى غريب يقتل

المادة الثامنة . القوانين التى يضعها الشعب بشان امر ما تبطل القوانين الموضوعة لذلك قبلاً

اللوح العاشر

في الجنازات والمآتم

المادة الاولى . لا يدفن ميت ولا يحرق داخل المدينة

المادة الثانية . لا يجوز الاسراف في تجهيز الميت ولا الصراخ والبكاء الشديد عليهِ

المادة الثالثة . الخشب الذي يحرق بهِ الميت لا يقطع بمنشار ولا يصقل

المادة الرابعة . لا يلبس الميت اكثر من ثلثة اثواب موشية بالارجوان ولا يستخدم للاحتفال بجنازتهِ اكثر من عشرة مزمرين

المادة الخامسة . لا يجوز للنساء ان يلطمن وجوههنَّ او يشوهن اجسادهنَّ او يصرخن صراخًا قبيحًا

المادة السادسة . لا يجوز أخذ قطعة من جثة الميت للاحتفال بجنازتهِ مرةً اخرى الا اذا مات في الحرب او غريبًا

المادة السابعة . لا يجوز تحنيط العبيد ولا معاطاة المسكرات في المآتم ولا تطييب جثث الموتى

المادة الثامنة . لا يجوز احضار اكاليل وقوارير طيب الى المآتم

المادة التاسعة . اذا استحق الميت اكليلاً في الالعاب العمومية لمهارته او لمهارة عبيده او سرعة خيله فليؤذن وليستأذن اقرباؤه في تكليله مدة الايام السبعة التي يبقى بها في البيت وحينما يدفن

المادة العاشرة . لا يحتفل للميت الا بجنازة واحدة ولا يوسد الا على فراش واحد

المادة الحادية عشرة . لا يجوز استعمال الذهب في الجنازة الا اذا ربط حنك الميت بخيط ذهبي فتدفن الجثة مع الخيط

المادة الثانية عشرة . يدفن الميت او يحرق في مكان يبعد عن المنازل ستين قدماً على الاقل الا اذا رضي صاحب المنزل بمخالفة ذلك فيجوز

المادة الثالثة عشرة . لا يعتبر مرور الزمان حقاً لملك المدافن

اللوح الحادي عشر
في عبادة الآلهة

المادة الاولى . على المرء ان يأتي الاجتماعات الدينية بطهارة وورع واذا لم يفعل ذلك فلتنتقم منهُ الآلهة

المادة الثانية . لا يجوز لاحد ان يعبد سرًّا آلهة جديدة وغريبة ما لم ياذن بذلك اولو الامر

المادة الثالثة . يتمتع كلٌّ بالهياكل التي شادها أجدادهُ والكهوف المقدسة التي في حقولهِ والمساجد التي تجتمع فيها أرواح اسلافهِ وليجرِ كل واحد الاحتفالات الدينية التي اعتادها

المادة الرابعة . اكرم آلهة السماء والذين ارتقوا بفضيلتهم الى مصاف الآلهة نظير أركيلس وباخس وروملس الخ

المادة الخامسة . اعتبر الصفات الحسنة التي ارتقت بها الابطال الى السماء آلهة نحو الفهم والفضيلة والتقوى والأمانة وابنِ لها هياكل ولكن اياك وعبادة القبائح

المادة السادسة . راعِ الاحتفالات المامور بها

المادة السابعة . لا تسمع الدعاوي في ايام الاعياد . يلزم العبيد ان يحتفلوا بالاعياد بعد انجاز اشغالهم

المادة الثامنة . يقدم الكهنة للآلهة في ايام معلومة قرابين من اثمار الارض وفي ايام اخرى عسلاً واولادًا اما ذبيحة الاولاد فتقدم في آخر السنة وتختار حسبما يامر الاله وتقسم الكهنة الى اقسام مختلفة وتكون خاضعة لاحبار عظام

المادة التاسعة . لا يؤذن للنساء ان يحضرن الذبائح المقدمة ليلاً ولا ان يعلمن الاسرار الماخوذة عن اليونانيين ولكن يمكنهنّ حضور ذبائح الشعب العادية وتعلم اسرار الإلهة سيرس

المادة العاشرة . من سرق شيئًا للالهة يقتل

المادة الحادية عشرة . من يحنث في يمينهِ فلتمقتهُ الآلهة ولترذلهُ الناس

المادة الثانية عشرة . من يزن بقريبة لا يحل لهُ زواجها يقتل

المادة الثالثة عشرة . يلزم ايفآء النذور غير ان الاشرار محظور عليهم نقديم قرابين للآلهة

المادة الرابعة عشرة . لا نقف حقلك واقتصد فيما نقدمهُ قربانًا ومن يقف شيئًا لغيره يغرم بدفع ضعف القيمة

المادة الخامسة عشرة . احفظ دائمًا اعيادك العائلية

المادة السادسة عشرة . من أخطأ فليكفر عن خطاياه ومن لا يفعل ذلك يعد كافرًا

اللوح الثاني عشر

في الزواج وحقوق الرجل

المادة الاولى . اذا سكنت امرأة مع رجل عامًا كاملاً ولم تغب ثلث ليال تعدّ زوجته

المادة الثانية . اذا زنت امرأة او سكرت يمكن رجلها ان يقتلها ان رضي بذلك اهلها

المادة الثالثة . اذا طلق رجل امرأتهُ فلياخذ منها مفاتيح منزلهِ وليعطها امتعتها وما احضرتهُ عند عقد النكاح

المادة الرابعة . الولد الذي تلدهُ الثيّب بعد موت زوجها بعشرة أشهر يعد شرعيًا

المادة الخامسة . لا يجوز للشرفآء ان يتزوجوا من العوام

انتهت

قال سيسرون الخطيب الروماني الشهير ان قوانين الاثني عشر لوحًا تفضل على جميع كتب الفلاسفة وبالحقيقة اذا تبصرنا فيها معتبرين الزمان الذي وضعت به نجدها مشكاة هدى قد سطعت في ليل ذلك العصر الدامس كيف لا وهي الآمرة بالعدل والتساوي والمعاقبة الشريف القابض على عنان الاحكام متى اقترف ذنبًا كما تعاقب احقر العوام اذ لا فرق بينهما في الحقوق ولا امتياز لاحد مهما علا مقامهُ الا انها كانت تجيز للدائن القاسي وللاب الوحشي ان يعامل الاول مديونهُ والثاني ولدهُ معاملة بربرية تنفر منها الطباع ويأباها الذوق السليم وقد اضيف اليها على مرّ الزمان قوانين اخرى كثيرة حتى انهُ في عهد الامبراطور جوستنيان بلغ الدستور الفي مجلد فامر هذا الملك ان تحصر الشريعة في اسفار قليلة ليمكن تداولها وادراكها فتم لهُ ما ارادهُ وجمعت الشرائع الجديدة في اربعة مجلدات باقية الى الان وهي المعروفة بالقانون الروماني المدني الذي يحسب اساس دستور الممالك المتمدنة

ورأى الرومانيون من الدسمفير لاسيما من زعيمهم ابيوس كلوديوس ظلم وفواحش الطاركوينيين لانهم بعد ان عدلوا ليغشوا الشعب ويحملوهُ على انتخابهم مرة اخرى أخذوا يرتكبون المنكرات ويحللون المحرمات وكان لكل منهم شرط يسعون في اجرآء ما يرومونهُ فملّ العوام منهم وسئموا الحيوة لافعالهم الوحشيه ولم يكن أحد اذ ذاك يامن على عرضهِ ولا مالهِ لان كل شيء كان مباحًا لاولئك العتاة ولتابعيهم الفجار فكانهم قد سنوا الشرائع ليخالفوها واعلنوا العدل ليجوروا علنًا ويظهروا قبح سيرتهم ولما انقضت السنة الثانية ابوا الاستقالة من مناصبهم وبقوا قابضين على زمام الاحكام بلا انتخاب قانوني على رغم الجميع

ونظر أبيوس احد الولاة العشرة ذات يوم ابنة عامية بديعة الحسن والجمال اسمها فرجينيا فشغف بها وتيمهُ هواها وكانت فرجينيا تقية فاضلة تحب

العفة والكمال لذلك لم يستطع أبيوس اغراءها بتملقهِ ولم يمكنهُ صيدها بشرك وعوده بل ذهب اجتهاده في استمالتها واستمالة مربيتها ادراج الرياح فعمد حينئذٍ الى الحيل والخداع وامر تابعهُ ان يقبض عليها باية وسيلة يستحسنها ويراها موافقة لنيل مناه . وكان تابعهُ هذا أروغ من ثعلب واحيل من ضبٍّ مشهوراً بمكره وخبثهِ فبينما كانت فرجينيا راجعةً يوماً الى منزلها قبض عليها التابع المذكور وكاد يبلغ مار بهُ ويبلّغ وليّهُ منها مشتهاه لولم يعترضهُ الجمهور الذي ابصر دموع الابنة ونواحها فاشفق منها وسالهُ عرض دعواهُ للقاضي ليحكم لهُ او عليهِ فرفع التابع شكواهُ الى أبيوس مدعياً ان الابنة امة قد ولدت في بيتهِ وقد سرقت وهي طفلة وبيعت لامرأة فرجينيوس الذي يظنهُ الناس أباها وانهُ مستعدٌّ أن يقدم شهوداً يشهدون بصحة مقالهِ وبناءً على ذلك طلب تسليم الابنة اليهِ لانهُ مولاها قائلاً انهُ يحضرها متى أتى فرجينيوس واثبت كونهُ أباها الشرعي

وسمع أسيليوس خطيب فرجينيا ما حدث فبادر الى الفورم عدواً وتخلل الجمهور حتى وصل الى فرجينيا فضمها اليهِ وصرخ قائلاً يا أبيوس لا شيء يفصلني عن حبيبتي سوى الموت فاقتلني ان شئت ستر خداعك ومكرك واعلم اني مستعدٌّ ان ادافع عنها الى أن أشرب كاس حتفي العلك توليت الاحكام وأبطلت وظيفة وكلاء الشعب ليخلو لك الجو وتهتك عرض النساء وتفض بكارة العذارى ألم يكفك ما فعلت وما تفعل من المظالم حتى عمدت الى تدنيس الطهارة ونزع العفة ألم تدرِ ان فرجينيا هي خطيبتي واني أروم زواجها طاهرة بلا عيب وانت أيها الشعب الروماني أسألك حماية امرأتي وانتم أيها الجنود أطلب اليكم صيانة ابنة رفيقكم فرجينيوس مدة غيابهِ ولا تخشوا باساً لان الآلهة والناس معنا

فهاج الجمهور جداً عند سماعهِ كلام أسيليوس واكره أبيوس على ارجاء الدعوى الى الغد حتى يحضر فرجينيوس الذي خرج في ذلك الحين مع الجنود لمحاربة الصابنيين والاكويين وفي اليوم الثاني أتى فرجينيوس باكراً

لانهُ علم بما جرى فاسرع الى رومية ليحامي عن ابنتهِ وينتاشها من مخالب من بروم افتراسها وهتك عرضها بين الملا ولما التأم الشعب أقبلت فرجينيا الى محل الاجتماع والكآبة تلوح على محياها البديع والعبرات تتساقط من جفونها فوق وجنتيها المحمرتين من الخجل والحزن فشخصت اليها الابصار وحارت في معاني حسنها البصائر ورآها أبيوس فذاب شوقًا واحسّ ان الموت أخف وطأة واهون عذابًا من هجر هذه الغزالة الشاردة لذلك صمّ عن سماع حجج فرجينيوس الدامغة وحكم بها في الحال لتابعهِ الخبيث الخادم شهوات وليهِ العاني برداءة ودناءة ولكنما هيهات هيهات ان يبلغ ما ما تمناهُ وان يحقق امانيهُ وما نواهُ اذ فرجينيوس حينما أبصر مكر أبيوس وغدرهُ طلب اليهِ ان يسمح لهُ بوداع ابنتهِ فاذن لهُ فتقدم الى فرجينيا واستل مدية وقال لها يا ابنتي هذه هي الطريقة التي بها تنجين من العبودية والعار ثم ضربها بها ضربة سقتها كاس المنون وسحب مديتهُ من صدرها وهي تقطر دمًا وقال لابيوس بهذا الدم أسال آلهة الجحيم سلب مهجتك واخترق على الفور الجموع وولى هاربًا على رغم أبيوس واعوانهِ لان الشعب أسعفهُ على الهزيمة فاتى المعسكر وحدث الجنود بحديثهِ ثم رفع يديهِ الى السماء وقال اشهدي أيتها الآلهة ان أبيوس وحدهُ هو المذنب لانهُ قد أجبرني بفعالهِ أن اجري ما أجريتهُ وانتم يا رفاقي احلفكم الا تبعدوني عنكم كاب قاتل سفك دم ابنتهِ ظلمًا بل اعلموا اني كنت أود فداء حياتها بنفسي لو أمكنها أن تعيش حرة عفيفة ولكنّ ذلك الجائر العاني أراد استعبادها ليتسنى لهُ هتك ستر عفتها فما قساوتي اذًا الا شفقة وحنو ولقد آثرت موتها على حياتها بالفضيحة والذل وآمل انكم تاخذون بيدي لنثأرها والا مت كمدًا فثارت الحمية بالجنود كافة ولعنوا الدسمفير الباغين ورجعوا الى رومية مصممين على خلعهم وتنصيب وكلاء للشعب ومن هناك ذهبوا مع من تبعهم الى الجبل المقدس سنة ٤٤٨ ق.م ولم يرجعوا منهُ قبل ان أبطلت حكومة

العشرة ولاة ورضي المجلس باقامة قنصلين ووكلاء للشعب أما أبيوس عاشق فرجينيا فمات في السجن قبل النظر في دعواه و يظن بعض المؤرخين انهُ مات قتلاً وجهز القنصلان بعد ذالك عساكر وخرجا لقتال الصابنيين والاكويين الذين ظلوا مجاهرين بالعدوان فكسراهم وشتتا شملهم ودخلا الى رومية محتفلين بنصرتهما

الفصل الخامس

ان تاريخ الامة الرومانية لحريٌ أن يعدّ تاريخ أخلاق البشر على اختلاف مراتبهم في معارج التمدن والنلاح لا بل هو المرآة التي تري الانسان صورة ما خفي عليهِ من طباعهِ وفعالهِ فتظهر لهُ جليًا طمع المرء ان كبيرًا او صغيرًا وميلهُ الى الاستبداد والظلم ابتغاء نيل أمر حقير يعظمهُ لهُ الوهم فيسعى لادراكهِ ولو بذل دونهُ النفيس وحمل لاجلهِ من العناء حملاً ثقيلاً وتبين لذوي الاستبصار ضعف طبيعتنا الجانحة على رغمنا الى استحسان الجديد ولو فاتتهُ طلاوة القديم ورغبتنا في تغيير الاحوال متذكرين الماضي وراجين المستقبل غير متمتعين من الحاضر بسوى اتعابهِ وهمومهِ لاننا لا نستقرُّ على حال اذ الاهواء تتقاذفنا دائمًا بتيارها حتى اذا انقضى وطرٌ تجدد غيرهُ وعليهِ فالشعب بعد ان أبطل حكومة الدسمفير كما ذكرنا عاد الى مخاصمة الاعيان بشان قانون منع الشرفاء أن يتزوّجوا من العوام فطال بين الفريقين اللجاج غير انهما اتفقا أخيرًا على الغاء تلك المادة لانهُ لما كان الزواج لا يتم الا بالرضى والاختيار كان ذلك المنع فاسدًا وداعيًا الى اثارة الفتن والبغض بلا فائدة

واقام الرومانيون سنة ٤٤٤ ق.م مفتشين بحصيان الشعب حسب ترتيب الملك سرفيوس طليوس وخولوهما الحق باشهار ذنوب المذنبين واصلاح العوائد ونقسيم الجمهور الى فرق ورتب وتسجيل اسمآء الفرسان والآبآء اعضآء المجلس العالي فكانت سلطتهما عامة واوامرهما نافذة لذلك خافهما الجميع واعتبروهما ناصري الشرائع وحامي العدل والديانة والعوائد اما انتخابهما فكان من الكبرآء لمدة خمسة اعوام في السنين الاول ولمدة ثمانية عشر شهرًا فيما بعد

وعلم العوام ان القوة في الاتحاد والتعاون ورأوا فوزهم بكل ما طلبوهُ بالحاح وثبات فنووا تخفيض سلطة الشرفآء وعولوا على مشاركتهم في السيادة ملتمسين من المجلس منحهم حق انتخاب احد القنصلين منهم فابى المجلس بادىء بدء انالتهم سؤلهم الا انهُ لما اشتد الخصام وكثرت الفتن بسبب ذلك الغى منصب القنصلين وقرر سنة ٤٤٤ استبدالهما بستة ولاة عسكريين ينتخبون من الفريقين فسرَّ الشعب جدًّا وعدَّ هذا الامر نصرة على الاعيان الا انهُ انتخب الولاة المذكورين من القوم الشرفآء فكانهُ قد ادرك فضل تلك الفئة فاعطى القوس باريها مرتضيًا فقط بنيل حقوق حرمها قبلاً

اما العظمآء فكانوا يجهدون دائمًا في ارجاع الحكومة الاولية واحباط اعمال الجمهور لذلك كان تارة يتولى احكام رومية قنصلان وتارة ولاة عسكريون حسب نجاح وانخذال أحد الحزبين ايام الانتخاب ولما كانت الحروب في هذا الزمان لا تستلزم نفقات عظيمة لان الجيوش كانت عديمة الترتيب لا تعرف سلاحًا غير ما اوجدهُ الانسان من ذلك في ابتدآء نظام الهيئات الاجتماعية ولا تدرك حقوقًا للغربآء سوى ما تمليهِ القوة وتقررهُ الاطماع كان الرومانيون ومن يجاورهم في قتال دائم وغزوات متتابعة الا ان هذه الحروب لم تكن مهمة او بالاحرى لم تاتِ بنتائج مهمة لذلك لم نتصدَ لذكرها بالتفصيل بل اجتزأنا بالاشارة اليها لضيق المقام وخوفًا من ملل

القارئ هذا وقد رأينا في ما مضى كيف ان الشعب رفض مراراً تجهيز الجنود اللازمة لمقاتلة الاعدآء الذين كانوا يهاجمون رومية لان الجندي اذ كان غير ماجور على خدمته العسكرية كان اذا تقدم الى الحرب ولم يخلفهُ احدٌ في بيته يهمل حرث بستانه و يستدين مالاً من المثرين بربا فاحش فيصبح ان طالت الحرب أسيراً في قبضة دائنه متقلباً على فراش الذل والقهر وما ذاك الا لانهُ خاطر بنفسه دفاعاً عن حرية وطنه ولقد احدث هذا الامر ارتباكاً عظيماً فدفعاً لذلك امر المجلس بنقد الجندي اجرة يومية تكفيه مؤونة العذاب والضنك وتجعلهُ أطوع لاوامر القواد وتمكن اوليآء الامور من اطالة مدة الحصار والقتال حتى ينالوا الفوز على العدى وكانت الجمهورية حين نشاتها في عهد القنصل بو بليكولا قد اقامت خازنين يجبيان المكوس و يدفعان النفقات اللازمة للحكومة مقدمين بذلك حساباً مدققاً فامر المجلس بتنصيب خازنين آخرين يرافقان الجيش و ينقدانه اجرتهُ والدراهم التي يحتاجها وفرض على الوطنيين مكوساً اخرى قياماً بهذه المصاريف ولقد نجح في انفاذ ما رتبهُ على رغم وكلاَء الشعب الذين كانوا يغتنمون كل فرصة لاثارة الفتنة املاً ان يحطوا سلطة الاعيان و يرفعوا شانهم غير مكترثين لصالح الجمهور في اكثر الاحوال

وكانت فيّ أقدم واحصن مدن أترور يا وهي تبعد أثني عشر ميلاً عن رومية وكانت لها قلعة حصينة جداً مبنية على رابية وعرة اما سكانها فكانوا أشد الناس عداوة للرومانيين واعظم الامم المجاورة باساً واكثرها اقداماً ولقد جرت بينهم و بين شعب رومية حروب عديدة اتينا على ذكر بعضها واهملنا البعض الاخر هرباً من الاسهاب الممل الا انهُ حدث في سنة ٤٧٧ ق.م وقعة عظيمة عند نهر كريمرا مات فيها ثلثمائة وستة رجال فابيين (اسم عائلة رومانية شريفة) واربعة الاف رجلٍ من تابعيهم وهكذا كانت نار الفتنة بين الفريقين تخمد تارة وتشعل اخرى حتى قرر المجلس

سنة ٤٠٥ ق.م محاربة هذه المدينة والاستيلاء عليها فارسل الجنود والفرسان لمحاصرتها فدامت الحرب عشرة أعوام لان فيا كانت حصينة كما قلنا ولم يكن الرومانيون يملكون او يعرفون حينئذٍ من آلات الحصار شيئًا ولقد كادوا يسأمون من الهجوم والقتال ويتركون المدينة وشانها لو لم يقم المجلس فوريوس كاملس دكتاتورًا فهذا البطل الصنديد المشهور بشجاعتهِ وتدبيرهِ احيا بتعيينهِ قائدًا في قلوب الجميع رجاء الغلبة فاسرع الشرفاء والعوام اليهِ وتباروا في التجند تحت رايتهِ فتقدم بهم وحارب الفلريين والكابنيين الذين زحفوا لمساعدة الاعداء فكسرهم وشتت شملهم ثم مشى الى المعسكر واصلح الحصار بان رتب الجنود وشجعهم وبنى متاريس ولما رأى ان الاستيلاء على المدينة بالهجوم محال عمد الى الحيلة فعمل امرًا لم يسبقهُ اليهِ أحد من القواد وذلك انهُ بينما كان يهاجم المحاصرين ليشغلهم بالقتال كان قسم من عسكره مشتغلاً بحفر قناة تحت الارض تصل الى داخل القلعة وحينما تم العمل أمر الجنود ان تهجم على الاسوار فالتقاها الفيون بشجاعة وثبات اما القسم الذي دخل القناة فازال حالاً التراب الذي بقي ساترًا العمل عن اعين الاعداء وولج القلعة بغتةً وتفرق في جميع الانحاء فقاتل الفيين وفتح أبواب المدينة فدخلها الرومانيون وقتلوا من لم يستسلم لهم من اهلها وجمع كاملس الاسلاب ووزعها بين العساكر ثم رجع الى رومية فولجها محتفلاً بنصرتهِ وذهب الى الكابيتولينس في مركبة فاخرة وكبيرة تجرها أربعة أفراس بيضاء كالثلج وحيث ان الخيول البيضاء لم تستخدم قبل الا لجرّ مركبة الاله جوبيتر والشمس غضب الشعب بعد فرحهِ بانتصار هذا الجبار العظيم ونفرت القلوب منهُ وقسم المجلس اراضي فيّ بين الرومانيين فنال كل رجل حرّ منهم سبعة فدادين

وفي سنة ٣٩٢ خرج كاملس بالجيوش لقتال الفالريين وكان عازمًا على اطالة الحرب ليشغل العوام ويمنعهم من اثارة الفتن كما هو دابهم

في زمن السلام منذ انشاء الجمهورية الا ان شهامتهُ والحوادث قضت بخلاف ما نوى لان الفالريين بعد ما قاتلوا قتال الابطال لم يمكنهم الثبات امام عدوهم المغوار وجنوده الضراغم فانكفوا الى المدينة وعولوا على الدفاع او يموتوا جميعاً فدى الحرية والوطن وكان في المدينة مدرّس يعلم اولاد الاغنياء والاعيان ويهذبهم وكان معتاداً ان يخرج بهم كل يوم خارج الاسوار قصد التنزُّه فاتفق انهُ تقدم مرةً الى معسكر الرومانيين وخلا مع كاملس وقال لهُ ابشر فقد بلغت المراد ونلت الظفر الحلو بلا عناء لاني قد أحضرت لك هولاء الاولاد رهائن تقبض عليهم ولا تسلمهم الا بتسلم المدينة قال هذا وهو يرجو جزاء على فعلهِ الذميم غير عالم انهُ من يخاطبهُ رجل أبيٌّ يانف من الخيانة والدناءة وعندهُ الموت أهون من العار وبناء عليهِ غضب كاملس وامر الشرط بتقييدهِ واعطى الاولاد عصياً ليضربوهُ فساقوه امامهم كالبعير حتى دخلوا ابواب المدينة سالمين وبلغ الخبر الكبراء فاستعظموه وزاد اعتبارهم للقائد الروماني وصمموا على مهادنتهِ فرضي كاملس باجابة طلبهم بشرط ان ينقدوه مقداراً من الدراهم فلبوا امرهُ طائعين فعقد معهم صلحاً ورجع الى رومية ظافراً

ومعلوم ان الحسد داء كمين في صدور ذوي البصائر الضعيفة الذين لا يستطيعون نيل ما فاز بهِ محسودهم فيسعوا في احباط اعمالهِ واذلالهِ بالاراجيف والنميمة نابذين صالح الوطن وما تقتضيهِ الانسانية ويحكم بهِ العدل كأنهم وهم ضمن هيئة اجتماعية تائهون في بوادي الظلم وقنار المكر وهكذا نرى أعداء المرء تزداد دائماً بازدياد شهرتهِ وفضلهِ ونجد كاملس بعد ظفره العظيم هدفاً لسهام الوقيعة وتهم الحاسدين الذين طلبوا محاكمتهُ مدعين انهُ اختلس اموالاً للجمهور عند افتتاح فيّ اما هو فابى الاحتجاج والمرافعة وقبل ان تحكم القضاة عليهِ بالابعاد غادر المدينة ورحل الى اردیا قيل انهُ سأل الآلهة عند خروجهِ من رومية انتقاماً

من مواطنيهِ ان تجعلهم ياسفون على فقده ويحتاجون اليهِ عن قليل

وكان في كلوزيوم وهي مدينة أترورية رجلٌ وجيهٌ يدعى أَرونس ربَّى ولدًا يتيماً بديع الحسن والجمال وغنيًا جدًّا اسمهُ لوكومو فهذا الغلام لما ترعرع وبلغ أشدهُ احب امرأة وصيهِ التي هامت بهِ كهيامهِ بها وحيث ان نظرات الحب لا تخفى ظهر امر هواها سريعًا فخطف لوكومو اذ ذاك محبوبتهُ من منزل بعلها وعاش معها رغدًا ولم يستطع أَرونس ان يسترد امرأتهُ لان الغلام رشا القضاة فحاربوهُ ولم يصغوا لشكوى خصمهِ وانعم على الكلوزيين فصادقوهُ وغضوا الطرف عن فجوره وحينما رأى أَرونس ظلم الحكام خرج من المدينة ولجوءِ الى الغاليين السانونيين القاطنين في الاراضي الواقعة الى الجانب الجنوبي الشرقي من مدينة باريس الفرنسوية وحثهم على محاربة كلوزيوم واصفًا لهم جمال البلاد ووفرة غلالها وسقاهم خمرًا اتى بها من هناك فاستطابوها وعولوا على غزو الاراضي المشار اليها ليتمتعوا بطيباتها ويرشفوا من صهبائها فاجتاز جنودهم جبال الالب وتوغلوا في البلاد مدة ستة اعوام وهم ينهبون أموال السكان ويتنعمون بما رزقوا الى ان قصدوا أخيرًا محاربة كلوزيوم ارضاءً لارونس دليلهم فاتوها وحاصروها سنة ٣٩٠ ق٠م

ولما طال الحصار على الكلوزيين بعثوا برسل الى الرومانيين يطلبون منهم امدادًا فارسل المجلس العالي الى الغاليين ثلثة سفراءِ اولاد فابيوس أمبستوس يامرونهم بكف العدوان فسخر منهم برنس رئيس الغاليين وردهم خائبين فحنقوا جدًّا وانضموا الى جيش الكلوزيين وحدث ان أَحدهم وهو كونتوس فابيوس قتل قائدًا غاليًا شهيرًا بين قومهِ ولما علم برنس بذلك غضب وعول على قتال الرومانيين لان سفراءهم قد خالفوا القوانين المرعية بين الامم وانتصروا للكلوزيين فرفع الحصار في الحال ونقدم الى رومية سنة ٣٨٩ ق٠م وبلغ ذلك الرومانيين فالتقوهُ عند نهر اليا على بعد احد عشر ميلاً من مدينتهم بجيش جهزوهُ عجلاً الا انهم لم يستطيعوا الثبات

طويلاً امام اعدائهم لضعف قوادهم او لانهم خافوا من بسالة الغاليين وصياحهم الشبيه بعواء الذئاب فنفروا في تلك الارض منهزمين ثم أتوا رومية فدخلوها مذعورين والتجأوا الى قلعة الكابيتولينوس وتمكنوا من نقل الزاد والسلاح اليها لان برنس لم يتأثرهم بل تخلف ثلثة ايام ليوزّع بين عساكره الاسلاب التي اغتنمها فنجت رومية بهذه المدة من الخراب التام لانها قدرت على الاستعداد ولما كانت القلعة لا تسع جميع الرومانيين خرجت جماعة من العوام وتفرقت في البلاد وبقي الشيوخ في منازلهم فقتلهم الغاليون وحرقوا المدينة واذ علموا صعوبة الاستيلاء على قلعة الكابيتولينوس وان ذلك يستلزم زمنًا طويلاً أرسلوا قسماً من العساكر ليغزو الامم المجاورة ويأتي بالقوت الكافي

وبلغ كاملس خبر المصائب التي طرأت على وطنهِ فاسف غاية الاسف ونسي لدى تلك النوازل الجلى ما أوصلهُ اليهِ قومهُ من الاضرار وبات حائرًا فيما يفعل ليفرج كربة مواطنيهِ حتى درى برياد فرقة من الغاليين في البلاد طلبًا للمعاش فنهض اذ ذاك نهضة اسير حل عقالهُ وسال والي المدينة المنفيّ اليها ان يأذن لهُ في تجهيز جيش يقطع بهِ دابر المفسدين وينتقم لاخوانهِ من اقوام أذاقوهم النكال وانزلوا بهم ما لم يكن لهم بحسبان فاولاهُ الوالي ما طلبهُ حينئذٍ زحف كاملس بمن تبعهُ الى حيث حل الغاليون وصبر قليلاً حتى ادلهم الليل فانقض وعساكرهُ على الاعداء وهم نيام انقضاض الصواعق واعمل بهم السيف البتار الى مطلع الفجر فارداهم جميعًا

وذاع خبر هذه المعمعة في تلك الاصقاع وكان الرومانيون الذين غادروا المدينة والذين انكسروا امام الغاليين عند نهر أليا قد لعبت بهم أيدي سبا فلما علموا بفوز كاملس غير المنتظر بادروا اليهِ مسرعين واقبلوا عليهِ متجندين تحت لوائهِ كأن النصر الذي فارقهم حينًا من الزمان لفراق كاملس قد عاودهم لعود هذا البطل اليهم

ولم يرد كاملس تولي قيادة الجيش قبل ان يعيّنهُ المجلس في الكابيتولينوس غير انهُ دون الوصول الى المجلس وابلاغ اوامره غصص المنون اذ جنود الاعداء كانت محيطة بتلك الرابية احاطة الاسورة بالمعاصم ولقد كاد يذهب انتصاره الاخير سدى ويمسي امل العساكر المتجمعة حولهُ فشلاً لولا جسارة وغيرة رجل روماني اسمهُ كومينيوس الذي ارتقى الى تلك الرابية في الليل سرًّا وبعد ان أخذ الاوامر اللازمة بتعيين كاملس دكتاتورًا رجع الى معسكره من حيث جاء

وابصر المحاصرون في اليوم الثاني آثار رجلي ويدي كومينيوس عند ارتقائهِ الرابية فعلموا امكان الصعود الى القلعة من ذلك المكان ولما جنَّ الظلام ومالت أعناق الرومانيين من خمر الكرى شرع بعض الغاليين يتسلقون تلك الصخور والشعاب حتى وصلوا بعد الجهد والعناء الى اسفل السور ولم يحس بقدومهم احدٌ سوى الاوز المختصة بالإلهة جونو فاخذت تبقبق وتصفق باجنحتها فاستيقظت لذلك عساكر تلك الجهة وكان اول من نهض واسرع الى الدفاع عن السور الشريف مانليوس فوجد عليهِ رجلين غاليين فابتدر أحدهما بضربة قطع بها يدهُ ودفع الثاني بترسهِ فسقط الى اسفل وهوَّر بسقطتهِ من كان وراءهُ وفي اثناء ذلك اتى قسم من الجنود الرومانية لاسعاف مانليوس فقتل الباقين بالسهام والحجارة

وبينما كان كاملس جاهدًا في جمع الجنود وترتيبها وعاملاً فكرهُ في كيفية قتل الاعداء ليتسنى لهُ النصر المبين كان الجوع قد أخذ بالرومانيين المحصورين في القلعة كل ماخذ فخابروا الغاليين في الصلح فرضي هولاء باجابة طلبهم بشرط ان ينقدوهم الف زنة ذهبًا (٤٥٠٠٠ ليرة أنكليزية) حكى المؤَرخون ان برنس قائد الغاليين اتى بعيارات مغشوشة فتظلم الرومانيون من فعلهِ هذا فما كان جوابهُ الا ان طرح حسامهُ في الميزان فوق العيارات وقال الويل للمغلوبين حينئذٍ ظهر كاملس بجنوده بغتةً وامر قومهُ ان

يستردوا مالهم قائلاً ان الرومانيين ينقذون وطنهم بالسيف لا بالذهب ثم هجم على الاعداء هجمة الرئبال فدحرهم وابتدرت اليهم جنوده واحاطت بهم من كل جانب فافترستهم افتراس الذئاب للغنم واردتهم جميعًا اما الشعب فلقب الدكتاتور بعد هذه النصرة بمخلص الوطن ومجدد بناء رومية ولقب مانليوس بالكابيتولينس لكونهِ اول من بادر لدفع الاعداء عن اسوار الرابية المذكورة كما تقدم المقال الا انهُ قتل فيما بعد مطروحًا من قمتها الى أسفل لان الشرفاء خوفًا منهُ اولاسباب اخرى اتهموهُ باغراء الشعب بتنصيبهِ ملكًا وحكموا عليهِ بالموت

الباب الثالث

من حين تجديد بناء رومية سنة ٣٨٨ ق . م

بعد ما حرقها الغاليون الى

الحرب القرطجنية الاولى سنة ٢٦٤

او

من سنة ٣٦٥ الى سنة ٤٨٩ ب . ر

الفصل الاول

ترى قضي على الامة الرومانية الا تستريح من الحرب كان القتال روح جسم تلك المدينة وحيوة اهلها نعم هذه هي الحقيقة وما الداعي الى ذلك سوى تنازع البقاء لانهُ لما كانت رومية ضيقة باهلها كان دأب الرومانيين شن الغارة على الامم المجاورة لتحصيل ما يعذرهم وما تعجز اراضيهم عن تقديمه لهم وكانت الشعوب المغلوبة تنهض دائمًا في طلب الحرية واذلال سيدتها حينما تسنح لها الفرصة او تتوسم فيها ضعفًا وعليهِ ففي سنة ٣٨٧ ق . م حينما ظهرت

ام المدائن من رماد خرابها بادر اعدآؤها المجاورها الى محاربتها ومحو اسمها ان امكن من عالم الوجود قبل ان تقوى شوكتها وترجع الى ما كانت عليهِ سابقًا ولكن كيف يقدرون على نيل ما رجوهُ وكاملس البطل راض عنها و رابض في احيآئها فانهُ جمع في الحال الرجال الرومانيين وقسمهم الى ثلث فرق ترك فرقة منها عند أسوار رومية للدفاع عنها وفرقة اخرى في مدينة فيّ لمراقبة حركات الاترور يين وزحف بالفرقة الباقية الى قتال الاعدآء فانتصر على الفولسيين والاكويين والاترور يين انتصارًا تامًّا وعاد من ساحة الحرب بالاسرآء والغنائم الوافرة و بعد سنتين او ثلث قاتل اللاتينيين والجبليين او الارنيسيين واخضعهم

وفي سنة ٣٦٦ ق . م بلغ الحكومة ان فرقًا من الغاليين الساكنين عند بحر الادر ياتيك قادمة الى رومية قصد نهبها فخامر قلوب الرومانيين كافة خوف شديد وتذكروا حملة الغاليين السابقة والنكبات التي المت بهم من جرآء ذلك فاجمعوا جميعًا على تعيين كاملس دكتاتورًا واقبلوا يتجندون بغيرة ونشاط لأن ما حدث قبلاً اصبح لهم ما حيوا تبصرة وذكرى ولما كان النصر متوقفًا في اكثر الاحوال على تدبير القائد وذكاه لا على كثرة الجنود ووفرة العُدد راى كاملس ان قوة البرابرة قائمة بطول سيوفهم التي يضربون بها الرؤوس والمناكب بلا مهارة ولا تدريب فامر بعمل مغافر حديدية تكون مصقولة من الخارج حتى اذا ما وقع عليها الحسام ينكسر او يمر فوقها بلا ضرر وجعل للمجان الخشبية دائرة من حديد لتقي حامليها ضربات الصوارم الشديدة ثم زحف بجنوده ونازل الغاليين في أَراضي ألبا فظفر بهم و بدد شملهم وحينما عاد الى رومية احتفل بنصرته جريًا على العادة

وفي هذا العام الغيت مناصب الولاة العسكريين واستبدلوا بقنصلين ينتخبان من الاعيان والعوام ولا حاجة للقول ان هذا الامر تقرّر بعد نزاع عظيم اذ الخصام على ما نرى ضربة لازب لاحداث ادنى تغيير في

الحكومة لان الشرفاء يكرهون كل ما يرغب فيهِ العوام والعكس بالعكس ولا بدع فان الانسان مائلٌ بالطبع الى المحافظة على الامتيازات التي يخولهُ اياها العموم ولو كانت تلك الامتيازات مبنيَّةً على أسباب وهمية

وحيث ان القنصلين هما راس الحكومة وعليهما مدار كل الاعمال المدنية والعسكرية لم يكونا يستطيعان في سائر الاحوال ان يقوما بعبء ما فوض اليهما امرهُ فارتأى القوم اقامة رجل يتولى القضاء دعوه بريتور وقرروا انتخابهُ من الشرفاء لتعويض هذه الفئة مما خسرتهُ في منح العوام حق انتخاب احد القنصلين منهم وعين ايضًا سنة ٣٦٥ ق . م رجلان من الشرفاء والعوام لملاحظة الهياكل والشوارع والاسوار وادارة الالعاب العمومية وسموهما أديل كوريلس (لفظة كوريلس مشتقة من كوروس اي مركبة لان الأديل المذكور كان يجلس في بادىء الامر على كرسي عاج وكان هذا الكرسي يوضع في مركبة)

وفشا في هذا الاثناء وبأ بالمدينة واشتدت وطأتهُ على الاهلين لانهُ دام مدة ثلثة أعوام ومات بسببهِ كاملس القائد الشهير وعدد عديد من العظماء والعوام فاجرى الشعب لازالتهِ اموراً كثيرة خرافية لم تجدهم على ما أظن نفعًا لان هذا الداء المخيف يلزمهُ علاج آخر فالطبيب قد اخطأ الغرض والويل للمريض

ومن الحوادث الغريبة التي نحكيها استطراداً ولا نشفعها بالتصديق هو انهُ في سنة ٣٦١ ق . م فتحت الارض فاها في محلة الفورم وظهرت هوة عظيمة كانت تزداد بالتدريج عمقًا واتساعًا فنفر الشعب فرقًا ثم أقبل يطرح في هذه الهوة ترابًا لعلهُ يستطيع ردمها ولما رأى استحالة ذلك هرع الى السحرة مستشيراً اياهم فاجابهُ هولاء ان الارض المفتوحة لا تستوي الا اذا قدم لها ما يحوي قوة الشعب الروماني وان هذه التقدمة تجعل السلطة الرومانية ابدية فلم يفهم الجمهور مغزى الوحي وبات حائراً في امره متردداً فيما يجب ان يعمل وكان في المدينة فتى شريف اسمهُ كورتيوس فهذا أوَّل

عبارة السحرة بان الآلهة تعني بقوة الرومانيين الشجاعة والسلاح وبناء عليهِ امتطى جواداً مطهماً ولبس عدة جلاده وتقدم الى الفورم على مرأى من الشعب والقى بنفسهِ الى الهوة فانطبقت حالاً ورجعت الارض كما كانت كانة لم يحدث شيء قبلاً

واغار الغاليون السيزأليون على أراضي رومية سنة ٣٦٠ ق.م فالتقاهم الدكتاتور بنس بجيوشهِ على بعد ثلثة أميال من المدينة بالقرب من جسر على نهر أنيو فعسكر الفريقان في ذلك المكان ولم يتلاحما لان النهر كان فاصلاً بينهما فكانا يقضيان النهار بمشاهدة مبارزة الفرسان وقواد الجيشين على الجسر وبرز ذات يوم من صفوف الغاليين رجل طويل القامة وكبير الجثة وطلب نزال الابطال فهال الرومانيين منظرهُ واجتنب الجميع مبارزتهُ ولما طال أمد انتظاره وكاد الرومانيون يلبسون من الخوف لباس العار تقدم فتى شجاع اسمهُ مانليوس واستاذن الدكتاتور في قتالهِ فاذن لهُ فتقلد مانليوس حساماً قصيراً وخرج لمحاربة ذلك الجبار فالتقاه الغالي بسيفهِ الطويل وهمَّ بضربهِ بهِ فمرَّ مانليوس تحت ذلك السيف بسرعة عظيمة وابتدرهُ بضربة سقتهُ كاس حتفهِ ولما رأى الغاليون بطلهم قتيلاً ولوا منهزمين وتشتتوا في تلك البلاد وحدثت بعد ذلك عدة حروب أثارها على رومية الغاليون والامم المجاورة وكان الظفر في جميعها للرومانيين وفي سنة ٣٤٧ ق.م حالفت قرطجنة رومية وعقدت معهــا معاهدة لحفظ السلم والصداقة وهي اول معاهدة عقدت بين هاتين الامتين حسب رأي جلة الرواة المورخين

وفي سنة ٣٤٢ ق.م غزا السمنيتيون بلاد السيدبسنيين وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً فاستجار هولاء بالكابنيين وسألوهم امداداً وكانت كامبنيا شديدة الخصب وكثيرة المال لنشاط اهلها واعتمادهم على التجارة ينبوع الغنى ولما كانت التجارة والثروة تذهبان بالمرء الى حب السلام والتنعم وكلاهما يفقد الانسان العاني بهما الشجاعة والاقدام على الحروب لا سيما في تلك الاعصر

حيث الخشونة صفة لا بد منها للفارس المغوار كان الكامبنيون غير قادرين على قتال السمنيتيين الابطال الا انهم كانوا مجبرين لصولجهم الذاتية على مساعدة السيديسينيين واذلال اعدائهم لذلك أشهروا العدوان و بادروا الى ساحة الوغى فلم يثبتوا فيها طويلاً بل انهزموا الى كابوا عاصمة بلادهم فلحق بهم السمنيتيون وانزلوا بهم رهقًا فضاق الجميع ذرعًا وارسل الولاة سفراء الى رومية ليبثوا لاهلها شكواهم و يطلبوا نصرتهم فجاء السفراء وعرضوا للمجلس ماعرضوه الى ان قالوا اذا لم ينتصر لنا حلفاؤنا سريعًا نسقط في يد اعدائنا الذين سيسوموننا بلا شك الخسف وعذاب الهون فالبدار البدار ايها الرومانيون لمساعدة قوم يكونون لكم حلفاء امناء و يعدونكم ما حيوا مخلصي بلادهم و يجلونكم كما يجلون الالهة ـ اجابهم المجلس انه يود مساعدتهم لو لم يكن السمنيتيون حلفاء الرومانيين مع ذلك وعدهم بارسال وفد يسال السمنيتيين كف العدوان فلما سمع السفراء هذا الكلام الناشيء عن الرغبة في المحافظة على الصداقة او الطمع للحصول على ما يقابل الانعاب التي سيتجشمها الشعب في هذه الحرب قالوا ايها الرومانيون اذا ابيتم مساعدتنا كحلفائكم فلا نظنكم تابون الدفاع عنا كرعيتكم لان اهل كامبينيا ومدينة كابوا واراضينا وهيا كلنا وكل ما نملكه هو من الان لكم ثم جثوا في ذلك النادي ورفعوا ايديهم الى القنصلين مستجيرين وباكين فاشفق عليهم من كان حاضرًا وعوّل المجلس على مساعدتهم لا بل على حماية بلاد ملكها بلا حرب ولا يتم له التمتع بطيباتهـــا الا بالضرب والطعان على انه ارسل اولاً رسلاً الى السمينيتيين يسالونهم كف القتال فابى هولاء الاذعان لهم فتجهز القنصلان وخرجا بالجنود لمحاربتهم فظفرا بهم في مواقع كثيرة وشتتا شملهم فطار خبر هذه النصرات في الافاق وبادر الاترور يون الى الخضوع التام لرومية وارسل القرطجنيون رسلاً يهنئون المجلس و يقدمون تاجًا ذهبيًا للإله جوبيتر كابيتولينوس شكرًا له على فوز الرومانيين العظيم

وظن اللاتينيون سنة ٣٣٩ ق.م انهم يستطيعون الاستقلال وخلع نير رومية عنهم وعلموا ان دون ذلك حربًا عوانًا فاستعدوا لها لكنهم لم يباشروها قبل استعمال الوسائل السلمية كي لا يتهموا بالاعتداء او لكونهم لم يكونوا خاضعين لرومية خضوعًا تامًا فانفوا من القول انهم نهضوا في طلب الحرية كأنهم كانوا عبيدًا وعليهِ أرادوا ان يعاملوا الرومانيين معاملة نظير فوجهوا اليهم سفراء يعلنون رغبتهم في دوام السلام وتقوية عرى الاتحاد بشرط ان يؤلف مجلس رومية من اعضاء رومانيين ولاتينيين وان يكون أحد القنصلين لاتينيًا اما المجلس فغضب جدًا عند سماعهِ هذا الكلام وامر القنصلين بجمع الجنود اللازمة لتاديب هولاء الاقوام الذين ابطرتهم النعمة فعصوا فجهز القنصلان مانليوس ودسيوس العساكر وزحفا الى كابوا حيث حلَّ اللاتينيون وحلفاؤهم

وفي ذلك الليل تراءى لكل من القنصلين في الحلم رجلٌ جبارٌ طويل القامة ومهيب قال لهما ان النصر يعطى لاحد الجيشين الذي يقدم قائدهُ نفسهُ ضحية لآلهة الجحيم ولما اخبر كل قائد رفيقهُ ما تراءى لهُ في الحلم عجبا جدًا من انهما حلما حلمًا واحدًا وعلما ان ذلك وحيٌ ينبئهما عما يجب فعلهُ لاحراز نعم الآلهة فذبحا الذبائح وقدما القرابين كفارة عن الذنوب واتفقا ان القنصل الذي يرى فرقتهُ مدحورة يجب عليهِ ان يخوض وحدهُ عجاج الحرب ويهجم على صفوف الاعداء حتى يخرَّ قتيلاً باسيافهم ويموت فدى الوطن ورجالهِ

ولم يكن اللاتينيون يباينون الرومانيين بشيء البتة بل كان الفريقان يتكلمان لغة واحدة وكانت عوائد الامتين وطريقة قتالهما متشابهة لانهما شعب واحد وقد عاشتا زمنًا طويلاً بالالفة والاتحاد فحذر القنصلان في هذه الحرب كل الحذر وامرا القواد والجنود ان يراعوا الترتيب والا يقاتل احدٌ منهم خارج صفهِ وحدث ذات يوم ان الفتى مانليوس ابن القنصل لقي

قائد" الاتينيًا فطلب هذا مبارزته فلم يرفض مانليوس النزال كأنه قد نسي الاوامر الصادرة بهذا الشان وانقض عليه بسيفه البتار وخطف مهجته ثم جمع اسلابه وتقدم الى سرادق أبيه وقال له يا أبتِ قد اقتديت بشجاعتك واظهرت ذاتي اهلاً لان اكون ابنك فان قائد" الاتينيًا قد طلب نزالي فبارزته واسقيته بحسامي كاس حتفه وهذي هي اسلابه أضعها عند اقدامك اما ابوهُ فجمع العساكر حالاً واجابه قائلاً ياطيطس مانليوس قد خالفت اوامري واقدمت على محاربة العدو فابطلت بفعلك هذا الترتيب العسكري الذي نعدّهُ عماد سلطة وقوة الشعب الروماني فاحوجتني الى احد امرين اما ان انسى حاساتي الابوية فاقتلك او اهمل صوالح العموم فاستحييك ولكن فليكن موتك مثالاً للرومانيين يردعهم عن مخالفة القوانين ويعلمهم اذا ارتكبوا هذا الامر المنكر كيف يكفرون عن ذنبهم ثم امر شرطيًا بضرب عنقه ففعل

ثم تلاحم الجيشان واشتد القتال وكان القنصل دسيوس متوليًا قيادة الجناح الايسر فاظهر في ذلك النهار فعالاً تحير الابطال الا ان عساكرهُ لم تستطع الثبات بل رجعت الى الوراء فتذكر القنصل وقتئذٍ حلمه وهجم على صفوف اللاتينيين مقدمًا ذاته والاعداء ضحية لآلهة الجحيم فسقط في الحال قتيلاً ولما رآهُ قومهُ قد مات شجعوا واقتحموا الاهوال فاذاقوا خصومهم حربًا لا تبقي ولا تذر حتى نفروا في مجاهل تلك الارض بعدما قتل منهم اناس كثيرون وحدثت معامع اخرى استظهر فيها الرومانيون فدخلوا المدن اللاتينية واستولوا عليها وعاملوا اهلها بالرفق والاحسان لانهم لم ياخذوهم بذنبهم بل طردوا مسببي الثورة ومنحوا الباقين حقوقًا كاهل رومية وحسبوهم في عداد الوطنيين

الفصل الثاني

طالما راينا رومية واهلها هدفًا لسهام النزاع الداخلي الناجم عن حب الرياسة والمحافظة على بعض امتيازات احدثها الوهم وجهد في اثباتها قوم طمعون لايدركون حقوق الانسانية وواجبات المرء لابناء جنسو اما الان وقد اشتد ساعد العوام وقدروا على مشاركة الاعيان في سائر المناصب العالية فاصبح سكان هذه المدينة العظيمة شعبًا بالحقيقة واحدًا يصرف همهُ في التعاون واحراز ما يعود بالمجد والعظمة على الامة الرومانية وعرف الجميع ان التقدم بالفضل الشخصي لا بشرف الآباء والاجداد فنشطوا الى الاعمال الخطيرة وولوا التواني والانقسام صفحة الاعراض

ويظهر ان الرومانيين أَدخلوا في هذا الزمان اصلاحًا في نظام الجندية بان جعلوا مدة التجند تدوم ما دامت الحرب ثائرة خلافًا لما اعتادوهُ قبلاً من ان القائد المعين لانهاء حرب باشرها قائد آخر يجب عليهِ جمع عساكر جديدة كانَّ الجنديّ غير مجبر على الخدمة اذا مات قائدهُ او عزل عن منصبهِ

وفي هذا الاوان كانت رومية تزداد يومًا فيومًا عظمة وباسًا لانها كانت سائرة على قدم النجاح فاخضعت عدة مدن ايطالية واصبحت قوية ومرهوبة الجانب في تلك الاصقاع ومن عوائدها الحسنة التي تذكر فتشكر والتي خولتها قوة عظيمة ووطدت سلطتها في المدن الخاضعة لها منحها سكان تلك المدن حقوقًا كالرومانيين واعتبارهم وطنيين ليجدوا في تقدمها او ارسالها فئة من فقراء العوام ليسكنوا بين الشعوب المغلوبة ويكونوا بمثابة جيش روماني يحتل تلك البلاد ويمنع اهلها من المجاهرة بالعصيان

ومما يجمل ذكرهُ ويتهلل لهُ وجه الانسانية بشرًا هو الامر الذي اصدرهُ المجلس سنة ٣٢٥ ق.م بمنع الدائن عن استعباد مديونهِ مصرحًا ان املاك المديون فقط مرهونة لوفاءِ دينهِ اما شخصهُ فحرٌ ابدًا

وقاتل السمنيتيون شعب رومية مرارًا بعد حربهم الاولى غير انهم كانوا يرتدون دائمًا بالذل والفشل ودامت الحال هكذا الى ان كانت سنة ٣٢٠ ق.م وقد انتصر الرومانيون عليهم نصرات عظيمة وغشوا البلاد بجيوشهم الجرارة فبادروا الى طلب السلام صاغرين جريًا على عادتهم متى المت بهم ملمات فابى الرومانيون اجابة طلبهم استكبارًا وعولوا على مداومة القتال ليذيقوهم ثمر العصيان والبهتان ويجعلوا لهم هذه الحرب خاتمة الحروب ولما ضاق السمنيتيون ذرعًا عمد قائدهم بونتيوس الى الحيل انتقامًا من اعدائهم فتسنى لهُ ما امل وقدر على حصرهم في مضيق بالقرب من مدينة كوديوم دُعي من ذلك الحين شوك كوديوم وسببهُ ان العساكر الرومانية ولجتهُ آمنة لزعمها ان العدو قد رحل وان هذا المضيق اقرب الطرق الموصلة اليهِ وكان بونتيوس قد اذاع خبر رحيلهِ وهو كامن بالقرب من ذلك المكان فلما علم بتصديق اعدائهِ ما اختلقهُ واحتلالهم المضيق فرح واستبشر ونقدم بجنوده ونظر الرومانيين واذا هم في قبضتهِ لا يستطيعون فرارًا ولو اتخذوا لهم اجنحة

اما السمنيتيون فباتوا حائرين فيما يجب فعلهُ ليجتنوا نفعًا من هذا الفوز المبين ولما كانوا مترددين في الامر لا يستقرون على راي استشار بونتيوس اباهُ بهذا الشان فاجابهُ ابوهُ وهو شيخ جليل قد حنكتهُ الايام انهُ يجب اجلال الرومانيين واطلاق سبيلهم فلم يحل رايهُ محل القبول ثم استشير مرة اخرى فاجاب انهُ يجب قتلهم جميعًا ولقد نطق هذا الشيخ بالصواب لانهم ان عملوا بموجب الراي الاول صادقوا الرومانيين وقلدوهم من المنة اطواقًا وان تصرفوا حسب الراي الثاني اضعفوهم وجعلوهم غير

قادرين على القتال مدة مديدة الا ان بونتيوس لم يصدع بامر ابيه ولم يرضخ لمشورته الحكيمة بل عزم واعوانه على تخلية سبيل الرومانيين بعد ان يعاملهم معاملة عدو مقهور

وكان الرومانيون قد ذهلوا وخافوا خوفًا شديدًا حينما أبصروا الاخطار المحيطة بهم من كل جانب فارسلوا رسلاً يسالون اعداءهم السلام فاجابهم بونتيوس الى ذلك بشرط ان يسلموا سلاحهم ويمروا تحت النير وان يغادر الرومانيون المدن السمنيتية الساكنون فيها والتي سلبوها اهل البلاد فرضوا بما امر كرهًا ومروا تحت النير على مرأى من السمنيتيين الذين زادوا مصابهم مصابًا بان اوسعوهم اهانة وشتمًا فخرجوا من ذلك المضيق وقد ضاق بهم الفضاء وتمنوا لو تفتح الارض فاها وتبتلعهم لينجوا من الفضيحة والعار وانفوا لذلك من الدخول الى رومية نهارًا لئلا ينظرهم الشعب فولجوها ليلاً واسرعوا الى منازلهم واختبأوا فيها

وأنّ الجميع لهذه الحادثة المفجعة انين الثكلى وخلعوا عنهم ثياب الزينة والتنعم ايذانًا بحزنهم الشديد على فقدهم المجد الذي رفلوا به زمانًا طويلاً فلله درّ هذا الشعب الجبار الذي لم يفقهُ أحدٌ على وجه البسيطة في حب وطنه كان الوطن الههُ فلا يانف من بذل النفس والنفيس ضحية له أمثلة يُعادى او يُذَل بجعله يمر تحت النير ولكن حب الانتقام اذا تمكن من قلب الانسان اعمى بصيرتهُ وبصره فيصبح كالباحث عن حتفه بظلفه اذ هيهات ان يدرك ان الانتقام كل الانتقام من الرجل الكريم في الصفح عنهُ اذا أخطأ وفي اكرامه اذا قدر على اذلاله

ولم يسكن روع الاهلين الا بانتخاب قنصلين جديدين شهيرين بالشجاعة والباس فاحضرا في الحال الى المجلس سلفيهما ليستخبراهما عن العهدة التي امضياها للسمنيتيين فاعلن بوستيموس احد القنصلين السابقين ان العهدة المذكورة فاسدة لا توجب على الجمهورية امرًا لانها تمت بغير علمها ورضاها

ولا تستلزم سوى تسليم القواد الذين وقعوها لينتقم منهم السمنيتيون شفاء لغليلهم فوقع هذا الكلام عند الجميع موقعًا حسنًا وصدقوا عليه ثم بادر الرومانيون الى القتال تطوعًا وزحفوا من المدينة بالخيل والرجل ولما قربوا من معسكر الاعداء بعثوا اليهم بالقواد المذكورين مقيدين وبسفير يخبرهم ما نووا فمثلوا بين يدي بونتيوس وفاه الرسول قائلاً حيث ان هولاء الرجال قد هادنوكم وعاهدوكم ولم يكونوا مأذونين في ذلك فقد اقترفوا ذنبًا عظيماً وعليه فنحن نسلمهم اليكم لنكون براء مما جنوهُ اما بوستيموس فلكي يلقي الفتنة ويجعل الحرب ضربة لازب رفس السفير وقال لهُ انا الان سمنيتي وانت سفير روماني ولقد اعتديت عليك وخالفت الشرائع المرعية بين الامم فاشهر الحرب صيانة لحرية ومجد امتك وعلم بونتيوس ان وراء الاكمة ما وراءها فاجاب السفير ان رام الرومانيون مراعاة العدل وحفظ شرفهم فليعملوا بموجب العهدة التي امضوها او فليرجعوا جنودهم الى مضيق كوديوم ثم اشار الى بوستيموس وقال له اتريد ان تخدع الآلهة بمكرك وهل تظنهم يحسبونك سمنيتيًا ليعدوا فعلك اهانة صادرة منا للشعب الروماني اهكذا تحتقر الدين والعهود ولكن هذه الاعمال لا تليق بقنصل يتولى الاحكام ولا بامة عظيمة ثم امر الشرط بفك رباط الاسراء واطلاقهم

وعلم الرومانيون بما كان فاستبشروا واستعدوا للقتال ولما التقى الجيشان اراد القائد الروماني ان يحرض جنوده على الثبات فلم يستطع لانهم حالما أبصروا الاعداء هجموا عليهم وهم مشهرون سيوفهم هجوم اللبوة على من رام خطف اشبالها وصدموهم صدمة الجأتهم الى الفرار فانقضوا عليهم واعملوا بهم السيف البتار حتى اردوا منهم عددًا عديدًا

وجرى بعد بضعة ايام وقعة اخرى اظهر فيها الرومانيون ما أظهروه في الوقعة الاولى من الحمية وحب الانتقام ولقد كادوا يفنون الجيش السمنيتي لو لم يوقفهم القنصل ويستحي من بقي منهُ وكان عددهم سبعة الاف

رجل فمروا تحت النير وفي مقدمتهم بونتيوس سبب هذا البلآء

وكان السمنيتيون اقدر واشجع امة في تلك البلاد يانفون من الخضوع للغربآء ويفدون الحرية بالارواح فلم تكن الحروب التي حدثت كافية لاذلالهم بل ثابروا على القتال مدة تسعة واربعين عامًا وكانوا تارة ينفردون في حرب الرومانيين وتارة يتحدون مع بعض امم كانت تنهض لانتصارهم خوفًا من رومية التي امتدت سلطتها حينئذٍ على كثير من مدن تلك الانحآء غير ان الظفر كان خاضعًا للوائها فداست جنودها ارض الاعدآء وقتلت منهم اناسًا كثيرين حتى كادت انفس السمنيتيين تزهق فارسلوا سنة ٢٩٠ ق . م رسلاً يسالونها السلام فرضي المجلس بذلك وفوض اتمام هذا الامر الى القنصل كوريوس الذي خرب بلادهم واستولى على مدائنهم العامرة

وكان كوريوس هذا متصوفًا فلما حضر اليهِ سفرآء السمنيتيين ليعقدوا معهُ شروط الصلح وجدوهُ جالسًا على كرسيّ خشب بالقرب من النار يطبخ غذاءهُ فقدموا لهُ دراهم ليسترضوهُ ويحملوه على معاملتهم بالرفق والاحسان فنظر اليهم شزرًا وقال لهم لا جرم انكم رايتم فقري فرجوتم ان تستميلوني بالنضار ولكن اعلموا اني اود التسلط على ذوي الاموال لا ان اكون متمولاً فخذوا ما اتيتم بهِ واخبروا من ارسلكم انني لا اغلب بالمال والسلاح فوجد السمنيتيون ان لا راحة لهم الا في الخضوع التام لاعدائهم فطرحوا عنهم الكبر والخيلآء ورضوا بكل ما شآء كوريوس ان يامرهم بهِ وآبوا الى ارضهم آمنين تحت ظل العلم الروماني وخضع ايضًا في ذلك الحين لرومية الصابنيون بعد ان كانوا حلفآءها زمنًا طويلاً فعوملوا معاملة حسنة لصداقتهم القديمة وحسبوا في عداد الرومانيين

الفصل الثالث

قد قويت الان شوكة رومية وعلا مقامها بين الملا فاحدقت بها ابصار مجاوريها وتنبهت افكارهم الى سطوتها وعرفوا رغبتها في الحروب وثباتها فيها ليتسنى لها اخضاع من يمكنها اخضاعهُ فهرع بعضهم اليها مستجيرًا ليامن بوائق الدهر وغدرهِ وحاول بعض التخلص من ربقة سلطتها فسامتهُ خسفًا واذاقتهُ عذابًا اليماً وكان في جنوب ايطاليا مدينة عظيمة اسمها ترنتوم قد استعمرتها فئة يونانية من اهالي صبرتا المشهورين بالتقشف والبسالة فحازت منذ نشاتها مالاً وافرًا وسلطانًا عظيماً ولما تمادى بها الزمان انغمست في الملذات والترف فاضاعت في التنعم حبها للقتال وضعفت سلطتها

ونظر الترنتيون عظمة رومية وانضمام من يجاورها اليها فاشفقوا على انفسهم منها والقوا الفتنة بينها وبين كثير من اعدائها القدماء لا سيما الاتروريين والغاليين السانويين فنشب القتال واحتدمت نار الحرب غير ان تلك المعامع انجلت عن فوز الرومانيين باخضاع الاولين وابادة الاخرين عقابًا لهم على ما جناه آباؤهم اما الترنتيون فكانوا جاهدين في المحافظة على الحيادة كأن لا علم لهم بما جرى

واتفق ان فالريوس احد اميري المراكب الرومانية دخل مرفأ ترنتوم بعشر سفن وكان اهلها اخذين حينئذٍ في اجراء العاب عمومية بملعب تجاه البحر فوهموا ان الرومانيين آتون بسفنهم للتجسس او لشن الغارة عليهم لان المنافق الواشي لا يامن احدًا او كيف يامن احدًا وهو عدو الجميع فابطلوا الالعاب وبادروا في الحال الى المرفإ فاغرقوا سفينة وقبضوا على اربع والجأوا الخمس الباقيات الى الفرار وعلم الرومانيون بما لحق بهم من الاهانة

فارسلوا الى ترنتوم سفرآء يطلبون ارضاً وتعويضاً فسخر الترنتيون منهم وردوهم خائبين فكان ذلك كما لا يخفي ضغثاً على ابالة

وكأن الترنتيين قد صحوا من غفلتهم وانتبهوا الى سوء عاقبة ما فعلوهُ ونظروا الى من يجاورهم فلم يروا احداً قادراً على مساعدتهم فاستجاروا ببيرّس ملك أبيرس وهو اشجع ابطال اليونانيين وقتئذٍ ولما كان فخوراً ومولعاً بالحروب والانتصار ليشتهر ويحاكي اسكندر المكدوني الكبير المعروف بذي القرنين لبى دعوة الترنتيين واخذ في الاستعداد

وكان لهذا الملك الجبار وزير تسالي اسمهُ سنياس قد قرأ على دمستينوس الخطيب اليوناني العلم ولزمهُ فنشأ خطيباً كاستاذه بليغاً يفتن الالباب بسحر بيانهِ ويستميل القلوب بدرر الكلام والحكم فنجح في كل ما فوضهُ اليهِ مولاهُ حتى ان بيرّس كان يقول ان ما اغتنمتهُ بفصاحة وتدبير سنياس لاكثر جداً مما حزتهُ بقوة ذراعي و بطشي وحدث ان هذا الوزير قال لبيرّس ذات يوم يامولاي من المعلوم ان الرومانيين قوم اشدآء و يتسلطون على امم كثيرة مشهورة بالشجاعة فما الذي نفعلهُ بعد ان نغلبهم

— اجابهُ بيرس متى غلبنا الرومانيين لا يبقى لنا منازع في تلك البلاد فناخذ مدائنها ونستولي على اموالها

ماذا نعمل بعد ان نستولي على ايطاليا

— نخضع جزيرة صقلية (سيسيليا) لانها وان كانت كثيرة المال والسكان لا تستطيع قتالنا من جرآء الفتن الاهلية التي اوهت قواها

— حسن ولكن هل نقف عند هذا الحد

— كلا بل نجتاز الى افريقية وقرطجنة ونستولي على جميع ما هناك ثم نسترد مكدونيا ونخضع كل بلاد اليونان

— أكيد ولكن ماذا نعمل بعد ذلك

— فضحك بيرس واجابهُ حينئذٍ نعيش عيشة راضية لاننا نقضي ايامنا

بالولائم وتعاطي المدام ومنادمة الخلان

— قال له سنياس ما الذي يمنعنا الان يامولاي من نيل هذه السعادة التي تود الحصول عليها بعد هذه الاخطار العظيمة

ان ما فاه به هذا الوزير الفيلسوف لحريٌ ان يكتب بماء الذهب وان يجعل للناس ما حيوا تبصرة وذكرى لينتبهوا الى الاسباب الحقيقية التي تخولهم الراحة والسعادة لئلا تحملهم الاطماع على ارتكاب الاخطار وتجشم مشقات تجرعهم غالبًا كاس الهلكة فما اجهل الانسان وما اغفله عن الحقائق كأنهُ يحسب التعب امرًا محتومًا عليهِ فلا يبرح كاسف البال زائد البلبال متوسدًا فراش الهموم والغموم حتى يقع في براثن الموت ويدركهُ الفناء وكم من الاغنياء الذين لو رضوا بما يملكون لعاشوا هم ومن يلدون أحقابًا عديدة بالراحة والهناء ولكنهم كلما ازدادوا مالاً زادوا طمعًا وحرصًا حتى يسقطوا عاجلاً ام آجلاً فيما كانوا منهُ يحاذرون

ولما كان بيرس لا يلهج بغير الحرب والغارات لم ينتصح بكلام وزيره الحكيم بل اعارهُ اذنًا صماء وارسلهُ على الفور الى ترنتوم ليمهد سبيلهُ هناك ويبشر الترنتيين بقرب وصولهِ اليهم ثم جمع جيشًا جرّارًا وفيلة سنة ٢٧٩ ق . م وركب بهم البحر وما زالت سفنهُ ماخرة حتى وصلت الى ترنتوم فاحتلها وجنوده بالعز والاكرام واخذ في الاستعداد لقتال الرومانيين فكاتب قنصلهم بما معناه من بيرس الى لافينيوس سلام قد علمت انك آت بجيش لمحاربة الترنتيين فاصرفهُ بلا مهل وتعالَ اليّ واعرض لي شكواك لانني متى سمعت دعوى الفريقين ساصدر في هذا الامر حكمًا يجب على كل مراعاتهُ اذ الويل لمن يخالفني فاجابهُ لافينيوس — اعلم يا بيرس اننا لا نرضاك حكمًا ولا نخشى غضبك واني لاعجب كيف تدعي ان لك الحقّ بالحكم لنا او علينا وانت قد اهنتنا باحتلالك هذه البلاد اما الحكم الوحيد الذي نرفع اليهِ الشكوى فهو المريخ ابو الرومانيين وحامي جنودهم اذا الخيل باللبات

يوماً تعثرت

حينئذٍ نهض بيرس بجنوده ونقدم الى نهر سيرس حيث كان الرومانيون معسكرين ونظر اليهم فاعجبهُ ترتيبهم وحركاتهم العسكرية فالتفت الى احد اعوانهِ وقال لهُ ان نظام هولآء البرابرة ليس بربريًا (كما ان العرب يدعون العجم كل من يخالفهم جنسًا ومحتدا كذلك اليونانيون كانوا يطلقون اسم البرابرة على كل امم الارض ما خلاهم) ويظهر انهُ خافهم فاراد اجتناب المعامع العظيمة لتطول الحرب ويتسنى لهُ الحصول على امداد محالفيهِ غير ان الرومانيين لم يمكنهم الاصطبار فعبروا النهر واندفعوا على الايريين بشجاعة وثبات فالتقاهم هولآء بالخيل والرجل ونشبت الحرب واشتد القتال ولقد اظهر الملك بيرس في تلك المعمعة تدبير قائد محنك خبير وبسالة مقاتل شهير وكان اذ ذاك لابسًا لباسًا فاخرًا وسلاحًا بديعًا فاصبح مطمحًا لابصار اعدائهِ وهدفًا لضرباتهم ولقد كاد يفقد حياتهُ ذلك النهار لان فارسًا ايطاليًا تعمدهُ دون سائر الجيش وطعنهُ طعنة اصابت جوادهُ فسقط على الارض سالمًا ومات ذلك الفارس بسيوف اعوان الملك

وحارب الرومانيون في ذلك النهار حربًا تشيب الاطفال وثبتوا جميعًا ثبات الابطال لدى هجمات اعدائهم المتتابعة حتى انهم كادوا يظفرون عليهم ويفتكون بهم فتكًا ذريعًا لولا الفيلة التي أطلقها بيرس والتي القت في قلوبهم الرعب لانهم لم ينظروها قط ولم يعرفوا ما هي فرجعوا الى الورآء مدحورين ثم ولوا منهزمين فرارًا من الموت وخوفًا من الافيال وتركوا معسكرهم غنيمة للايريين واسر بيرس منهم في هذه الوقعة الفًا وثمانمائة رجل عاملهم معاملة حسنة واعتبرهم غاية الاعتبار لاسيما حينما رفضوا ان يحاربوهُ ويدخلوا في خدمته

وطار خبر هذه النصرة في الآفاق وعدها الناس من خوارق العادة لانهُ وان يكن بيرس مشهورًا وقد تغلب على امم كثيرة فانكسار الرومانيين

وقنصلهم وتركهم معسكرهم غنيمة للاعداء لامر عظيم غير منتظر قد حير الافكار وفتح بابًا لشماتة المبغضين والفضل في ذلك لفيلة الامير اليوناني لا لرجاله كما روت ثقات المؤرخين مع ذلك لم يكن بيرس فرحًا بنصرته لانهُ لما جاء اليه الترنتيون يهنئونهُ قال لهم نصرة اخرى كهذه تمحقنا ولم يجزع الرومانيون ولا المجلس من هذا الانكسار بل جهزوا جيشًا جديدًا وسلموا قيادتهُ الى القنصل لافينيوس الذي زحف به واعترض بيرس عند رجوعه الى ترنتوم فابى الملك محاربتهُ وانكفأ راجعًا الى المدينة

واتى ترنتوم رسل رومانيون براسهم فابرسيوس البطل الشهير بشجاعته وصدقه وامانته وطلبوا مقابلة الملك ليخابروهُ بشان تخلية سبيل الامراء فظنهم بيرس بادىء بدء آتين لكف العدوان وطلب السلام ففرح واستبشر غير انهُ لما علم امرهم خلا بفابرسيوس وقال لهُ قد سمعت وتاكدت انك رجلٌ فاضلٌ كريم ويسوءني جدًا ان أراك فقيرًا فاود ان امنحك مالاً وافرًا لتحاكي اشرف الرومانيين غنى واقتدارًا ولست اسألك مقابلة ذلك سوى ان تجهد في عقد الصلح وكف القتال لانهُ لا يليق بي الرحيل من هذه الديار قبل ان اعقد للترنتيين واليونانيين القاطنين في ايطاليا صلحًا موافقًا لهم ولا تعجب من رغبتي في السلام لان لي شغلاً شاغلاً يستلزم حضوري عاجلاً الى بلادي واذا رأيت مجلسكم لم يركن اليَّ لكوني ملكًا وكون ملوك كثيرين قد نقضوا العهود غير مبالين فالتمس منك ان تكون كفيلي لديه واذا رمت ان تأتي ابيرس بعد ذلك فلك مني ما تريد لاني مفتقرٌ الى رجل فاضلٍ وصديق صدوق وانت محتاج الى ملك كريم يقدرك حق قدرك ويمكنك من اظهار فضلك في انهاء اعماله العظيمة التي سيفوضها اليك فلنتعاهد اذًا على الصداقة الصادقة العائدة على كلينا بالخير والسعادة

أجابهُ فبرسيوس انا فقير كما قلت لاني لا املك سوى بيت حقير وقطعة ارض أحرثها بيديَّ واعيش من غلتها أما فقري فلا يحط مقامي

بين مواطنيَّ الذين يقدرونني حق قدري ويعتبرونني من الكبراء الواجب اكرامهم كيف لا ورومية لا تعتدُّ بالمرء اذا لم يكن فاضلاً ونشيطًا وقد تقلدت عدة مناصب عالية وأحرزت فخرًا عظيما فالذي تخالهُ سببًا للاهانة هو عندنا عين الفخار ولو كنت أرغب في الثروة وأُحبُّ حشد الاموال لامكنني ذالك عند فتحي المدائن وقهري الابطال والجيوش ولكنني لا ابالي باللجين والنضار وارى المجد كل المجد في اتمام واجباتي لاكون طاهر الذيل وواسع الشهرة

وأراد بيرس ان يختبر شجاعة فابرسيوس فدعاهُ الى مكان للمخابرة وأمر احد رجالهِ ان يأتي باكبر الافيال ويطلقهُ عليهِ حين حضوره فلما جاء وجلس هجم الفيل عليهِ بغتةً ومدَّ خرطومهُ فوق رأسهِ فلم ينزعج البتة بل التفت الى الملك وقال لهُ وهو يتبسم انيلا ابالي بذهبك ولا باعظم افيالك

وحدث عند المساء انهم خاضوا في حديث علماء الادب وفلاسفة اليونانيين فاخذ سنياس يتكلم عن أبيقورس ويشرح قواعد فلسفته قائلاً ان الآلهة لا تحب ولا تبغض ولا تشفق ولا تغضب ولا تبالي بالبشر على الاطلاق لا يهمها شغل ولا تشغلها عناية بل هي منهمكة ابدًا بالمسرات وعليهِ فالانشراح هو اعظم نعمة يحرزها الانسان والحكيم من نبذ الفخار والعظمة ظهريًا لانَّ كل ذلك يذهب بالسعادة الحقيقية فصرخ فابرسيوس حينئذٍ وقال ايتها الآلهة فلتكن هكذا تعاليم اعدائنا حتى ننتصر عليهم واخفق مسعى الملك في اقناع فابرسيوس ان يتوسط لهُ الصلح فارسل وزيرهُ سنياس الى رومية ليخابر المجلس بذلك واصحبهُ بالتحف الثمينة للكبراء ولما كان سنياس كما تقدم المقال طلق اللسان بليغًا امكنهُ استرضاء كثير من الآباء وكاد يفوز بالمنى لولا ابيوس الشيخ الذي على رغم اسقامهِ ووهن قواهُ اتى دار الندوة محمولاً على كرسي وخطب خطابًا انيقًا اعرب فيهِ عما يجب فعلهُ اتقاء للحدثان وصيانة لشرف الرومانيين وكان لخطابهِ هذا وقع

عظيم في قلوب الحاضرين فاجمعوا جميعاً على رد الوزير اليوناني وعدم انالته سؤلهُ بقولهم اننا لا نخابر بيرس بصلح ولا نعاهدهُ بعهد طالما هو محتل ايطاليا ولكننا سنبذل الجهد في مداومة حربه ولو انتصر على الف قائد مثل لفينيوس فغادر سنياس في ذلك النهار رومية ورجع الى ترنتوم قيل ان بيرس سألهُ عند رجوعه كيف رأيت مدينة الرومانيين ومجلسهم اجابهُ ان رومية نظير هيكل ومجلسها كمؤتمر ملوك

وفي سنة ٢٧٧ ق . م كان فابرسيوس قنصلاً وقائداً للجيوش فارسل اليه رئيس اطباء بيرس كتاباً يعرض فيه رغبتهُ في سمّ الملك لانهاء الحرب واراحة العباد من شره اذا كان الرومانيون يجيزونهُ على ذلك فانف من دناءة ورداءة هذا الطبيب الخائن اللئيم وكتب في الحال الى الامير اليوناني ما ياتي من فابرسيوس واميليوس القنصلين الى الملك بيرس سلام قد اخطأت ايها الملك في انتقاء اصدقائك واعدائك لانك متى قرأت الكتاب المرسل الينا من احد اعوانك تعلم انك نقاتل اناساً امناء فاضلين وتأمن رجالاً طغاماً خائنين واننا قد بادرنا الى اعلانك الخطر المحيط بك لا رغبة في صيانتك او التزلف منك ولكن فراراً من قول قائل اننا لم نستطع قهرك علناً فعمدنا الى الخبث والخيانة حكى بعضهم ان بيرس حينما بلغهُ ذلك قال ان تغيير سير الشمس في قبة الفلك لأ يسر من افساد اخلاق فابرسيوس الشهم العادل

وكان السيسليون قد خضعوا من مدة للقرطجنيين فكرهوا حكم الاجنبي وسلطة الغريب وطلبوا الى بيرس ان يأتي بلادهم ليعينهم على طردهم منها فلبى بيرس دعوة الداعين واقبل اليهم بجيوشه الجرارة وافياله وقاتل القرطجنيين قتالاً لا يبقي ولا يذر فالجأهم الى ترك الجزيرة فراراً من بطشه وبأسه ولما خلا له الجو وصفا الزمان عمد الى ارتشاف كؤوس الهناء والمسرات مجرعاً الاهلين من فعاله مرارة العلقم فسئموا منهُ وملوا الحيوة لظلمه وانقسموا

احزاباً دعا كلٌّ منها بعضاً من الغرباء لانقاذهم فاسرع اليهم القرطجنيون بجنودهم وعملوا معهم على نكايتهِ وتنكيلهِ وحدث في ذلك الوقت ان الترنتيين ومحالفيهم باتوا من حرب الرومانيين بعد رحيل الامير اليونانيّ في ضيق الخناق فارسلوا اليهِ رسلاً يسالونــهُ امداداً فحضر اليهم على جناح السرعة لانهُ أصبح في سيسيليا محفوفاً بالعناء والاخطار . حكى المؤرخون انهُ قال عند تركهِ الجزيرة ما أعظم هذا المكان الذي نتركهُ ساحة لقتال الرومانيين والقرطجنيين

واحيا بيرس بقدومهِ روح الشجاعة في قلوب الترنتيين فنشطوا الى القتال وخرجوا معهُ للكر والكفاح وكان الرومانيون قد اقاموا قنصلاً كوريوس الشهير في الزهد والبسالة وسلموا اليهِ قيادة الجنود فالتقى الجيشان بالقرب من مدينة بنيفنتوم فنشبت الحرب وكانت مهولة ويلوح ان الرومانيين قد اعتادوا منظر الافيال فلم ترعهم البتة بل كانوا يقطعون خراطيمها بسيوفهم او يرمونها بسهام مشتعلة فكانت تنفر مذعورة وترتدّ الى الوراء فتدوس الايربين . ولم يستطع بيرس الثبات في ذلك النهار امام اعدائهِ بل ولى هارباً وترك معسكرهُ غنيمة للرومانيين وبعد ان أقام بضعة ايام في ترنتوم غادرها ورحل سنة ٢٧٤ ق . م الى أيبرس ولما كان هذا الملك لا يرتاح الى السلام ولا يعرف راحة بغير الحروب والاتعــاب بادر سنة ٢٧١ ق . م الى محاصرة ارغوس في بلاد اليونان وكاد يستولي عليها لو لم يخر صريعاً بحجر رمتهُ بهِ احدى النسآء من سطح بيتها

واخضع الرومانيون ترنتوم سنة ٢٧١ ق . م وحاربوا الامم الباقية التي حازبت بيرس او جاهرت بالعدوان فاذلوها واستولوا على مدائنها وهكذا امتدت سلطتهم على شعوب ايطاليا كافة واصبحت رومية ام المدائن حقيقة وعاصمة تلك البلاد

الباب الرابع

من ابتدآء الحرب القرطجنية الاولى سنة ٢٦٤
الى انتهآء الحرب الثانية سنة ٢٠١ ق ٠ م
او
من سنة ٤٨٩ الى سنة ٥٥٣ ب ٠ ر

توطئة

ان ما فاه به بيرس عند رحيلهِ من سيسيليا سيتم قريبًا لان هذه الجزيرة ستصبح عن قليل ساحة لقتال الرومانيين والقرطجنيين وستحدث فيها حروب مهولة وشهيرة في تاريخ الانسان اما الامير الابيري فلم يقل ما قالهُ بوحي والهام ولكنهُ رأى هاتين الامتين آخذتين في افتتاح المدائن والبلدان بسرعة عظيمة ونتقار بان كل سنة اكثر فاكثر فلم يعسر عليهِ الجزم انهما ستتعاديان ولما كان موقنًا ان الرومانيين سيخضعون ايطاليا قبل ان يتسنى للقرطجنيين الاستيلآء على سيسيليا علم ان الجزيرة المذكورة ستكون داعيًا الى النزاع وشبوب نار حرب لا تهمد الا باذلال احد الفريقين واننا نذكر فيما ياتي من الكلام سبب هذه الفتنة الكبرى الناتج بلا ريب عن انقسام الجزريين وتضعضع احوالهم مع الالماع الى تاريخ عدوة رومية فكاهة للقرآء وتتمة للفائدة فنقول ان اغاتوكلس ملك سيراكوزا استاجر ايام ملكهِ عددًا عديدًا من الكامبنيين الذين دُعوا مامرتنيين واستخدمهم عساكر واعوانًا لهُ ولما مات هذا الامير لم يحفل السيراكوزيون بالمامرتنيين المذكورين بل

ساموهم خسفًا فرحل هولآء الى مسينيا وحلوا فيها ضيوفًا مكرمين الا انهم خانوا الاهلين فذبحوا قسماً منهم وطردوا الباقين واستولوا على املاكهم وزنوا بنسآئهم وحينا اتي بيرس ايطاليا اوجس سكان ريجيوم خوفًا منهُ واشفقوا على انفسهم من القرطجنيين فطلبوا الى مجلس رومية ان يمدهم بالجنود فارسل اليهم المجلس جيشًا جهزهُ من كامبنيا فمشى هولاء الكامبنيون باديً بدء على سنن العدل والانصاف طائعين أوامر قوادهم غير انهم لم يلبثوا زمنًا طويلاً حتى فسدت اخلاقهم لكثرة ملاهي المدينة ووفرة اسباب التنعم والترف فابطرتهم النعمة وعاملوا سكان ريجيوم بقساوة بربرية كما عامل اخوانهم المامرتنيون اهالي مسينيا

ولم يقدر الرومانيون حينئذٍ ان يقاصوا هذه الفئة العاصية الطاغية جزآء لما على ما جنتهُ من سوء الفعال وشر المساوىء لاشتغالهم بحرب بيرس وحلفائهِ فلما خلا لهم الجو ورحل بيرس من البلاد مدحورًا ارسلوا كتيبة الى ريجيوم وحاصروها واستولوا عليها عنوة وقتلوا مَنْ قتلوهُ من اولئك العصاة وقادوا الباقين الى رومية مكبلين بالسلاسل وبعد ان جلدوهم جلدًا عنيفًا ادمى منهم الابدان ضربوا اعناقهم وارجعوا سكان ريجيوم الاولين الى وطنهم وردوا عليهم عقارتهم وما فقدوهُ

واغار أيرون ملك سيراكوزا بعد ستة اعوام على المامرتنيين فاذاقهم حربًا تشيب الاطفال فولوا منهزمين الى مدينتهم مذعورين وباتوا بها حائرين في امرهم لا يدرون ما يفعلون فاستصرخ بعضهم القرطجنيين وسلم اليهم القلعة وارسل بعضهم سفرآء الى رومية يطلب امدادًا فنظر الرومانيون الى هذا الامر نظرة عادل حكيم لانهم عرفوا ما دون اسعاف هولآء الطغام من الاهانة والعار كيف لا وهم الاولى قد اماتوا عساكرهم الكامبنيين الذين اعتدوا على اهل ريجيوم شر ميتة وجعلوهم عبرة للبشر ليتادب الطاغي ويعدل القوم الظالمون لكنهم راوا القرطجنيين قد ملكوا

قسماً كبيرًا مخصبًا من افريقيا واستولوا على جزء من اسبانيا وفتحوا سردينيا وجزر ايطاليا وامتدت سلطتهم على مدن كثيرة في سيسيليا فعلموا علم اليقين انهم ان لم يبادروا الى قتالهم يملكوا قريبًا مسينيا وسيراكوزا وسائر مدن هذه الجزيرة العظيمة فتصبح ايطاليا وسكانها في خطر عظيم منهم فقرّر المجلس ارسال الجيش لمحاربتهم وسلم قيادته الى القنصل ابيوس . قيل ان ابيوس هذا لكي يتجسس احوال الاعداء ويكون على بصيرة في قتالهم ذهب الى مسينيا وحدهُ وتولى قيادة الجيش المامرتيني وحارب القرطجنيين واكرههم على تسليم القلعة ثم رجع الى ايطاليا واخذ في الاستعداد ليجتاز وجنودهُ الى سيسيليا كما سياتي بيان ذلك في الفصل الاول من هذا الباب

قرطجنة

قال المؤرخون ان اليسا الاميرة الصورية المعروفة بديدو تزوجت خالها او عمها اسرباس المشهور وقتئذٍ بالثروة في تلك البلاد وكان اخوها بيغماليون ملك صور طمعًا بخيلاً فقتل اسرباس ليستولي على أموالهِ الوافرة اما ديدو فلم تمكنهُ من ذلك بل جمعت تلك الاموال ورحلت مع كثيرين من اصدقائها وتابعيها الى ساحل افريقيا بين تونس واتيكا (الان ابو شاطر) وابتاعت قطعة ارض من الوطنيين وبنت فيها دسكرة دعتها بيرسا سكنت بها هي ومن تبعها ثم بنت بعد ذلك مدينة قرطجنة المدعوة قرطادو باللسان الفنيقي اي المدينة الجديدة وكان القرطجنيون الاولون يحبون السلام ولا يميلون لغير التجارة وحشد الاموال وكانوا ينقدون الوطنيين كل سنة مقدارًا معلومًا من الدراهم كجزية او اجرة الاراضي التي اخذوها منهم الا انهُ لما قويت شوكتهم وكثر مالهم انفوا من ذلك ورفضوا

دفع الجزية المفروضة عليهم فحاربوا الوطنيين واخضعوا كثيرين منهم ثم سرت فيهم روح الافتتاح ومحبة الغزوات فاستولوا على الجزر القريبة منهم وفتحوا مالطة وغيرها وارسلوا من مدينتهم أقوامًا يستعمرون سواحل افريقية من اعمدة اركيلس (بوغاز جبل طارق) الى جون سيرتس الكبير (في اراضي طرابلس الغرب) وما زالوا ناجحين في اعمالهم آمنين حتى دهمهم الرومانيون في سيسيليا ونشبت الحرب القرطجنية الاولى التي اضرم نارها الحسد والطمع

الفصل الاول

وعلم القرطجنيون باستيلاء اعدائهم على قلعة مسينيا فغضبوا وهاجوا هيجانًا عظيماً وامروا في الحال بصلب القائد وارسال جيوش جديدة واسطول منيع ليحاصروا مسينيا برًا وبحرًا وحالفهم في ذلك الحين أيرون ملك سيراكوزا وزحف بجنوده لمساعدتهم ومحاربة المامرتنيين شفاء لغليله وانتقامًا من هذه الفئة العاتية الطاغية

واتى اذ ذاك أبيوس القائد الروماني بعساكره واحتل مدينة رجيوم ليجتاز منها الى مسينيا وينتصر لاهلها غير انهُ رأى دون ذلك خرط القتاد كيف لا وسفن القرطجنيين قائمة له بالمرصاد لترقب حركاتهِ وتفتك بهِ متى ركب البحر واصبح في قبضتهم لانهم كانوا ملوك البحار لا يغلبون ولا يجارون في ميدانها فارتدّ الى الوراء كانهُ راجع الى رومية فاغتر القرطجنيون بحيلتهِ وابتعدوا عن ذلك المكان فتربص أبيوس قليلاً حتى اذا كانت ليلة حالكة الاديم ركب ومن معهُ السفن التي أعدها لهم الترنتيون وغيرهم واحتلوا مسينيا آمنين

ولم ترع أبيوس كثرة عدد الاعداءِ ووفرة عددهم بل خرج بجنوده وقاتل أيرون ملك سيراكوزا فكسرهُ وبدد شمل عساكره وجمع الاسلاب ورجع الى المدينة غانمًا ظافرًا وكأَن أيرون قد فطن الى ارتكابهِ الشطط بمساعدتهِ القرطجنيين على اهل بلاده وتمهيده بذلك لهم سبل اخضاعهِ واذلال السيسيليين كافة فارتد الى مدينتهِ واقام فيها صابرًا ليرى ما يكون

ونشط أبيوس بعد هذه النصرة الى الكر والكفاح فتقدم حالاً الى معسكر القرطجنيين ودهمهم بغتة ففتك بهم فتكًا ذريعًا والجأَهم الى الفرار ثم جال في البلاد وغزا مدنها واتى سيراكوزا والقى عليها الحصار وامدَّ الرومانيون اذ ذاك جنودهم في سيسيليا بفرق جديدة فتعزَّزت شوكتهم وزادت قوتهم هناك ففتحت لهم مدن كثيرة ابوابها وسلمت اليهم حصونها رغبة في محالفتهم ورأَى أيرون ان محالفة الرومانيين اجدى لهُ نفعًا من محالفة القرطجنيين فخابرهم في ذلك وعاهدهم عهدًا صادقًا لم يحل عنهُ حتى الممات وكان هذا الملك محبًا لرعاياه وراغبًا في نفعهم فعاش محبوبًا ومكرمًا من الجميع

وجرت بعد ذلك بين القرطجنيين والرومانيين عدة معامع لا سيما بالقرب من مدينة اكرجنتوم حيث كان القرطجنيون مجتمعين وكان الظفر خاضعًا للوآءِ الامة الرومانية فانتصرت على اعدائها واستولت سنة ٢٦١ ق.م على مدينة اكرجنتوم المذكورة فاذلت أهلها وسلبتهم اموالهم

ولما كانت قرطجنة سلطانة البحار لم يمكن الرومانيين الاستيلآءِ على جميع سيسيليا لان المدن البحرية أبت الخضوع لهم خوفًا من أعدائهم القرطجنيين وعلمت رومية انهُ لا يستتب لها الامر الا ببناءِ سفن حربية تحاكي عدوتها وتمنع هجماتها على سواحلها متى سنحت لها الفرصة ولكن أَنى لها ذلك وهي لا تعرف من تلك الفنون الدقيقة شيئًا

وحدث ان سفينة قرطجنية صغيرة قذفتها الامواج الى البر فاخذها

الرومانيون مثالاً لبناء سفنهم الحربية واقبلوا على العمل بحذاقة وثبات ونشاط فانجزوا في مدى شهرين مائة وعشرين سفينة التي وان تكن بطيئة الحركة في سيرها لجهل او عدم خبرة صانعيها فهي تشهد بذكاء هذه الامة وعلو مداركها وتظهر لنا جليًا ما للاجتهاد والثبات من المنفعة في اعمال البشر

ولما كان الرومانيون لا يمكنهم مجاراة اعدائهم بمراكبهم هذه استنبطوا آلة دعوها الغراب وهي اشبه بجسر يلقونهُ في سفن القرطجنيين ويمرون عليهِ ليكافحوهم وينازلوهم في مراكبهم كأنهم وهم فوق لجج البحار خائضون عجاج الحرب في سهل عظيم ولقد افادهم هذا الاستنباط فوق ما كانوا يأملون لان القرطجنيين لم يبالوا بهم ولم يعلموا بما دبروهُ فهجموا عليهم سنة ٢٥٩ ق . م باحتقار وبلا ترتيب فبادر اليهم الرومانيون بآلاتهم وامسكوهم بها كي لا يمكنهم الفرار ثم انقضوا عليهم انقضاض الصواعق فقتلوا منهم عددًا عديدًا واستولوا على بعض سفنهم واغرقوا البعض ولم يفلت من ايديهم سوى نزر رأى العبرة في غيره فاعتبر وولى هاربًا فرارًا من الموت الزؤام اما دوبليوس امير المراكب الرومانية فاحتفل بنصرتهِ هذه ببهجة لم يرَ قط مثلها في الاعصر السالفة ومنح حقوقًا وحاز انعامات لم ينلها قط قائد قبلاً واقيم لهُ في الفورم تذكارًا لغلبتهِ عمود رخامي ابيض نقش عليهِ صورة مقدَّم سفينة وكتابات اخرى فكان كل ذلك دليلاً بينًا على سرورهم العظيم بانتصار لم يكن مأمولاً واستولوا بعد هذا على جزيرتي كورسيكا وسردينيا وقهروا القرطجنيين في عدة مواقع بحرية وكان الظفر تابعًا للوائهم حيثما ذهبوا واينما حلوا

وفي سنة ٢٥٥ ق . م كان رغولس احد القنصلين قائدًا للجيوش البرّية والبحرية فبعد ان انتصر مرارًا على القرطجنيين أُمر بالذهاب الى افريقيا لمحاربتهم في بلادهم . قيل ان القنصل لما بلغهُ هذا الامر تكدر جدًا وكتب الى المجلس يقول انهُ عند وفاة مزارعهِ قد فوض امر قطعة ارضهِ

الصغيرة الى أجيرٍ يظنهُ استلب آلات الزراعة والبذار وعليهِ فحضورهُ واجب لينظر في أمر القيام باود امرأتهِ واولاده فقرر المجلس حينئذٍ تعويضهُ مما خسرهُ والاعتناء بارضهِ وتقديم النفقات اللازمة لعائلتهِ من الخزينة العمومية فاطمأنَّ لذلك بالهُ وذهب الى البلاد الافريقية فاستولى على مدن كثيرة منها وكسر الجيوش القرطجنية بالقرب من مدينة قادس ثم زحف الى تونس وملكها واخذ يضايق القرطجنيين

روي ان رغولس اذ كان سائرًا في البلاد الافريقية اتى وعسكر على ضفات نهر باغرداس (الان نهر المجردة) الذي يصب في البحر بالقرب من قرطجنة فلقي ثعبانًا طولهُ مائة وعشرون قدمًا كان يبتلع الرجال عند مجيئهم الى النهر ليستقوا وكانت حراشف هذا الثعبان ثخينة جدًّا حتى ان السهام لم تكن تؤثر فيها فبنوا الحواجز والمناريس وشرعوا في محاربتهِ كأنهم يحاصرون حصنًا حصينًا فقتلوهُ وبعثوا بجلده الى رومية ولقد اسهب بعضهم في الكلام عنهُ وحكى نوادر يصعب تصديقها والمظنون ان هذا الحيوان تمساح عظيم جدًّا وحيث ان الرومانيين لم يعرفوا وقتئذٍ التماسيح ولم يروها قط حسبوهُ ثعبانًا وبالغوا في وصفهِ لغرابتهِ

ونظر القرطجنيون الى انكسارهم وضعفهم وتضعضع احوالهم فارسلوا رسلاً الى رغولس يسألونهُ السلام وكان رغولس قد ابطرهُ الانتصار فاحتقر اعداءهُ وطلب لعقد الصلح شروطًا تذلهم وتذهب بهم الى دركات الضعة والخمول وقال لهم من الواجب على الانسان ان يقهر عدوَّهُ او يخضع لاحكامهِ بطاعة عمياء فانف القرطجنيون من ذلك الطلب وعولوا على ركوب متن الاخطار واقتحام الاهوال لانهم رأوا شرب كاس الحمام في ساحة القتال أهون من الذل بعد الافتخار

وأحضر القرطجنيون في ذلك الاوان عساكر يونانية من سبرطا وكان كزانتيبس قائد هذه العساكر رجلاً خبيرًا بالفنون الحربية فعلّم القرطجنيين

نظاماً جديداً وخرج بهم و بجيشهِ لمحاربة الرومانيين فنشب القتال وكان رغولس قد احتقر الاعداء فلم يكترث لهم وهجم عليهم برجالهِ مطمئناً كساعٍ لادراك المفاخر والمنى فانكسر امامهم ووقع أسيراً في يدهم وقتل القرطجنيون في ذلك النهار من جنوده عدداً عديداً فسقوط رغولس يعلمنا الاتضاع ووجوب الاحتراس أبَّان النجاح من غدر الدهر وصروف الزمان لئلا يذهب بنا الصلف الى حيث لا نرغب وبنجاح القرطجنيين يظهر لنا صحة ما قالهُ احد الحكماء ان رجلاً عاقلاً افضل من جهالٍ كثيرين وان القائد الخبير اذا لم يحترس من الدهر يصبح كواقف على شفا جرفٍ هارٍ ويكون سقوطهُ لا محالة قريب

ومضت سنوات لم يحدث فيها سوى وقعتين مهمتين نال الرومانيين في كلتيهما الظفر احداهما وقعة بحريـــة جرت سنة ٢٥٩ ق . م بالقرب من راس مركوري (الان راس الدار) خسر فيها القرطجنيون مائة واربع عشرة سفينة والاخرى جرت سنة ٢٤٩ ق . م في اراضي بانورمس (الان بالرمو) قتل فيها قسم عظيم من الجنود القرطجنية في سيسيليا وأُسر منها أيضاً رجالٌ كثيرون فعادت لذلك روح الشجاعة والحمية الى صدور الرومانيين وعولوا على تجهيز جيوش جديدة لانهاء حرب دموية قد شب سعيرها من زمان طويل

وفي سنة ٢٤٩ ق . م ارسل القرطجنيون الى رومية رغولس ليتوسط لهم الصلح او مبادلة الاسراء وحلفوهُ يميناً ان يعود الى قرطجنة اذا اخفق مسعاهُ لدى المجلس الرومانيّ واصحبوهُ بسفراء ليبلغوا هذه الرسالة ويكونوا شهوداً على صدق مخابراته ولما وصلوا الى رومية ابى رغولس ان يدخل اليها قائلاً انهُ خسر حقوقهُ الوطنية لكونهِ عبد دولةٍ أجنبية وانهُ لم يأتِ ليخالف قوانين وعوائد بلاده المانعة المجلس عن مواجهة الغرباء داخل الاسوار وجاءت اليهِ امرأتهُ واولادهُ ليشاهدوهُ فلم يحفل بهم ولم ينظر اليهم بل أطرق اطراق

مستحيٍ من عبوديتهِ وغير اهل للاكرام فاجتمع الآباء خارج المدينة وامروا الرسل بعرض حاجتهم ثم تذاكروا مليًا وسألوا رغولس عن رأيهِ في هذا الامر فاجابهم ايها الآباء انني عبد قرطجنيٌّ قد أرسلني مواليَّ لاخابركم بشان الصلح او مبادلة الاسراء فالحّ عليهِ المجلس بان يقول بحرية ما يرتئيهِ فاجابهم أيها الرومانيون انني موقن بمللكم من هذه الحرب التي تجشمتم لاجلها مشقات عظيمة فاعتصموا بالثبات لان الثبات واجب لدى النوازل الجلى واعلموا ان القرطجنيين في ضيق عظيم اذ شتان بين حالتكم وحالتهم فالنصر كان في الغالب معقودًا بلوائكم وجزيرة سيسيليا ما خلا مدينتين منها هي ملك لكم وسفنكم العديدة تمخر البحار وتلقي الرعب في قلوب من ناوأكم وان أمركم لمطاع حيثما تملكون وحلفاؤكم يتبارون في خدمتكم متفاخرين اما قرطجنة فقد نفد مالها ولا نأمن حلفاءها كثيرًا واذا نظرتم الى جيوشكم ترونها مؤلفة من رجال امة واحدة تربطها عرى المحبة والوطنية اما جيوش قرطجنة فمؤلفة من رجال غرباء قد تجندوا طمعًا في المال وبناء عليهِ لا اوافقكم البتة في مهادنة اعدائنا ولا ارى مبادلتهم الاسراء رأيًا سديدًا لانهُ يوجد عندكم في الاسر ثلثة عشر قائدًا فتيًا قادرون على محاربتكم متى سنحت الفرصة أما هم فلم يأسروا قائدًا غيري وانني الان قد شخت فلا تأملوا مني نفعًا والاسراء القرطجنيون الباقون لاكثر جدًّا من اسرائنا فاذا بادلناهم نكون نحن الخاسرين

فقرر المجلس ما ارتآهُ هذا الشهم الشجاع ورد رسل القرطجنيين خائبين الاَّ انهُ سمح لرغولس ان يبقى في رومية اذا اراد لان يمينهُ فاسدة لكونهِ اكره على حلفها اما هو فلم يبالِ او بالحري لم يرد ان يبالي بتوسلات اصدقائهِ ونحيب امرأتهِ واولاده بل رجع الى قرطجنة غير جاهل العذاب المعدّ لهُ هناك وهكذا آثر هذا البطل العظيم ان يتجرع الموت الزؤام على ان يحنث بيمينهِ ولما وصل الى قرطجنة وعلم القرطجنيون بما قال وفعل في رومية حكموا

عليهِ بعذابات تقشعر منها الابدان ثم اماتوهُ صلبًا

واهاج موت رغولس دواعي البغض والشحناء في قلوب الرومانيين فاثاروا على القرطجنيين في الجهة الغربية من سيسيليا حربًا عوانًا دامت تسعة اعوام قُهروا فيها مرارًا الاّ انهم انتصروا اخيرًا على اعدائهم واستولوا على مدينة ليليبوم (الان مارسالا) وهي أحصن مدينة في تلك البلاد وحطموا سفنهم الحربية سنة ٢٤١ ق . م بالقرب من جزر أغانس واكرهوهم على طلب السلام فعُقد الصلح سنة ٢٤٠ ق . م وبناء عليهِ تكون مدة الحرب القرطجنية الاولى اربعًا وعشرين سنة اما الشروط التي اتفقت عليها الامتان فهي هذه

اولاً يجب على القرطجنيين ان يخلوا كل بلاد سيسيليا والجزر المجاورة لها

ثانيًا يلزمهم تسليم الاسراء الرومانيين بلا فداء

ثالثًا ينقدون الرومانيين بمدى عشر سنوات ثلثة آلاف زنة فضة

رابعًا لا يمكنهم محاربة الملك أيرون ولا احدًا من حلفاء رومية ولا يمكن الرومانيين ايضًا الاعتداء على حلفاء قرطجنة

خامسًا لا يمكن احد الفريقين المتعاهدين بناء حصن في اراضي الآخر ولا تجهيز عسكر من البلاد الخاضعة لهُ

سادسًا لا يمكن احدًا منهما ايضًا ان يتحد مع حلفاء الآخر

وجعلت جزيرة سيسيليا ما عدا سيراكوزا ولاية رومانية اي انهُ يحكمها والٍ روماني يغير في كل سنة وتكون خاضعة لقوانين وشرائع رومية وأُرسل اليها خازن لجباية المكوس التي فرضت على الاهلين وكانت هذه المكوس على نوعين اما مقررة وهي مقدار معين من الدراهم ينقدونهُ للخزينة كل عام نظير جزية وغير مقررة وهي عشور الغلال والرسوم المأخوذة على البضائع الصادرة والواردة

الفصل الثاني

ان بخل وطمع القرطجنيين الذين اعتادوا تفضيل الدراهم على كل شيء في العالم أثارا عليهم فتنة كبرى وحربًا عوانًا ذاقوا من هولها عذاب السعير وذلك انهم رفضوا تأدية اجرة الجنود التي استأجرها لمحاربة الرومانيين او بالحري ارادوا تخفيض تلك الاجرة غير عالمين ان دون ذلك خرط القتاد لانهُ كيف يمكن رجالاً غرباء قد اقدموا على سفك دمائهم للانتصار لهم رغبة في المال ينصرفون عنهم بسلام اذا لم ينقدوا اجرتهم المعينة بالتمام واي انسان عادل يستحل صرف جنودٍ قد خاطرت بحياتها في خدمته ولا يعطيها مكافاة على تلك الخدمات او من يا ترى يستطيع ان يهتضم حقوق قوم لا يمكنهُ قتالهم ولقد ارتكب القرطجنيون في هذا الامر غلطًا فادحًا بان سمحوا لاولئك الغرباء في الاجتماع خارج المدينة وبارسال اولادهم ونسائهم اليهم لانهُ كان أجدر بهم ان يفرقوهم ليضعفوهم وان يقبضوا على اولادهم ونسائهم كرهائن لاكراههم على الطاعة والانقياد لاوامرهم وان تكن ظالمة

ولما رأى هولاء الغرباء ما آل امرهم اليهِ هجموا على المدينة وحاربوها ونهض لمساعدتهم النومديون (سكان جزائر الغرب) الذين ثاروا وقتئذٍ في طلب الحرية فدامت الحرب ثلث سنوات واربعة اشهر ولم تنتهِ الاَّ على يد أملكار القائد القرطجنيّ الذي احاط بالاعداء احاطة الاسورة بالمعاصم فمنع القوت والامداد من الوصول اليهم فمات بعضهم جوعًا و بعضهم قتلاً وأُسر الباقون وصلبوا ودعيت هذه الحرب الحرب غير المغتفرة لسبب الفظائع التي جرت والقساوة البربرية التي أظهرها الفريقان المتحاربان

ويلوح ان الرومانيين لم يفرحوا بضيق اهالي قرطجنة من جراء هذه

الفتنة ولم يسعوا في زيادة ضعف هذه المدينة الشهيرة ليعلوا بخرابها صرح مجدهم بل حافظوا على شروط العهدة وساعدوها مرارًا كاصدقاء وخلوا سبيل رجالها الذين اسروهم في الحرب السيسيلية وسمحوا للتجار الرومانيين ان يمدوها بما يعوزها وقطعوا صلاتهم الحبية والتجارية مع اعدائها وحدث ان شعب اتيكا (ابي شاطر) عصى القرطجنيين وطلب تسليم المدينة الى الرومانيين فرفض هولاء الاستيلاء عليها وكان العساكر المستأجرون في جزيرة سردينيا قد ثاروا على الحكومة المحلية وارادوا ان يملكوها الرومانيين فابوا ذلك مراعاة للعهدة وخوفًا من الخيانة على اننا اذا تأملنا في افعال الرومانيين بعد هذا الحادثة نرى وراء ما اظهروهُ من الصداقة حكمة واطماعًا لانهم نظروا الى قرطجنة نظرة عاقل بصير وعلموا ان هذه الدولة العظيمة متوقف نجاحها وخرابها على قائدها أملكار الفريد الذي لو سقط في ايدي العصاة لاصبحت بلادهُ في موقف حرج والجأتها الاحوال الى الخضوع لرومية فرارًا من شر محاربيها الطغام فتربصوا قليلاً ليروا ما يكون ويكتسبوا محبة القرطجنيين باللطف والاحسان اليهم الاَّ انهُ لما انتهى القتال وخرجت قرطجنة منهُ ظافرة وعمدت الى استرجاع سردينيا زاحت رومية برقع الصداقة وارسلت احد قنصليها ليستولي على الجزيرة المذكورة ويحارب القرطجنيين محتجة انهم اخذون في الاستعداد لقتالها فنالت ما رغبت فيهِ وتركت عدوتها حاقدة عليها ابدًا ولم تنصرف عنها الاَّ بعد ان اخذت منها الفًا ومائتين زنة فضة قيل ان ذلك كان من اعظم الاسباب التي اثارت الحرب القرطجنية الثانية وولدت في قلب أنيبال بغض الرومانيين ورغبتهُ في الانتقام منهم

وكان ملك البلاد الايلرية الواقعة الى الجهة الغربية من مكدونية ولدًا قاصرًا فتولت امهُ توتيا الاحكام بالنيابة عنهُ وكانت هذه المرأة عاتية جاهلة فلم تصرف همها في تحسين ادارة مملكتها بل جهدت في تعليم شعبها

السرقة وكانت مراكبها تجول في البحر لتعتدي على المسافرين وتنهب ما يمكنها نهبهُ فاغتاظ الرومانيون من هذه الافعال وارسلوا اليها سفيرين يسألانها تأديب القرصان ومنع رعاياها عن اجراء تلك الاعمال المنكرة فاجابتهما انها ستبذل ما في وسعها لاجتناب الاضرار التي تلحق الرومانيين ولكنها لا تستطيع ان تحظر على قومها الجولان في البحار للكسب وطلب المعاش فقال لها احد السفيرين ان الرومانيين قد اعتادوا الانتقام من اية امة كانت لذنب يقترفهُ بعض رجالها وسيمكنهم بحول الآلهة ان يؤدبوا المعتدين وان يصلحوا هذا الخلل فحنقت الملكة من كلامهِ وامرت بذبح الرسولين عند رجوعهما الى الاوطان ولما بلغ رومية خبر قتلهما هاج الشعب هيجانًا عظيما وجهز المجلس مائتي سفينة حربية وعشرين الف جندي لمحاربة الايلريين وخرب السواحل اليونانية فسار القنصلان بالمراكب والجيش واحتلا مدينة كبيرة اسمها ابولّونيا وهي مفتاح البلاد الايلرية من جهة مكدونية ثم تقدما وافتتحا عدة مدن اخرى بعد ما قبضا على القرصان وادّبا المعتدين سنة ٢٢٨ ق.م وابرما صلحًا مع الملكة بشروط منها انها تنقد الرومانيين جزية معلومة في كل سنة وانها تسلم اليهم كل البلاد ما خلا بعض مدن تبقى للملك القاصر الذي اقيم وصيًّا عليهِ القائد ديمتريوس من جزيرة فاروس في بحر الادرياتيك

وكانت رومية منهمكة بعد ذلك في محاربة الغاليين كما ستعلم فظن ديمتريوس ان الاوان قد آن لخلع نير هذه الامة وتوسيع نطاق المملكة فنقض العهود واعتدى على حلفاء الرومانيين وجهز سفنًا ارسلها لغزو جزائر الارخبيل وحصن مدينة ديمالوم في ايلريا وجمع جنودًا عديدة في جزيرة فاروس فحاربهُ القنصلان ليفيوس واميليوس سنة ٢١٨ ق.م واستوليا على ديماليوم بعد حصار سبعة ايام ثم تقدما الى فاروس وافتتحاها بحيلة فخضعت لهما جميع البلاد الّا انهما لم يضيفاها الى املاك الجمهورية شفقة على الملك

القاصر لان ما حدث اولاً وثانياً كان ناتجاً عن اطماع وجهل وصيبو
وقبل انتهاء الحرب الايلرية الاولى سنة ٢٢٦ اخذ الغاليون القاطنون بالقرب من نهر بو يتقدمون الى أراضي الجمهورية فجزع الرومانيون من هولاء الاقوام الذين خربوا بلادهم سابقاً وكادوا يجعلونهم في عداد الامم البائدة وكان الشعب يزعم في ذلك الحين ان الغاليين واليونانيين سيستولون يوماً على رومية كما انبأت بذلك السحرة فاعلن الكهنة لمن النبوة تتم بدفن رجل وامرأة غاليين ورجل وامرأة يونانيين احياء في شوارع المدينة ففعل الجمهور هذا الفعل البربري الشنيع واطمأن لظنه ان الغاليين واليونانيين قد افتتحوا بهذا الامر حقيقة اراضي رومية كما اشارت كتب المشعوذين فتمت النبوة التي كان يخشاها ولم يمسسه ضرر البتة فلا ريب ان الجهل داء عضال وسم قاتل للانسان يستعبده لسلطان الخرافات ويقوده بسلاسل الاوهام

وجهز القنصلان سنة ٢٢٥ ق.م عساكر وفرساناً من الرومانيين والامم الخاضعة لهم وتقدما لمحاربة الغاليين فلقياهم عند راس تلامون على بعد ثلاثة ايام من رومية فنشب القتال وكان مهولاً اما الجنود الرومانية فاستظهرت أخيراً على اعدائها لسبب نظامها المتقن وسلاحها الماضي وقتلت منهم اربعين الف رجل واستولى الرومانيون على جميع البلاد الواقعة الى جهة الغربية من بو ثم عبروا هذا النهر واحتلوا مدينة ميلان عاصمة الانسبريين سنة ٢٢٢ ق.م وفي سنة ٢٢٢ ق.م غلب القنصل مارسلوس الغاليين انقاطنين جبال الالب فامتدت سلطة الجمهورية على جميع ايطاليا الشمالية

الفصل الثالث

في الحرب القرطجنية الثانية

او حرب انيبال

قد مرّت الان على قرطجنة مدة اثنين وعشرين عاماً بعد خضوعها لاحكام الجمهورية الرومانية وتوقيعها على اثر الحرب الاولى عهدة سلبت حقوقها واذلتها بين الملا فاورثها ذلك حقداً لا يزيلهُ سوى الانتقام وولد في قلبها داء لا دواء لهُ الا سفك دم عدوتها القادرة وتقويض صرح مجدها الشاهق وكان قائدها اميلكار الشهير يود دوام الحرب ليخوض عجاج القتال ويشرب كاس المات او يرجع غانماً ظافراً غير انهُ حال دون بغيتهِ احوالٌ الجأتهُ الى الاذعان لينقذ جنودهُ من الهلاك فرضخ لاحكام الغالبين وعاد الى وطنهِ لاهجاً باخذ الثار وفاكراً بالوسائل اللازمة للنجاح وعلم ان هذا الامر لا يتم الا بتقوية شوكة القرطجنيين فسعى في الاستيلاء على اسبانيا وهي بلاد كثيرة المعادن ومخصبة جداً ففتح قسماً منها ونظم من اهلها جيوشاً يمكنها لقاء الايطاليين في ساحات الحرب والطعان ومما يدلنا على بغض املكار الشديد للرومانيين وارتياحهِ للانتقام منهم هو انهُ قبل ذهابهِ لاسبانيا ذبح ذبيحة لجوبيتر وخلا مع ابنهِ أنيبال الذي كان عمرهُ وقتئذٍ تسع سنوات وقال لهُ انهُ يرغب ان يستصحبهُ في هذه الحملة فسرّ الولد جداً وطلب اليهِ بالحاح الا يحول عن هذا الوعد ثم قاد اميلكار ابنهُ الى المذبح ووضع يدهُ عليهِ وحلفهُ ان يبغض الرومانيين ويجهد في اخذ الثار ما دام حيا

ومات اميلكار باسبانيا سنة ٢٢٩ ق . م وخلفهُ في قيادة الجيش اسدربال

امير المراكب البحرية فمدّ هذا القائد الحكيم سلطة القرطجنيين في تلك البلاد وبنى مدينة قرطجنة الجديدة التي جعلها لسبب مركزها الحسن محلاً لاذخار السلاح والمهمات الحربية ومحدًا للجيوش الصادرة من افريقيا الواردة اليها

وهيج تقدم القائد القرطجني في صدور الرومانيين عوامل الخوف والحسد الا انهم لم يبدوا حراكًا لاشتغالهم بمقاتلة الغاليين فارسلوا اليهِ سفراء يتملقونهُ ليحملوه على عقد عهدة معهم يحظرون بها عليهِ شن الغارة على الشعوب القاطنة وراء الايبرس (الان نهر الأبرو) وما ذاك الا سبب يتذرعون بهِ لمقاتلة القرطجنيين فيما بعد لان رفض اسدر بال اجابة طلبهم او اجابتهُ طلبهم ونقضهُ العهد يكون عذرًا كافيًا لاثارة الفتن وشبوب نار حرب عظيمة ولم يكن اسدر بال اقل عداوة لهم من اميلكار ولكنهُ رأى بعد الحدود التي عينوها فلم يجد مانعًا من معاهدتهم ليخلو لهُ الجو ويتمكن من توطيد سلطتهِ هناك على ان هذه العهدة قد اشهرت اسم الرومانيين في ذلك القطر ومهدت لهم سبل نكاية اعدائهم لان الاسبانيين علموا بها علم اليقين ان الجمهورية الافريقية التي تحاربهم حربًا عوانًا لتستولي على بلادهم تخشى قوة وباس شعب آخر قادر فاستجار بعضهم بهِ وسعى في محالفتهِ وفي سنة ٢٢١ ق . م قتل اسدر بال رجلٌ غاليٌ فخلفهُ في الرئاسة وقيادة الجيش أنيبال بن اميلكار البطل الشهير

ولما استتب الامر لانيبال واصبح الآمر الناهي تقدم لمحاربة الاولكديين فظفر بهم ثم جمع الاسلاب وسار الى مدينة قرطجنة الجديدة حيث صرف فصل الشتاء في التمرينات الحربية وتدريب الجنود والانعام عليهم فاحبهُ الجميع واراد كلٌ القتال تحت رايتهِ والخضوع لاوامره بطاعة عمياء ولو اذاقهُ ذلك الخضوع عذابًا اليمًا وجرعهُ كاس الحمام . ولم يزل أنيبال مغالبًا غالبًا حتى أخضع كل البلاد الواقعة وراء نهر ايبرس وهمَّ بالاعتداء على

بعض الشعوب المحالفة رومية كالساغونتنيين الساكنين في الجهة الجنوبية من النهر فارسل اليهِ الرومانيون سفراءَ يذكرونهُ بالعهدة التي وقعها اسدربال لئلا يقاتل احداً من حلفائهم او يعبر النهر فلم يكترث أنيبال لهم ولم يبالِ بتهديداتهم واجابهم قائلاً ان الفتنة التي حدثت قبلاً في ساغونتوم لم يفصلها الرومانيون بانصاف بل قتلوا بعض الرؤساء ظلمًا وبناءً عليهِ اعلن انهُ يريد ان ينتصر للمظلومين ويعاقب الظالمين ثم صرف السفراء فذهبوا الى قرطجنة ولم يفوزوا من مجلسها بطائل

وكان أنيبال باذلاً جهدهُ في الاستيلاء على ساغونتوم لان خضوع هذه المدينة لهُ يضعف امل الرومانيين بالنجاح في محاربة القرطجنيين بالديار الاسبانية ويزيد خوف سكان تلك البلاد منهُ فيامن شرهم ويستطيع مداومة الحرب وشن الغارات غير مبالٍ باحد فتقدم بجيوشهِ وحاصرها ثمانية اشهر وافتتحها عنوة وقتل اهلها بحد السيف وترك العبيد والامتعة التي فيها غنيمة لعساكره اما الاموال والاشياء الثمينة فجمعها واتخذها عدة لحوادث الدهر

وبلغ رومية خبر خراب هذه المدينة العظيمة فهاج الشعب وحزن حزنًا شديداً واخذ في الاستعداد للقتال كأن الحرب على الابواب فجهز القنصل سمبرونيوس عشر بن الف راجل والفين ومائة فارس وعول على الذهاب الى سيسيليا ومنها الى افريقية لمحاربة اعداء الرومانيين في بلادهم وجهز القنصل كورنيليوس سيبيو اربعة عشر الف راجل والفًا وستمائة فارس وهمَّ بالتقدم الى حدود اسبانيا ليحارب أنيبال ويمنعهُ من الدخول الى ايطاليا

ولسنا ننكر على الرومانيين خوفهم من هذه الحرب كما يدل على ذلك استعدادهم وتجهيزاتهم لان القرطجنيين قد قويت شوكتهم بعد الذل والفشل وحازوا نصرات كثيرة وفتحوا مدائن عديدة وزادت جيوشهم بتجند الاسبانيين

الشجعان ولم يكن للجمهورية الرومانية قائد كانيبال خبير بضروب القتال وعليم بالفنون الحربية والخداع صبور على معظم الخطب لا يبالي بالاهوال والممات قد نشأ في ساحات الوغى وشاهد معامع تشيب الاطفال فشب بطلاً مغواراً وفارساً جسوراً لا يجارى في مضمار النصر والفخار وكانت جيوشهُ مثالاً للشجاعة والانقياد تحسب الظفر معقوداً بلواء قائدها فتتقدم على القتال بوجه طلق وقلب لا يعرف الجزع وتعود منهُ بالفوز والمنى

وقبل ان يجاهر الرومانيون بالعدوان ارسلوا سفراء الى قرطجنة يسالون مجلسها تسليم أنيبال واعوانهِ اليهم وامروهم باشهار الحرب ان ابى القرطجنيون اجابتهم الى ماطلبوهُ فاتى هولاء الرسل عاصمة الجمهورية الافريقية وعرضوا للمجلس ما يبتغون فاستغرب القرطجنيون طلبهم وانكروا عليهم تلك الحقوق فرفع فابيوس رئيس السفراء ثوبهُ وقال لهم قد اتيناكم طي هذا الثوب بالسلام والقتال فاختاروا منهما ما تشاءون أجابوهُ جميعاً اننا بما تختار راضون قال اني اطلب الحرب فكونوا لها مستعدين

وذهب السفراء بعد ذلك الى اسبانيا ليحالفوا امراء الولايات الواقعة الى الجهة الشمالية من نهر الابيرس او ليغروهم بان لا يساعدوا القرطجنيين فعاهدوا بعضاً منهم اما الباقون فاجابوهم قائلين كيف يمكننا محالفتكم وقد رأينا ما حل بالساغونتنيين الذين خنتموهم باهمالكم اياهم وان ما جرى لهم سيكون لا محالة انذاراً لساكني هذه الديار الا يصادقوكم ولا يغتروا بما تعدون فارتدوا من تلك الانحاء خائبين وذهبوا الى غاليا وسالوا رؤساءها الا يدعوا القرطجنيين يمرون في بلادهم ليدخلوا اراضي ايطاليا فسخروا منهم واستغربوا لانهُ كيف يدعون ديارهم عرضة للخراب وساحة للقتال ليصونوا بلاد أُناس غرباء . وما زال السفراء الرومانيون ينتقلون من مكان الى آخر وهم لا ينالون سوى الخيبة والفشل حتى وصلوا مرسيليا وعلموا هناك ان أنيبال قد حالفهُ الغاليون وغرهم بالذهب الرنان فرجعوا حينئذٍ الى

رومية مزودين بهذه الاخبار المكدرة

وكان أنيبال في هذه الاثناء مشتغلاً باصلاح احوال البلاد وتدبير ما يلزم لينال فوزًا مبينًا على العدى فسمح لعساكره الاسبانية ان تذهب الى منازلها وتقضي فصل الشتاء بالتنزه والسرور وان ترجع اليه في ابتداء الربيع وارسل الى افريقية لحمايتها جنودًا اسبانية واحضر الى اسبانيا جنودًا افريقية لاستتباب السلام فيها ومنع الاهلين من العصيان واقام اخاه اسدربال قائدًا لهذه الجيوش ووالياً مدة غيابه

وفي ابتداء الربيع من سنة ٢١٧ ق.م جمع أنيبال جيوشًا جرارة وزحف بها من قرطجنة الجديدة الى نهر الايبرس فعبره واخضع بعد معامع كثيرة الشعوب الساكنة بين النهر وجبال البيرينه ثم اجتاز هذه الجبال ودخل غاليا فاراد بعض الغاليين مقاتلته فصادقهم بالهدايا والاموال وما زال سائرًا بسلام وأمان حتى وصل الى ضفات نهر الرون فابتاع من سكان الضفة الغربية قوارب عديدة لنقل المهمات والجنود اما اهالي الجهة الاخرى فتجمعوا واستعدوا للقتال ليمنعوه من دخول بلادهم فصرف ثلثة ايام في مخابرتهم وتملقهم ليصادقوه غير ان اجتهادهُ في هذا الامر ذهب ادراج الرياح فارسل اخيرًا احد قواده سرًّا بفرقة من العساكر وامره ان يعبر النهر من مكان لا يراه منهُ الغاليون ففعل وهجم على خيام الاعداء وحرقها وابصر هولاء الخطر المحيط بهم من كل جانب فولوا منهزمين الى قراهم والدساكر

ولما بلغ الرومانيين ان أنيبال قد عبر نهر الايبرس ركب القنصل كورنيليوس سيبيو البحر واحتل مع جنوده مدينة مرسيليا فأُخبر هناك ان القائد القرطجني قد اجتاز جبال البيرينه فزحف اذ ذاك الى مصب الرون واقام ينتظر اعداءهُ في تلك الناحية وارسل ثلثمائة فارس ليتجسسوا الاخبار فلقيت هذه السرية خمسمائة فارس نوميدي بعث بهم انيبال ليستطلعوا احوال

العدى فنشبت الحرب بين الفريقين وكانت عوانًا وانتصر الرومانيون في ذلك النهار وكسروا اقرانهم ولحقوا بهم الى معسكرهم فراوا راى العين ما كانوا راغبين في معرفتهِ ورجعوا الى القنصل واخبروهُ بكل ما نظروا وسمعوا

وحينما وصل المنهزمون الى أنيبال واعلموهُ ما حدث امر هذا القائد جنودهُ بالرحيل حالاً لانهُ لم يرد مقاتلة الرومانيين خارج ايطاليا فمشى شمالاً ووصل بعد مسير اربعة ايام الى ارض اسمها الجزيرة لان نهر الرون ونهرًا آخر يصبان فيهِ يحيطان بها من جهتين ويجعلانها تشبه وادي النيل ولا فرق بينهما الا ان هذه يحدها من الجهة الثالثة جبال شامخة وحدود تلك البحر . ووجد أنيبال هناك اخوين يتنازعان الملك فاسعف احدهما وملّكهُ على البلاد ولا يخفى ما في عملهِ هذا من الحكمة والفائدة لان الملك الغالي الجديد شكره على احسانهِ اليهِ وقدم لهُ زادًا وسلاحًا وثيابًا ورافقهُ برجالهِ الى المكان الذي اراد ان يرتقي جبال الالب منهُ

أما ما كان من سيبيو القائد الروماني فحين رجوع السرية وعلمهِ بالمكان الذي عسكر فيهِ القرطجنيون أنزل عساكره من السفن واسرع للقائهم غير انهُ لم يصل الى هناك الا بعد رحيل انيبال ورجالهِ بثلثة ايام فعاد الى مراكبهِ وامر أخاهُ كنيوس بالذهاب مع قسم عظيم من الجنود لاثارة الحرب في الديار الاسبانية وقفل هو راجعًا الى ايطاليا ومرَّ في بلاد أتروريا ليقاتل الاعداء عند سفح جبال الالب

وابصر الجبليون القرطجنيين يرتقون الهضاب فتجمعوا في الاماكن العالية الوعرة واستعدوا للقائهم بالسيوف والرماح ورميهم عن بعدٍ بالسهام والحجارة فقلق أنيبال وتربص قليلاً ليرى ما يكون فاخبرهُ الادلاء الغاليون ان هولاء الاقوام لا يبيتون في مراكزهم هذه بل يغادرونها ليلاً ويذهبون الى مدينة قريبة . ففرح القرطجني ولاحت لهُ اوجه المنى ولما ادلهم الظلام نهض بفرقة من الجنود واسرع بالصعود الى قمم تلك الجبال وتحصن فيها آمنًا وعند

الصباح عاد اولئك البرابرة جريًا على عادتهم فنظروهُ معسكرًا ومتأهبًا للكفاح فذهلوا وانكفوا راجعين ليفتكوا بالباقين الذين كانوا وقتئذٍ سائرين بالمضيق فهجموا عليهم كالضراغم وقتلوا منهم اناسًا كثيرين لان خيلهم كانت متى جفلت او جرحت تثير فتندفع من تصادفهُ في المهاوي التي على جانب الطريق ونظر ذلك أنيبال فانقض على الجبليين انقضاض الصواعق وفتك بهم فتكًا ذريعًا ولم ينجُ منهم سوى نزر امكنهُ الفرار فافلت من الموت الزؤام ثم سار الى مدينتهم واستولى عليها عنوة واسترد الخيول والبهائم التي سلبوهُ اياها واخذ حنطة واغنامًا تكفي جيشهُ يومين او ثلثة

وما زال القرطجنيون سائرين بين الروابي والآكام مدة ثلثة ايام الى ان وصلوا الى مكان صمم سكانهُ على الفتك بهم اغتيالاً طمعًا بالغنيمة فاتوهم حاملين اغصان الزيتون دليل السلام وقالوا لهم اننا عالمون بقوتكم وبسالتكم وجئنا اليكم طالبين الامان فصدق أنيبال كلامهم واخذ منهم ادلاء ليقودوا جنودهُ في تلك المسالك العسرة فمشى اولئك الادلاء امام الجند حتى وصلوا الى وادٍ عميق تكتنفهُ الصخور والشعاب من كل جانب فارتدوا على العساكر وظهرت ارفاقهم بغتة واحاطوا بالقرطجنيين احاطة الاسورة بالمعاصم فقاتل أنيبال ورجالهُ في ذلك اليوم قتالاً لا يبقي ولا يذر فرد الاعداء ومكن جيشهُ من العبور وبعد بضعة ايام وصل الى قمم جبال الالب ومكث هناك يومين لاراحة الجنود الذين اضنكهم التعب ثم جمعهم وقال لهم ايها الابطال انظروا الى هذه الاقطار الواسعة والمخصبة واعلموا ان سكانها الغاليين هم اصدقاؤنا ويودون الانتصار لنا. قد ذللنا بهمتنا المصاعب وتسورنا بارتقاء هذه الجبال الشامخة اسوار ايطاليا لا بل اسوار رومية نفسها واننا بعد معمعة واحدة او معمعتين سنستولي على عاصمة ايطاليا وما تحوي

وبعد اتعاب كثيرة واخطار مهولة قدر القرطجنيون على النزول من تلك الجبال الى السهول المجاورة بلاد انسبريا وكان عدد جيوش انيبال

حينما عبر نهر الرون ثمانية وثلثين الف راجل وثمانية آلاف فارس ما خلا الغاليين وغيرهم الذين حاربوهُ ونشطوا لاعانته انتقامًا من اهل رومية

وذاع امر دخول انيبال البلاد الايطالية بسرعة عظيمة كان ذلك الخبر المخيف قد نقل الى الرومانيين على اجنحة الرياح العواصف او على متن البروق الخواطف فوقفوا ذاهلين حائرين ولقد استعظموا هذا الخطب وحق لهم ان يستعظموهُ فارسلوا على الفور رسلاً يدعون القنصل سمبرونيوس الى العود حالاً من جزيرة سيسيليا فلبى هذا القائد دعوة الداعين واقبل مسرعا لحماية وطنهِ وانقاذه من ايدي اعدائهِ الباسلين

وكان القنصل سيبيو قد رجع من مرسيليا كما ذكرنا لقتال القرطجنيين بالقرب من جبال الالب اذا اجتازوها وارادوا الدخول الى البلاد الايطالية فالتقى الفريقان عند نهر تيسينوس (الان تيسينو وهو نهر يصب في البو بالقرب من مدينة بافيا في لومبارديا) وقبل انتشاب القتال اخذ كل قائد يشجع جيشهُ بالكلام والخطب الحماسية ويستنهض همتهُ بذكر حروبهِ ونصراتهِ السابقة قيل ان انيبال وعد عساكرهُ ان يعطي كلاً منهم اموالاً واراضي في افريقيا واسبانيا او ايطاليا واخذ حجرًا وخروفًا ورفع عينيهِ الى السماء وقال يا جو بتير العظيم ويا ايها الآلهة اقتلوني كما اقتل هذا الخروف اذا لم اوف ما وعدت بهِ ثم شج راس الخروف بالحجر الذي بيدهِ فتشجعت رجالهُ ونشطت للكر والكفاح

وحدث ان سيبيو نهض بفرسانهِ وبعض المشاة ليجول في تلك الانحاء ويستطلع احوال الاعداء . فلقيهُ انيبال الذي خرج لمثل هذه الغاية فحملت حينئذٍ الابطال على الابطال واشتد القتال واظهر القائد الروماني في هذه المعمعة من الشجاعة والتدبير ما يشهد لهُ بالفروسة والذكاء غير انهُ جرح جرحًا بليغًا فسقط على الارض وكاد يمضي لسبيلهِ لولا ابنهُ الشجاع الذي بادر اليهِ وخلصهُ من براثن الموت ولم يستطع الرومانيون الثبات لدى

اعدآئهم في ذلك النهار بل ولوا منهزمين يطلبون النجاة

ورحل سيبيو من ذلك المكان تحت جنح الظلام فعبر نهر البو واتي وعسكر بالقرب من مدينة بلاشنزيا (الان بيانشنزا)وعلم ذلك القرطجنيون فلحقوا بهِ وارادوا قتالهُ فاجتنب القنصل القتال ما امكن واسرع بالذهاب الى نهر تربيا والتحصن وراءهُ منتظرًا وصول رفيقهِ سمبر ونيوس ومعالجًا جراحهُ ليشفى ويستطيع خوض عجاج الحرب ومنازلة الفرسان واتى انيبال وعسكر تجاه الرومانيين على بعد خمسة اميال منهم فبادر الغاليون لاعانتهِ وتقديم ما يحتاج اليهِ من السلاح والقوت

ووصل في هذا الحين سمبر ونيوس وجنودهُ الى نهر تربيا واخذوا في الاستعداد للكر والكفاح فاحيوا بقدومهم روح الشجاعة والاقدام في قلوب اصحابهم المعسكرين هناك وكان سمبر ونيوس حديد الطبع فخورًا فاراد قتال الاعدآء حالاً فنصح لهُ سيبيو الاّ يفعل ذلك وان يصرف همهُ في تمرين الجيوش وتعليمهم اثناء فصل الشتآء وان يجتنب المعامع العظيمة ما امكن فلم ينتصح هذا القائد بكلام رفيقهِ الخبير بل حارب القرطجنيين وانكسر كسرة مشومة اهلكت قسماً من عساكرهِ وشتتت الباقين اما سيبيو فنهض برجالهِ ولجئ الى مدينة بلاشنزيا

وبلغت الرومانيين هذه الاخبار المكدرة فذهلوا وزاد خوفهم من أنيبال وامر المجلس في الحال بجمع جنود جديدة من الوطنيين والحلفآء وارسل عساكر الى سيسيليا وسردينيا وترنتوم ليقيها من اعتدآء القرطجنيين وبعث بقوت ومهمات الى بلاد ارمينيوم واتروريا وجهز ستين سفينة حربية كبيرة لصيانة السواحل الايطالية ومنع الاعدآء من الهجوم على البلاد بحرًا وبالجملة لم يهمل شيئًا رآهُ ضروريًا لمداومة الحرب بقوة وثبات

اما الجنود الرومانية في اسبانيا فكانت منتصرة انتصارًا عظيمًا لانها استظهرت على أنو القائد القرطجني واخضعت اكثر الشعوب القاطنة بين

نهر ايبرس وجبال البيرينه

واحضر أنيبال الاسرآء الذين اخذهم من الامم المحالفة الرومانيين وقال لهم انهُ لم يأْتِ ايطاليا ليحاربهم بل ليسعفهم على استرجاع حريتهم واستقلالهم القديم وحرضهم ان ينتصروا لهُ ويخبروا بذلك مواطنيهم وصرفهم بلا فدآء ثم زحف بجنوده واجتاز جبال الأَبينين ودخل بلاد اتروريا من طريق رديئة جدًّا بين الوحول والمستنقعات فاضر ذلك العساكر واهلك بعضًا منهم لكثرة الرطوبة والاتعاب وطول السهاد حتى ان أنيبال ذاتهُ فقد احدى عينيهِ

وكان فلامينيوس القنصل الذي انتخبهُ الرومانيون سنة ٢١٦ ق.م اكثر من سمبرونيوس خيلاَء وجهلاً فاغتر بخداع انيبال الذي علم طبع ومعرفة خصمهِ فاراد ان يقودهُ الى مكان يسهل فيهِ للقرطجنيين الانتصار فزحف بعساكرهِ واخذ يخرب حقول اتروريا المخصبة فاهاج ذلك فلامينيوس وعقد مجلسًا حربيًا للائتمار فاشار عليهِ القواد ان يبقى في معسكرهِ الى حين وصول رفيقهِ وان يرسل شرذمات فقط لمنع الاعدآء من اتلاف الغلال وتخريب الحقول فخرج من المجلس حانقًا غضوبًا وامر الجنود بالرحيل فاغتم القواد من فعلهِ وخشوا عاقبة الطيش والجهل وكان انيبال ماشيًا الى رومية على جانب بحيرة ترازمينوس (الان لاغودي بروجيا) حينما بلغهُ ان القنصل متأثرهُ فاتى واديًا يمتدّ من البحيرة المشار اليها الى هضبة وعرة تكتنفها الروابي والآكام فرتب جيوشهُ على هذه الجبال واقام كامنًا ينتظر الرومانيين فاتى القنصل باكرًا في اليوم الثاني وولج الوادي وكانت ضبابة كثيفة منتشرة اذ ذاك فوق تلك الارجاء فلم ينظر الرومانيون اعدآءهم الذين هجموا عليهم من كل جهة هجمة الاسد الرئبال وقتلوا منهم خمسة عشر الفًا من جملتهم القنصل فلامينيوس وسقط كثيرون في البحيرة وماتوا غرقًا ولم ينجُ من ذلك الجيش الجرار سوى ستة آلاف راجل خرقوا صفوف القرطجنيين وزحفوا الى

قمة رابية وابصروا منها لما انقشعت السحب والضباب اصحابهم مجندلين على الصحصحان رزقًا لوحوش الفلا وطيور السمآء ونظرهم انيبال فارسل اليهم احد قواده ليحاربهم فاستسلموا لهُ وتبعوهُ وهم مكبلون بالسلاسل والقيود

وعلم الشعب الروماني ما اصاب القنصل والجنود فهرع الى الفورم يسأل الحكام عن جلية الامر فنهض احد القضاة واجابهُ بهذه الكلمات قد غلبنا في معمعة عظيمة ولقد زاد هذا المصاب مصابًا خبر اتاهم ان القنصل سرفيليوس سمع باقدام فلامينيوس على محاربة انيبال فامدهُ باربعة آلاف فارس وصلوا بعد انتهاء المعمعة التي مرَّ ذكرها فارسل القائد القرطجني ماهربال احد اعوانهِ لمحاربتهم فقتل منهم الفين واسر الباقين

ورأى المجلس ضرورة اقامة رئيس ذي سلطة مطلقة وحيث ان القنصل وحدهُ لهُ الحق بتعيين ديكتاتور وكان القنصل وقتئذٍ غائبًا أقام الشعب فابيوس ماكسيموس حاكمًا مطلقًا ودعاهُ برو ديكتاتورًا وكان فابيوس هذا رجلاً هادئًا متأنيًا في جميع الامور فاصلح حصون المدينة وهدم الجسور وارسل يأمر سكان البلاد التي ظن أنيبال يمر بها ان يحرقوا منازلهم ويتلفوا اثمار اراضيهم ويقيموا في الاماكن الحصينة. ثم جمع جيشًا جديدًا اضاف اليهِ جنود القنصل سرفيليوس الذي بعثهُ الى اوستيا ليجهز سفنًا ويتولى قيادة المراكب الحربية وحراسة السواحل الايطالية من القرطجنيين ومشى فابيوس بعد ذلك القاء أنيبال وكان لا يقدم على عمل قبل الائتمار والتروي ولا يسلك طريقًا قبل فحصها ومعرفة ما تحوي

وما زال أنيبال سائرًا في البلاد يخرب ما يراهُ ويقتل من يصادفهُ من الرومانيين حتى لقي فابيوس في ابوليا معسكرًا على رابية بالقرب من مدينة أنتشي فزحف اليهِ ليقاتلهُ فلم يبدِ البرو ديكتاتور حراكًا وبقي في معسكرهِ غير مبالٍ بكلام القائد القرطجني الذي قفل من ذلك المكان يشتم الرومانيين ويتهمهم بالجبن والخمول وكان فابيوس يتأثر القرطجنيين عن بعد ويرسل

اليهم شرذمات توقع بهم متى سنحت الفرصة ولا يخفى ان هذه هي الطريقة الوحيدة لاهلاك أنيبال ورجاله لانهم في ارض غريبة يعوزهم بها كل شيء واذا مات احدهم لا يمكنهم تعوضهُ بسهولة لبعد الاوطان وانقطاع الصلات

وبعد ان غزا القرطجنيون سامنيوم زحفوا الى كامبانيا (الان ترّا دي لافورو) وهي بلاد جميلة جدًّا يقلّ نظيرها في الدنيا فدخلوها وعسكروا عند نهر فولترنوس (الان نهر فولترنو) فذهل فابيوس من جسارتهم واتى واحتل رابية تجاههم ونظر الرومانيون اعداءهم يجمعون الغلال والاثمار في تلك الحقول المخصبة فحنقوا وضجروا من صبر رئيسهم وتمنعهِ عن القتال وظنوا فعلهُ هذا ناتجًا عن ضعف وجبانة فقال لهُ بعضهم لعلنا اتينا هذا المكان لنشاهد بامان خراب ايطاليا او لعلك رأيت الارض لا تصلح لذلك فوددت ان تضرب خيامك في الجو وتلتحف بالسحب أجابهم فابيوس انني لا اخشى عارًا في عمل ما يؤول الى صيانة بلادنا وان الانسان الذي يخاف عذل الجاهلين ويخضع لاهواء من هم ادنى منهُ ليس اهلاً لان يتسلط على الناس وبقي هذا القائد الحكيم متبعًا منهج التأني والحذر غير مبالٍ بملل جيشهِ ولوم الشعب

ولما قرب فصل الشتاء اراد أنيبال الخروج من كامبانيا من مضيق لا يبعد عن كليكولا حيث كان الرومانيون معسكرين فارسل فابيوس اربعة آلاف رجل يحتلون المضيق وفرقة الى مدينة كاسيلينيوم الواقعة على ضفة نهر فولترنوس واقام هو مع الجنود الباقية على قمة الرابية فاصبح القرطجنيون كأنهم محصورون فاتى انيبال بالفي ثور وربط بقرونها حطبًا يابسًا وفي اول الليل أطلق الثيران بالقرب من المضيق وامر الرعاة ان يشعلوا الحطب ويسوقوا هذه البهائم ان امكن الى قمة الرابية. واتبع الرعاة فرقة من الفرسان ونظر الرومانيون المحتلون المضيق الانوار وسمعوا الجلبة فظنوا ان القرطجنيين قد اجتازوا الجبل من تلك الناحية فتركوا مراكزهم بسرعة وذهبوا كما زعموا لقتالهم ولما دنوا من الثيران وابصروها هائجة ورؤوسها مشتعلة ذهلوا وخافوا

خوفًا شديدًا اما فابيوس فعلم ان هذه حيلة او شرك نصبهُ لهُ الاعداءُ فبقي في مركزه صابرًا ليرى ما يكون وفي اثناءِ ذلك عبر انيبال وجيوشهُ المضيق وخرج من كامبانيا سالمًا

وحدث ان الشعب الروماني تكدر من سلوك فابيوس وحذره وظنهُ خائنًا فعين رفيقًا لهُ رجلاً اسمهُ منيسيوس كان لا يفتر عن الطعن عليهِ والسخر من حكمتهِ وتأنيهِ ولم يتفق القائدان لاختلافهما في المشارب والطباع فعمدا الى قسم الجيش ليتولى كلٌّ منهما نصفهُ ولم يلبث منيسيوس زمنًا طويلاً حتى نازل القرطجنيين آملاً نيل الظفر واحراز الفخار فابتدر اليهِ انيبال بجنوده وفرسانهِ وكسرهُ كسرة مشؤومة وكاد يسقيهِ وجنودهُ كاس الهلاك لولا فابيوس الذي اسرع كالبرق لاعانتهِ فجمع عساكرهُ المتشتتة وانقض على القرطجنيين فالجاهم الى الرجوع حُكي ان انيبال قال لاعوانهِ في ذلك الحين ألم انبئكم ان هذه السحابة الحائمة فوق رؤوس الجبال ستسقط فوقنا وابلاً منهملاً

وجمع منيسيوس جنودهُ بعد ذلك واعلن لهم خطأَهُ وقال انهُ من الواجب عليَّ وعليكم ان نطيع فابيوس بكل ما يأمرنا فقادهم الى حضرة البروديكتاتور وصرح لهُ بما يخالج ضميرهُ من حاسات الشكر لهُ والثناءِ عليهِ واستعفى من منصبهِ فتلقاهُ فابيوس بالبشاشة والاكرام وسرت الجنود جدًّا حتى ان كل واحد كان يقبل رفيقهُ من شدة الفرح

وفي سنة ٢١٥ جهز المجلس الروماني جنودًا وفرسانًا واقام أميليوس وفرو قنصلين الذين اسرعا للقاءِ أنيبال بالقرب من قرية كانّة في ابوليا وكان القنصل أميليوس رجلاً عاقلاً وفطينًا قد اشتهر في الحروب التي اثارها بالبلاد الايلرية فجمع العساكر وحرضهم على الشجاعة والثبات في القتال معلنًا ان فوز الاعداءِ بالوقائع الماضية كان ناتجًا عن اسباب جديرة بالاعتبار اهمها عدم ترتيب الجنود الرومانية كما يجب وجعلها قوة وبطش قائد شهير

كانيبال وان الذين حاربوهُ في وقعة تريبيا كان التعب قد اعياهم فلم يستطيعوا الكفاح وان في معمعة ترازيمنوس قد حال بين الرومانيين والقرطجنيين ضباب كثيفة فلم ينظروا الخطر المحيط بهم بل كانوا كالباحث عن حتفهِ بظلفهِ الى ان قال قد تغيرت تلك الاحوال واصبحنا عالمين بقوة وخداع عدونا الالد وانني لاعجب ايها الجنود كيف امكننا الانتصار عليهِ بالوقائع الصغيرة ونيأس من النجاح والظفر اذا كانت الحرب واسعة المجال بخوض عجاجها جميع الفرسان والابطال وانّى نخاف جيوش العدى ونحن اكثر منهم عدداً ونعلم علم اليقين ان صيانة بلادنا وشرفنا متوقف علينا اليوم فلنصبر على الاهوال ولنبادر الى القرطجنيين بقلب ثابت لا يعرف الجزع

وكان الفريقان معسكرين في فلاة واسعة الاطراف يمكن فرسان أنيبال الافريقيين الجولان بها وهولاء الفرسان كانوا حاذقين جداً بركوب الخيل وشهيرين في الازمنة القديمة بالشجاعة والحماسة فيشبهون العرب العرباء في الكر والكفاح ولا غرو فانهم نظيرهم يسكنون البوادي والقفار ويعتادون وهم صغار الفراسة وشن الغارات وعلم اميليوس صعوبة مركزه وما لديهِ من الاخطار فاراد ان يخرج من تلك البطاح قبل ان تفاجئهُ خيل انيبال وتوقع بعساكرهِ اما فرو الذي كان متوليًا قيادة الجيش في ذلك النهار فلم ينتبه الى آراء رفيقهِ الحكيم بل زحف لقتال القرطجنيين وعاد بالخسارة والفشل وحدث بعد ذلك انهُ كان متوليًا ايضًا قيادة الجنود فاغتر بخداع أنيبال ونازلهُ في مركز رديء جداً لان الشمس كانت تجاه الرومانيين وكانت الرياح عاصفة تهب في وجوههم فتعمي ابصارهم بالغبار على انهم قاتلوا قتال من استمات وثبتوا ثبات من لا يخاف الحمام ولم ينج منهم سوى اربعمائة فارس وثلاثة الاف راجل تشتتوا في البلاد واسر القرطجنيون الفي فارس وثمانية الاف راجل وقتلوا الباقين الذين يبلغ عددهم كما قيل

نحو سبعين الف رجل اما خسارة أنيبال فكانت اربعة الاف غالي واسباني والفًا وخمسمائة افريقي ومائتي فارس

ترى يذل الشعب الروماني بعد هذه الوقعة العظيمة ويقر بسيادة القرطجنيين نعم انهُ بات خائفًا حائرًا الان ذلك الجيش العرمرم الجرار الذي خرَّ صريعًا لجهل قائده الاحمق المغرور تدهدهت منهُ الاركان ولكنهُ لم يفقده تلك الحماسة والشجاعة التي بها فاضل بها امم الارض فيفضلهم لدى حلول الرزايا فاقبل لذلك على تحصين المدينة واتخاذ الوسائل الوافية بهمة ونشاط آملاً ان يمحو بجسارته وحكمته ما لحق بهِ من الذل والعار فكاني بهِ موسس او مصلح احدى الممالك الحديثة الذي قال قد قهرنا عدوّنا ليعلمنا كيف نقهرهُ وعلى كل حال ان ما حدث كان كافيًا ليظهر للشرفاء والعوام فضل فابيوس العاقل الذي قدران يعرف دهاء انيبال ويمنعهُ الفوز والنجاح من غير ان يتصدى لقتاله بمكان يخشى فيهِ خطرًا

واقام الرومانيون في ذلك الحين ديكتاتورًا يونيوس بيرا ليصلح الخلل ويكون وسيلة لاجتماع كلمة الشعب فبادر الجميع الى التجند بغيرة وحمية مقدمين اختيارًا للحكومة ما يلزمها من النقود

وزحف انيبال بعد انتصاره في كانه الى بلاد سامنيوم وقسم هناك جيشهُ الى قسمين ولى قيادة قسم منهُ اخاه ماغو ومشى هو بالباقي الى مدينة نابولي ليستولي عليها ويصبح قادرًا على مراسلة القرطجنيين بحرًا على انهُ لم يستطع محاصرتها لحصانتها فارتد عنها راجعًا واتى مدينة كابوا التي فتحت لهُ ابوابها وسرت بمحالفته وسبب هذا الامر ان شعبها وحاكمها كانا يبغضان المجلس لاسباب سياسية او لان الجمهور يكره في الغالب الرؤساء وان كانوا عادلين لم يأتوا امرًا يستوجب البغض فسعى الحاكم في تسليم المدينة الى أنيبال وجمع لذلك اعضاء المجلس بالهيكل وقال لهم قد حلف الشعب يمينًا ان يخضع لانيبال بعد ان يقتلكم جميعًا فرعبوا جدًا وطلبوا اليهِ بالحاح

ان يشفق عليهم وينقذهم من هذا البلاء فوعدهم بذلك وذهب وجمع قومهُ واخبرهم ان اعضاء المجلس في قبضة يدهِ الآن وانهُ يمكنهُ ان يسلمهم اليهم ليفعلوا بهم ما يشاؤون جزاء لهم على محازبتهم الرومانيين ثم قال لهم انهُ لما كان لكل مجتمع بشري عوائد وامورٌ اوجدتها الضرورة واثبتها الزمان كان من الواجب ان ارادوا الفتك بهولاء ان ينتخبوا اعضاء اخرين يخلفونهم في الرئاسة وتدبير الاحوال فرضي الشعب بترك القديم على قدمهِ وعفا عن اولئك التعساء الاولى لا ذنب عليهم سوى صدقهم في خدمة الوطن ومصادقتهم اهل رومية اذ علموا علم اليقين ان لا راحة لهم ولا نجاح الا بسلوكهم هذا المسلك

اما الان وقد صبح الحاكم مطلق التسلط لخضوع الشعب والمجلس لهُ فخابر أنيبال وحالفهُ ثم فتح لهُ ابواب المدينة فدخلها القرطجني بالعز والاكرام ومنح الاهلين الحرية والاستقلال

وفي ذلك الاوان بعث أنيبال اخاهُ ماغو الى قرطجنة ليخبر مجلسها بنصراتهِ العظيمة على الشعب الروماني الذي راعت حروبهُ امم الارضين وخفقت اعلام مجدهِ فوق الروابي والبحار ويطلب اليوان يمده بالرجال والمال فعمد المجلس الى اعانتهِ ولكنهُ لم يقدم على الامر بسرعة ونشاط كما كان واجبًا عليهِ ان يفعل

وكان ماهر بال احد قواد الجيش القرطجني ينصح لانيبال ان يزحف حالاً الى رومية فابى هذا ان ينتصحهُ فاجابهُ ذلك القائد انت تستطيع الانتصار ولكنك تجهل طرق الانتفاع منهُ والحق يقال ان انيبال لو زحف حالاً الى رومية بعد وقعة كانة لاستولى عليها عنوة واخضع شعبها او جعلهُ في عداد الامم البائدة

وصرف انيبال فصل الشتاء في كابوا والمدائن الاخرى التي حازبتهُ واخذ وجنودهُ في ارتشاف كؤوس الصفو والانشراح كأن نصراتهِ المتتابعة

واعمالهُ العظيمة قد اتعبتهُ فاراد الاستراحة في سبل الظفر فكان ذلك داعياً الى فوز الرومانيين الذين جدوا في الاستعداد لمحاربة عساكر قد ذلوا للملذات فنسوا شجاعتهم التي اكسبتهم فخرًا تخلدهُ صحف التاريخ ويبقى مثالاً يقتدي بهِ فرسان الارض وابطالها

وكان الترنتيون يبغضون الرومانيين ويرغبون في التخلص من ربقة الخضوع لهم فخابروا انيبال بتسليم المدينة اليهِ بشرط ان يكونوا احرارًا لا يدفعون جزية ولا يحتل ارضهم جيش قرطجني فرضي انيبال بما طلبوا ودخل المدينة بحيلة وقتل قسماً من العساكر الرومانية اما الباقون فلجئوا مع قائدهم لفيوس الى القلعة وتحصنوا فيها فحفر القرطجنيون امام تلك القلعة خندقين وبنوا وراء كل خندق سورًا ليامن الترنتيون شر العدى ويستطيعوا الدفاع متى رحل انيبال بجيشهِ

ولما كانت القلعة مبنية بالقرب من مدخل المرفإِ اراد انيبال منع المدد من الوصول الى الرومانيين وفتح طريق البحر للترنتيين فنقل السفن الكثيرة الموجودة في ميناء المدينة برًّا على عجلات صنعت لهذه الغاية وانزلها في البحر من ناحية اخرى فانت ورست تجاه القلعة التي اصبحت محصورة من كل الجهات

وفي سنة ٢١١ ق . م زحف القنصلان بالعساكر لمحاربة كابوا والاستيلاء عليها فعلم ذلك انيبال واسرع كالبرق الخاطف لاعانة الكابوبين فحارب الرومانيين وهاجمهم مرارًا ولكن بلا فائدة لانهُ لم يستطع خرق صفوفهم ليدخل المدينة التي اصبحت في ضيق عظيم من الحرب والجوع فارتد راجعاً ومشى الى رومية ليحمل القنصلين على رفع الحصار وتأثرهِ فلم يغتر الرومانيون بخداعهِ بل بقوا مشددين الحصار الى ان دخلوا المدينة قسرًا او بخيانة الرعاع

وحدث انهُ لما خاب امل الكابوبين من استطاعة الدفاع زمناً طويلاً

جمع فيبوس فريوس احد زعماء العصاة اصحابهُ وابان لهم بغض الرومانيين لهم وحقدهم عليهم الى ان قال لانجاة لنا ايها الاصدقاء الا بالموت فها قد اعددت في منزلي وليمة فاخرة ادعوكم اليها لنتمتع من طيبات هذه الدنيا ونشرب بعدها رحيق الحمام من كاس يطوف علينا بهِ احد السقاة فمن منكم قد انعبتهُ الحيوة او ملّ منها فليتبعني لان ميتة مجيدة تكسب الميت فخرًا وتجعلهُ اهلاً لاعتبار الاعداء والخلان فقبل دعوتهُ سبعة وعشرون رجلاً قضوا نحبهم جميعًا بتجرع سم زعاف أُدير عليهم بكاس الراح كما تدار الصهباء بالافراح فغادروا هموم الدنيا واحزانها وهم غارقون ببحار الملذات والسرور

ولما دخل الرومانيون المدينة هدموا اسوارها ودكوا حصونها وقتلوا كثيرين من كبرائها الذين لم ينتحروا ونهبوا سبعين زنة ذهب وثلثة الاف ومائتي زنة فضة وحرموا الاهلين امتيازتهم القديمة ليظهروا للعالم ان شعب رومية كريم يعامل اصدقاءهُ ومحالفيهِ بالرفق والاحسان وحقود ينتقم من اعدائهِ ولا يصفح عنهم ابدًا ليؤدب الطاغين ويوطد اركان سلطتهِ في في البلاد الخاضعة لهُ

واتى البروقنصل فولفيوس رجلٌ شجاع اسمهُ يوبليوس نوريا بعد ما اصدر مجلس رومية امرًا بكف القتل واعطاء الامان وكان البروقنصل قد همَّ بالانصراف فقال لهُ مر بقتلي يافولفيوس وافخر ما دمت حيًا باردآء بطل يفوقك بالشجاعة والباس اجابهُ الروماني حبذا ما تطلب لولا اعطائي الامان فصرخ يوبليوس واأسفاه هل عشت الى الان لارى مواطنيَّ عبيدًا وهل بعد ذبحي امرأتي واولادي لاصونهم من الاهانه والعار احرم لذة القتل ليمتزج دمي بدم اصدقائي ومواطنيَّ ولكن اذا رفض العدى قتلي فاني افوز براحتي بالانتحار قال هذا واستل مدية طعن بها صدرهُ وخرَّ قتيلاً يخبط بدماه

وفي سنه ٢١٦ ق.م مات أيرون ملك سيراكوزا وخلفهُ حفيدهُ

أرونيموس فخالف هذا الملك الفتى وصية جده ونقض عهود صداقته للرومانيين وارسل رسلاً الى قرطجنة يحالفون مجلسها و يعقدون معهُ عهدة مفادها اقتسام جزيرة سيسيليا بينهما بعد اتحادهما لافتتاحها ولكنهُ ندم بعد ذلك وطلب اليهِ فقط ان يحالفهُ ليشهر الحرب على الرومانيين اذا مست الحاجة فسر القرطجنيون بما حدث ورضوا بما طلب الملك لانهُ حليف قوي يمكنهُ اعانتهم واحباط اعمال اعدآئهم بالجزيرة المذكورة

وفي سنة ٢١٤ ق . م اقدم القنصل مارسيلوس على محاربة السيراكوزيين فحاصر مدينتهم براً وبحراً وكان في تلك المدينة عالمٌ شهير اسمهُ ارخميدس قدر وحدهُ على لقآء جنود الرومانيين وقهرهم مراراً لانهُ كان مسلحاً باختراعاته العجيبة ومتحصناً ورآء اسوار علمهِ وافكاره الثاقبة فعمل آلات كانت ترمي المحاصرين باحجار الى مسافة بعيدة فتردي من تصيبهُ وتحطم السفن وعمل ايضاً آلات اخرى كانت تمسك المراكب الرومانية وترفعها ثم تقذفها على الصخور فتنكسر و يغرق من فيها فابتعد مرسيلوس عن الاسوار وحل بمكان لا يصل اليهِ بهِ ضرر من آلات ارخميدس آملاً ان الجوع سيفتح لهُ مدينة لم يمكنهُ الاستيلآء عليها بالسلاح والجيوش

ودام حصار سيراكوزا ثلث سنوات الى كان ذات يوم عيدٌ عظيم اهمل فيهِ الاهلون حراسة الاسوار واقبلوا على الافراح والولائم ناسين ان العدو على الابواب فاغتنم مرسيلوس هذه الفرصة وارسل فرقة من جنوده تسورت الجدران والحصون ودخلت المدينة وملكت قسماً منها و بعد بضعة ايام استولت على الاقسام الباقية فنهبت ما نهبتهُ وقتلت كثيرين من جملتهم ارخميدس العالم الذي لم يكترث لدخول الاعدآء المدينة بل كان منهمكاً في بعض مسائل علمية اورسوم هندسية فمات وهو قابض على قلمهِ سبب شهرتهِ وهلاكهِ لانهُ لو ترك شغلهُ ولجىء الى معسكر الرومانيين نجا لا محالة

وكان سيبيو الذي حارب أنيبال بالقرب من نهر تيسينيوس متوليًا مع اخيه كنيوس قيادة الجيش الروماني في اسبانيا فانتصر الاخوان مرارًا كثيرة على القرطجنيين وكادا يستوليان على جميع البلاد لو لم يقسما جيشهما الى قسمين ويفترقان فحارب كلاً منهما اسدربالُ اخو أنيبال وكسرهُ فخسر الرومانيون ما كسبوهُ قبلاً في معامع كثيرة واسفوا جدًّا لموت ذينك القائدين الذين خرَّا صريعين في ساحة القتال

ولما بلغت هذه الاخبار رومية حزن الشعب ويئس من النجاح باسبانيا وعدَّ استرجاع ما فقد فيها من الامور المستحيلة ودليل ذلك انهُ لم يرض احد من الرومانيين تولي قيادة الجيوش هناك الا ببليوس سيبيو ابن المتوفى وكان شابًا عمرهُ اربع وعشرون سنة شهيرًا بالذكاء والتدبير ومحبوبًا من الجميع فعين على الفور برو قنصلاً وقائدًا عامًا للعساكر الرومانية في تلك الديار فبادر الى الرحيل حالاً والى البلاد الاسبانية وقاد جيشهُ لمحاصرة قرطجنة الجديدة فاستولى عليها في يوم واحد ثم حارب الاعداء في معامع عديدة وانتصر عليهم انتصارًا مبينًا وشتت شملهم فاستتب لهُ الامر وخضعت لهُ جميع شعوب ذلك الاقليم

وكان هذا القائد الفتى شهماً عظيماً وفاضلاً كريمًا فاتتهُ يومًا بعد استيلائهِ على قرطجنة الجديدة امرأة شريفة من اهالي تلك الديار وسالتهُ وهي جاثية بين يديهِ وعبراتها تتساقط على الارض من شدة الكدر ان يامر رجالهُ باحترام الاسراء فلم يفهم سيبيو معنى كلامها وظنها تشكو عسرها فاجابها انعمي بالاً ايتها المرأة لانك ستحصلين على كل ما تحتاجين اليهِ قالت لهُ هذا الامر لا يهمني ولا يقلقني سوى حالة هولاء الواقفات حولي وكان معها بنات اخيها ملك الالرجيين وبنات اخر شريفات كلهنَّ بديعات الحسن والجمال فتحركت في صدره حاسات الشفقة والحنو والغرور ورقت عيناه بالدموع وقال لها يا اماه ثقي انني ورجالي جميعًا لا نخلّ

شيئاً محرماً وسنبذل الجهد في صون طهارتكن وشرفكنّ ثم طيب خاطرهنّ وصرفهنّ بالاكرام فذهبن مسرورات شاكرات

واحضر اليهِ قوادهُ مرةً بنتاً عذراء ذات حسن باهر وقدٍّ رشيق وكان سيبيو زير نساء فافتتن بها الا انهُ ملك شهوتهُ وقال لاعوانهِ ان منصبي يمنعني من قبول هديتكم ثم التفت الى الجارية واستخبرها عن اهلها ووطنها فاجابتهُ انها مخطوبة لامير قبيلة السلتبريين المدعو اليسيوس فاحضرهُ سيبيو مع ابيها وقال لهُ يا أليسيوس انا فتيان ويمكن كلاً منا ان يكلم صاحبهُ بحرية فاخبرك ان جنودي قد اتتني بجارية عذراء علمت منها انها خطيبتك وانك مغرم بها فاردها عليك الآن عفيفة طاهرة كما كانت قبلاً ولا اسالك عوضاً عن ذلك الا ان تكون حليف الامة الرومانية التي فاقت شعوب الارض بالفضل والفضيلة ولا يحاكيها احد في حب الاحسان الى اصدقائها ورغبة الانتقام من اعدائها

وكان ابوها قد قدم مقداراً وافراً من الدراهم فداء لها فاعطى سيبيو تلك الدراهم لاليسيوس ليزيد بها مهر امرأتهِ فانصرف ذلك الفتى الاسباني مع جيشهِ شاكراً مسروراً واخبر قومهُ انهُ اتى مع الجيش الروماني بطل يحكي الالهة في الشجاعة والكرم يفتح المدائن والقلوب بسيفهِ وشهامتهِ

اما اسدربال قائد الجيوش القرطجنية في اسبانيا ففر هارباً من امام سيبيو واجتاز بمن معهُ جبال البيرينه والالب ودخل ايطاليا ليعين اخاهُ على حرب الرومانيين فيها فارسل المجلس القنصل لفيوس ليقاتلهُ ويمنعهُ من الانضمام الى أنيبال وكان القنصل الاخر نيرون يحارب بطل قرطجنة فنهض سرًّا بسبعة آلاف رجل وبعد مسير سبعة ايام وصل الى معسكر لفيوس بالقرب من نهر متورس فدهم القنصلان اسدربال وانتشب القتال وكانت هذه الملحمة من اعظم الملاحم التي حدثت في تلك البلاد او منذ دخول أنيبال اليها لان قائد تلك الجيوش القرطجنية خرَّ قتيلاً

باسياف اعدائهِ ومات من عساكرهِ ستون الف رجل وقد مل المنتصرون من القتل وسفك دم الابطال حتى ان لفيوس ترك بعض المنهزمين يذهبون بسلام قائلاً فليمضوا ليذيعوا خبر انتصارنا في سائر الانحاء ورجع نيرون الى معسكره بسرعة عظيمة كما اتى منهُ وطرح امام سرادق أنيبال راس اخيهِ ليعلمهُ ما جرى فرعب هذا البطل وادرك عظم المصائب التي فاجأت حكومتهُ وعائلتهُ فرحل حالاً من ذلك المكان واحتل بروتوم وشرع في الاستعداد للحرب والدفاع .

وكان سيبيو القائد الروماني مكللاً بالظفر والنجاح في جميع اعمالهِ وغزواتهِ فلما امن شر اعدائهِ بالديار الاسبانية اخذ يفكر في محاربة القرطجنيين بافريقيا فارسل ليليوس احد اصدقائهِ لمحالفة سيفاكس ملك الماسيسيليين (اسم احدى القبائل الشهيرة في الازمنة القديمة الساكنة في جزائر الغرب) فرضي هذا الملك البربري بمصادقة الرومانيين ورغب في مقابلة البروقنصل ليخابرهُ بهذا الشان فاتاهُ سيبيو على جناح السرعة غير مبالٍ بالاخطار التي تلحق بهِ ان نكث الامير النوميدي العهد وغدر بهِ لانهُ راى في تلك المقابلة خيرًا لامتهِ فخاطر بحياتهِ لنيل هذه الغاية الشريفة

وحدث ان اسدربال القائد القرطجني في اسبانيا الذي خلف اخا انيبال حضر في ذلك الاوان الى عاصمة الملك سيفاكس ليسترضيهُ ويحملهُ على محالفة القرطجنيين فسرَّ هذا الامير ان يرى في بلاطهِ قائدي اعظم واقدر امم الدنيا يتباريان في مصادقتهِ فدعاهما الى الطعام فجلسا الى مائدتهِ ويلوح ان اسدربال قد اعجبهُ حديث سيبيو وفصاحتهُ وذكاه فقال لا بدع ان خسر القرطجنيون املاكهم الاسبانية ولكن العجب كل العجب في استطاعتهم المحافظة على افريقيا . وقدر البطل الروماني على محالفة سيفاكس فعاهده وارتد راجعًا من حيث اتى

وعلم سيبيو ان الوسيلة الوحيدة لاذلال قرطجنة واخضاعها لسلطة الرومانيين

هي محاربتها في بلادها الافريقية لان وجود جنود غريبة هناك يثير لا محالة حلفاءها والامم الخاضعة لها التي تطلب فرصة للانتقام منها كيف لا وان عدوك من صديقك مستفاد فطلب الى المجلس ان ياذن لهُ في ذلك فبعد مذاكرات طويلة لا محل لاستقصائها هنا عين قنصلاً وسمح لهُ بالذهاب الى سيسليا ومنها الى افريقيا فجهز الجنود اللازمة ورحل اليها سنة ٢٠٣ ق.م وكان سيفاكس النومدي قد نقض العهد وحالف القرطجنيين فنهض بعساكره واتى مع اسدربال القائد القرطجني لمحاربة الرومانيين ولما كان الاعداء لا يحرسون معسكرهم في الليل كما يجب ارسل سيبيو ليليوس احد قواده وامرهُ ان يحرق معسكر سيفاكس فانفذ هذا القائد النشيط ما امر بهِ وحرق خيام الجيوش النوميدية فمات عدد عديد منها بالنار والسيف ونظر القرطجنيون نارًا مشبوبة فلم يعلموا ما سببها فبادروا حالاً لمساعدة حلفائهم النوميديين وكان سيبيو واقفاً لهم بالمرصاد فهجم عليهم بغتةً وما زال يطعنهم حتى قتل منهم كثيرين وشتت الباقين في تلك البيداء ثم تقدم الى معسكرهم وحرقهُ كما حرق الاول ولم ينجُ من ذلك الجيش العرمرم سوى الفي راجل وخمسمائة فارس ولوا هاربين الى قرطجنة

وركب ليليوس مع الملك مسينيسا النوميدي الذي حالف الرومانيين وجدا في المسير ليحاربا سيفاكس فافتتحا مملكتهُ وقاداهُ اسيرًا مع احد اولاده وارسلاهُ الى سيبيو مكبلاً بالسلاسل والقيود فسالهُ القائد الروماني لماذا نقض عهدهُ وحارب امة حالفها قبلاً اجابهُ سبب ذلك الجنون لانني احببت امرأة قرطجنية تزوجتها فاخضعتني لسلطان هواها واكرهتني على مقاتلة صديق قريته واكرمته فانا على ذلك نادمٌ واطلب المعذرة

وحدث ان مسينيسا بعد انتصاره على سيفاكس دخل مدينة سيرتا عاصمة مملكتهِ فلقيتهُ امرأتهُ سوفونيزبا بنة اسدربال القرطجني التي مرَّ ذكرها وخرّت ساجدة وقالت لهُ قد خضت ايها البطل عجاج الحرب وخرجت

منها ظافرًا غانمًا بحول الآلهة فهلاَّ تجيب طلب اسيرة جاثية عند قدميك وترغب اليك بذل ان تشفق عليها ولا تسلها الى اعدآء امتها الرومانيين واذا كنت لا تستطيع انقاذها فاضرب عنقها بسيفك البتار لانهُ خيرٌ لها ان تشرب كاس الحمام من حسام نوميدي افريقي من ان تجل وتنال الفخار من اعدائها الغربآء ثم قبضت على يده واخذت تقبل قدميه فاهاجت في قلبهِ عوامل الحب والغرام لانها كانت خودًا رداحًا تفتن الالباب بمعاني جمالها الباهر فاقترن بهامسينيسا حالاً غير فاكر بعاقبة ما عمل لكونها اسيرة رومانية لا يحق لهُ التزوج بها قبل ان ياذن بذلك سيبيو الذي بلغهُ هذا الامر فقلق جدًا وخاف من دهاَء هذه المحتالة التي لا بد ان تتغلب على زوجها هذا كما تغلبت على زوجها الاول وتغريهِ بمحالفة القرطجنيين ومحاربة الرومانيين

ولما حضر مسينيسا الى المعسكر خلا معهُ سيبيو وقال لهُ لاريب ان صفاتي الحسنة هي التي حملتك على مصادقتي ومحالفة مواطنيَّ ولكن احسن تلك الصفات وافضلها هي القناعة والزهد فاود ايها البطل لو تتخذ هذه السجية شعارًا لان عدوَّك الشاكّ السلاح هو اقل خطرًا لك من الملذات وان الذي يملك شهوتهُ لا فضل ممن يفتح المدائن والحصون ومعلوم ان سيفاكس قد ذل للراية الرومانية فامرأتهُ ومملكتهُ واراضيهِ وكل ما يملك هو للرومانيين فانتبه ايها الشهم لما فعلت وما تفعل واحذر من تدنيس ثوب كمالك بامر يلحقك منهُ الشين والشنار

فعلت وجه الامير النوميدي حمرة الخجل واغرورقت عيناهُ بالدموع ثم انصرف الى سرادقهِ واخذ في النحيب وهو يكتب لامرأتهِ ما يأتي . كان بودي ايتها الحبيبة ان اقوم بجميع ما تقتضيهِ واجبات الزواج ولكن قد حال دون ذلك موانع وعليهِ فانني اني بوعدي لك الاَّ اسلمك الى الرومانيين وانت في قيد الحيوة واظنك لا ترفضين اجراَء امر فيهِ صيانة شرفك

وصينك من العار وختم كتابهُ ودفعهُ الى عبد اعطاه سمًا زعافًا ليسلمهُ اليها فاخذت الملكة الكتاب والسم وقالت اني راضية بهذا الصداق اذا كان زوجي لا يمكنهُ منحي غيره ولكن كان اولى لي الاَّ اقترن باحد وانا عازمة على الموت ثم سفت السم المرسل اليها ووقعت في الحال على الارض لا حراك لها

وارسل سيبيو بعد ذلك سيفاكس الى رومية فامر المجلس بحبسهِ وعين مسينيسا ملكًا على كل اقليم نوميديا و بعث اليهِ بهدايا كثيرة دلالة على اعتباره وصداقتهِ لهُ

وكأن نصرة سيبيو على اسدر بال قد هدت من القرطجنيين الاركان فارسلوا رسلاً الى ايطاليا يدعون انيبال الى الحضور حالاً قيل ان هذا البطل حينما بلغتهُ تلك الاوامر بكى وقال لم يغلبني الرومانيون بل المجلس القرطجني الذي رفض ارسال مدد اليَّ ثم ركب البحر وسار بجنوده وهو يلعن نفسهُ و يشكو الآلهة والناس وظل شاخصًا الى السواحل الايطالية حتى توارت عن ابصاره وحين وصولهِ الى قرطجنة اخذ في الاستعداد لمحاربة سيبيو الذي كان جائلاً في البلاد يفتح المدائن ويقهر الابطال فجهز العساكر وزحف الى مدينة زاما (الان زوارين) وطلب مقابلة القائد الروماني الذي اتى وعسكر بالقرب منهُ فتقابلا في مكان على مرأى من الجيشين و بقيا صامتين برهة لا يتكلمان من الدهشة اخيرًا خاطب أنيبال خصمهُ بهذه الكلمات

قد قضي عليَّ انا الذي فتح الحرب ونال نصرات عديدة ان آتي واخابرك بالسلام و يسرُّني جدًّا ان اطلب هذا الامر اليك واعلم علم اليقين انك ستفاخر ابطال وفرسان الدنيا لان أنيبال الشهير الذي ظفر على قوادٍ رومانيين كثيرين قد خضع لك وحدك

وبعد ان حذَّر سيبيو من الدهر وغدره قال لهُ اننا نخلي اسبانيا

وسيسيليا وسردنيا وكل الجزائر الواقعة بين ايطاليا وافريقيا ملكًا للرومانيين ولعمري ان صلحًا هذه شروطهُ يعود بالراحة علينا وبالفخر والنجاح عليكم ولا تخشَ خيانة القرطجنيين لانني انا أنيبال الذي يسالك الان السلام يسالك اياهُ لكونهِ ضروريًا لبلاده ولكونهِ ضروريًا سيحافظ عليهِ حتى المات

اجابهُ سيبيو ان هذه الشروط لا ترضى بها امة ظافرة بل من الواجب على القرطجنيين ان يخضعوا للرومانيين ليعاملوهم كما يشاءون او فليخوضوا عجاج الحرب لعلهم ينتصرون

حينئذٍ انفصل القائدان ورجع كل لمعسكرهِ ليستعد للكر والكفاح وفي الغد خرجت الجنود باكرًا واصطفت في تلك البطاح ثم حملت الرجال على الرجال واحتدمت نار الحرب وزاد سعيرها فانكسر القرطجنيون وانهزم انيبال مع بعض فرسان ودخل قرطجنة واعلن للمجلس والكبراء ان الصلح واجب فليسعوا في ابرامهِ فارسلوا الى سيبيو ثلثين سفيرًا من الشرفاء ليخابروهُ بذلك فرضي باجابتهم الى ما طلبوهُ بالشروط الآتية

اولاً . يملك القرطجنيون المدائن والاقاليم الافريقية التي كانت لهم قبل الحرب

ثانيًا . يسلم القرطجنيون الى الرومانيين اسراء الحرب والعساكر الذين فروا والعبيد الآبقين

ثالثًا . يسلمون اليهم ايضًا جميع سفنهم الحربية ما خلا عشرًا وجميع افيالهم ولا يسمح لهم باقتناء هذه الحيوانات فيما بعد

رابعًا . لا يحاربون احدًا في افريقيا او خارجها بلا اذن الشعب الروماني

خامسًا . يردون على مسينيسا ما سلبوهُ اياه ويحالفونهُ

سادسًا . ينقدون الرومانيين بمدى خمسين سنة عشرة الاف زنة فضة (نحو

مليون واحد وتسعمائة وسبعة وثلثين الفًا وخمسمائة ليرة انكليزية)
سابعًا . يسلمون الى سيبيو رهائن مائة رجل لا يكون عمر اصغرهم اقل
من اربع عشرة سنة واكبرهم اكثر من ثلثين

وذهب السفرآء الى رومية يعرضون هذه الشروط لمجلسها ويطلبون
اليه توقيعها فصدق عليها المجلس وصرف الرسل القرطجنيين فانقلبوا الى
بلادهم راجعين

وعاد سيبيو الى ايطاليا ودخلها بالاكرام وكان الناس يزدحمون في
الطريق التي يمر بها ليروا مخلص الوطن ودعي من ذلك الحين بالافريقي
تذكارًا لاعماله ونصراته التي رفعته الى ذرى المجد واوج الفخار

الباب الخامس

من انتهآء الحرب القرطجنية الثانية
سنة ٢٠١ الى حين انتهآء الحرب الثالثة
وخراب مدينة قرطجنة سنة ١٤٦ ق.م
او
من سنة ٥٥٣ الى سنة ٦٠٧ ب.ر

الفصل الاول

ان ضعف الجمهورية القرطجنية خوّل الرومانيين الاولى انتصروا
عليها سلطة عظيمة فاصبحوا مرهوبي الجانب يخافهم جميع امم الارض ولا
يخافون هم احدًا وكانوا منتبهين للحوادث يرقبونها بعين بصيرة وعقل

خبير جاهدين في توسيع نطاق املاكهم بسائر الاقطار ومتذرعين لذلك باسباب طفيفة لا تستوجب اثارة الحروب وسفك الدماء لو لم يكن وراء تلك تلك الاسباب اغراض سياسية واطماع أشعبية

وكانت الدولة المكدونية اقوى الولاية اليونانية واقربها من ايطاليا وكان لها منذ ايام فليبس الثاني ابي اسكندر الكبير حق السيادة بين اليونانيين فعمد الرومانيون الى اذلالها ليتسنى لهم ولوج المدائن الآسيوية والتمتع بطيباتهـا واموالها واثاروا عليها سنة ٢٠٠ ق.م حربًا عوانًا دامت ثلث سنوات محتجين انهم نهضوا لنصرة الآثينيين والروديين وغيرهم فقهروا ملكها فيلبس الخامس مرارًا واكرهوهُ على ابرام الصلح بالشروط الآتية

اولاً . جميع اليونانيين الساكنين في اوربا وآسيا يكونون احراراً مستقلين

ثانيًا . يخلي فيلبس قبل اوان الالعاب الكورنثية كل المدائن اليونانية التي لهُ فيها جنود

ثالثًا . يسلم الى الرومانيين كل سفنهِ الكبيرة ماخلا خمسًا

رابعًا . لايكون لهُ اكثر من خمسة الاف جندي و لا يسمح له باقتناء افيال ولا اثارة حرب خارج مكدونية الا باذن الشعب الروماني (هكذا روى لفيوس وعهدة ذلك على الراوي)

خامسًا . ينقد الرومانيين الف زنة نصفها عاجلاً والنصف الاخر بمدى عشر سنوات

ولما أعلنت هذه العهدة لليونانيين سروا جدًا وشكروا للرومانيين الاولى سفكوا دماء ابطالهم ليمنحوهم الحرية والسلام غير محرزين سوى الفخر بانهم اضعفوا المكدونيين وغدوا منقذي الامم الألينية من ربقة الخضوع لهم على اننا اذا تاملنا في الامر نجد ان الرومانيين لم يفعلوا ما فعلوهُ عن إشهامة واخلاص ولكنهم ادركوا صعوبة اخضاع هولاء الاقوام الذين

يحبون الحرية ويفدونها بالنفوس فمهدوا بما اجروه سبل الاستيلاء على بلادهم في المستقبل

وفي سنة ١٩٢ ق . م حارب الرومانيين انطيخوس الكبير ملك سوريا الذي اعتدى على البلاد التراكية واليونانية وقهروه بالقرب من مضيق ثرموبيلي وفي مواقع اخرى واكرهوهُ على تخلية المدائن والاراضي الواقعة وراء جبل طورس ودفع خمس عشرة زنة آبية (نحو مليونين وتسعمائة وستة الآف ومائتين وخمسين ليرة انكليزية) بمدى اثنتي عشرة سنة وطرد انيبال القرطجني من بلاده لانهُ لجيء اليهِ بعد نفيهِ من وطنهِ واغراهُ بمحاربة الرومانيين وكان ذلك على يد سيبيو الافريقي واخيهِ لوسيوس الذي دعي الاسيوي لسبب نصراتهِ في هذه الحرب بالديار الاسيوية وحدث في هذه الاثناء ان سيبيو الافريقي ذهب الى افسس ليقابل انطيخوس فلقي انيبال هناك فبعد ان تذاكرا مليًا سال سيبيو خصمهُ من هو الرجل الذي يظنهُ اعظم قائد وجد في الدنيا

اجابهُ القرطجني هو اسكندر الكبير

— ومن هو الثاني

— بيرس

— ومن هو الثالث

— قال لهُ انيبال على الفور انا هو

— فعجب سيبيو من كلامهِ وسالهُ قائلا اي رتبة كنت تستحق لو غلبتني

— اجابهُ حينئذٍ كنت اعظم من اسكندر وبيرس وجميع قواد العالم

وعند عودتهِ الى رومية اتهمهُ وكيلا الشعب انهُ اخذ رشوة من انطيخوس وسلب واخاهُ اموالاً للجمهور وطلبا اليهِ ان يقدم حسابًا مدققًا فنهض سيبيو ومسك بيدهِ سجلاً وقال للحضور بهذا السجل ترون حساب الاموال والغنائم التي حزتها قال لهُ الوكيلان اقراْ اذًا ما كتبتهُ فيهِ اجابهما عارٌ عليَّ

ان افعل ذلك ثم مزق السجل اربًا اربًا وطرحهُ امامها ولما كان الوكيلان مصممين على تغريمهِ التفت الى الشعب وقال لهُ بمثل هذا اليوم ايها الرومانيون قد غلبت انيبال والقرطجنيين فلنبادر الى الكابيتولينوس ولنشكر جوبيتر على ما اولانا من النعم فاثر كلامهُ بالجمهور الواقف وتبعهُ الجميع الى الهيكل اما اخوهُ الاسيوي فغرم بدفع مقدار وافر من الدراهم وبيعت امتعتهُ واملاكهُ لوفاء تلك الغرامة فكان جزاؤُهُ من مواطنيهِ كجزاء سمار

وفي سنة ١٨٣ ق.م قضى انيبال القائد القرطجني الشهير نحبهُ ببلاد بيثينيا لان الرومانيين ارسلوا رسلاً الى ملكها يطلبون تسليمهُ اليهم فخوفًا من ان يقع في ايدي اعدائهِ شرب سماً ومات

وكان فيلبس ملك مكدونيا منذ انتصار الرومانيين عليهِ لا يألو جهدًا في الاستعداد لمحاربتهم والانتقام منهم وقد حملهُ بغضهُ الشديد لهم على قتل ابنهِ الاصغر دمتريوس الذي كان يحبهم ويثني عليهم جهرًا في كل مكان وفي سنة ١٧٨ ق.م مات هذا الملك وخلفهُ ابنهُ برسيوس الذي كان اشد عداوة لهم من ابيهِ فنشبت من جراء ذلك الحرب المكدونية الثانية سنة ١٧١ ق.م ودامت اربع سنوات وكانت نتيجتها استيلاء الرومانيين على البلاد وجعلها ولاية رومانية وهكذا انقرضت الدولة المكدونية بعد ما سادت زمنًا طويلاً واستولت في ايام اسكندر على اكثر الممالك المعروفة

ثم اخضع الرومانيون الايبريين ومن يجاورهم وقهروا الغاليين الذين اعانوا انيبال وجعلوا بلادهم ولاية رومانية ودعوها غاليا سيزالبية اي الواقعة داخل جبال الالب

الفصل الثاني

في الحرب القرطجنية الثالثة

ان الجمهورية الرومانية لم تكن راضية عن القرطجنيين الذين البسوها ثوب العار بدخولهم بلادها وقهرها مرارًا ولم يشف غليلهـا ذل هذه الامة وخضوعها لها بل كان بودها لو تجعل مدينة قرطجنة خرابًا ينعق فيها البوم وتاوي اليها الوحوش لا سيما الان وقد قويت شوكتها وتسلطت على اقاليم كثيرة واسعة شاسعة

وحدث ان الملك مسينيسا اعتدى على القرطجنيين واستولى على بلاد لهم فارسل مجلس رومية سفرآء الى افريقيا لينظروا في هذا الامر وكان من جملتهم رجل اسمهُ كاتو الكبير شهير بالزهد وحب العيشة الخشنة لظنهِ ان هذه هي الطريقة الوحيدة لاحراز المجد والفخار ولما رجع كاتو الى رومية اخبر المجلس ان القرطجنيين اصبحوا اغنيآء وقادرين وحرضهُ على محاربة هذه المدينة وخربها واحضر من تلك الديار تينًا كبيرًا جدًّا واراهُ الآبآء اعضآء المجلس وهم مجتمعون وقال لهم ان البلاد التي توجد بها هذه الاثمار هي على بعد ثلثة ايام من رومية ومن ذلك الحين لم يكن يتكلم في المجلس عن امر الا ويقول في عرض الكلام اظن خراب قرطجنة واجبًا

ولما كان القتال منتشبًا بين مسينيسا والقرطجنيين اتخذ الرومانيون ذلك ذريعة للمجاهرة بالعدوان وارسلوا الى افريقيا سنة ٢٤٨ ق.م ثمانين الف راجل واربعة الاف فارس فقلق القرطجنيون وبعثوا سفرآء الى رومية يسترضون مجلسها فاجابهم المجلس انهُ يمنحهم الحرية والاستقلال بشرط ان يعطوا القنصلين قائدي الجيوش رهائن ثلثمائة فتى شريف ويخضعوا بطاعة

عمياء لكل ما يامرانهم بهِ وكان القنصلان وقتئذٍ في سيسيليا مستعدين لركوب البحر حينما وصلت اليهما الرهائن القرطجنية فاجابا الرسل انهما يعلمان القرطجنيين ما يريدان حينما يحضران الى افريقيا

ثم اسرعا بالمسير ووصلا الى اتيكا (الان ابو شاطر) فلقيا هناك سفراء قرطجنيين اتوا ليسترضوهما فخاطبوهما بما معناه اننا نجهل الذنب الذي جنيناهُ والاسباب التي حملت الرومانيين على غزونا بهذا الجيش العرمرم الم ننقدهم الجزية تماماً جاهدين بعمل كل ما يرضيهم واذا كانت الحرب التي جرت بيننا وبين مسينيسا قد اغضبتهم الم ينظروا كيف احتملنا اعتداءهُ بصبر عظيم ورضينا اخيرًا باناالتهِ ما طلبهُ . ولو فرض ان محاربتنا النوميديين دفاعًا عن وطننا هي ذنب الم نكفر عن هذا الذنب بتسليم انفسنا وبلادنا الى الشعب الروماني ومبادرتنا الى اعطاء الرهائن المطلوبة حسب امر المجلس قال لهم حينئذٍ احد القنصلين اذا كنتم ترغبون في السلام احضروا لنا حالاً جميع الاسلحة الموجودة في مدينتكم لانها لا تفيدكم شيئًا فانقاد القرطجنيون لامره صاغرين وبعثوا الى المعسكر الروماني بمائتي الف مجن ورماح وحراب لا تحصى واتى ايضًا الكهنة والكبراء بهيئة ذليلة ليحركوا الشفقة في قلوب الرومانيين فنهض احد القنصلين وقال لهم انني اشكركم ايها القرطجنيون لاذعانكم لاوامرنا وتسليمكم الينا حالاً جميع ما طلبناه غير انهُ يجب عليكم الان ان تغادروا مدينتكم وتنتقلوا الى اي مكان اردتموهُ من بلادكم بشرط ان تبعدوا عشرة اميال عن السواحل لاننا قد صممنا على هدم قرطجنة ودك اسوارها

وحينما سمع القرطجنيون الحاضرون كلام القنصل طار الشرار من اعينهم ومزقوا ثيابهم من الحنق والقنوط ووقعوا على الارض يضربونها برؤوسهم ثم اقبلوا الى القنصلين وهم يذرفون الدموع كالمطر وسالوهما ان يشفقا عليهم ويرحما قومًا اصبحوا كالطفل الصغير لا يستطيعون خيرًا ولا

شرًّا فلم ينالوا بتوسلاتهم وتذللهم شيئًا فانكفوا الى المدينة واخبروا الشعب
بما كان فاخذ الجميع بالبكآء والعويل وماجت الارض باقدام الرجال
والنسآء والاولاد لانهم كانوا يسرعون لاستعلام الاخبار ويثنون بالكآبة
واليأس فلا يعلمون اين هم ولا الى اين يذهبون . غير ان بعضًا من
الكبرآء العاقلين علم كالباقين عظم الاخطار المحيطة بهم ولكنهُ آثر الموت
شريفًا في ساحة الحرب على الحيوة بالذل والعار فامر بايصاد ابواب المدينة
وجمع احجار على الاسوار لرمي المحاصرين فنشط فعلهُ هذا الاهلين الذين
اقدموا على القتال بشجاعة وحمية آملين النجاة او الموت في ساحة الحرب
فدآء الوطن واعتقوا عبيدهم في ذالك النهار ليعينوهم ويقاتلوا مثلهم ببسالة

وكان القرطجنيون قد نفوا من المدينة احد قوادهم العظام المدعو
اسدربال ارضآء للرومانيين لانهُ هو الذي حارب مسينيسا النوميدي
وكان هذا القائد محتلاً وقتئذٍ مع جيش يبلغ عددهُ عشرين الف راجل
مكانًا قريبًا من قرطجنة فارجعوه الى المدينة وشرعوا يستعدون للقتال وجعلوا
الهياكل والمحالّ العمومية الواسعة معامل اسلحة واقبلوا جميعًا رجالاً ونسآء
شيوخًا واحداثًا يشتغلون ليلاً ونهارًا لتجهيز العدد اللازمة فكانوا يعملون
في كل يوم مائة واربعين مجنًا وثلثمائة حسام وخمسمائة رمح والف حربة
وقصت النسآء شعورهن وصنعنها حبالاً للآلات الحربية

ولم يكن القنصلان عالمين بما هو جارٍ داخل المدينة فتقدما بعزم
وامل وطيد لمحاصرتها ظانين انهما يستوليان عليها بسهولة ولكنهما ذهلا حينما
رايا الاهلين شاكين السلاح ومستعدين للحرب والدفاع فهاجماهم مرارًا
وارتدا عن الاسوار بالخيبة والفشل ولم يكن حظ القائدين اللذين خلفاهما
باسعد من حظهما لان القرطجنيين كانوا يحاربون اعدآءهم حرب من استمات
ويهجمون عليهم هجوم اللبوة على من رام خطف اشبالها كيف لا وهم يدافعون
عن نسائهم واولادهم وعن حريتهم التي هي اثمن شيء لهم في العالم فدامت

الحرب اكثر من سنتين ولم تنتهِ الا على يد سيبيو اميليانوس بن سيبيو الذي غلب برسيوس ملك مكدونية فذهب هذا القائد الفتي الى افريقيا واصلح نظام الجيش وشدد الحصار وفي ربيع سنة ١٤٦ ق . م استولى بفرقة من جنوده على احد الاسوار ودخل المدينة فقامت الحرب في الشوارع والمنازل على قدم وساق وبقي القتال او القتل ستة ايام ولم يسلم من سكان قرطجنة الكثير بن البالغ عددهم سبعمائة الف نفس سوى خمسين الفًا لبسوا لباس الذل واتوا معسكر الرومانيين يطلبون الامان فاستحياهم سيبيو وباعهم عبيدًا

وكان في المدينة تسعمائة رجل روماني قد هربوا من معسكرهم ولجئوا اليها فعلموا علم اليقين انهُ لا نجاة ولا امان لهم في جميع الاقطار فدخلوا مع اسدر بال القائد القرطجني الى هيكل وصمموا على حرقهِ والموت فيهِ اختيارًا غير ان اسدر بال خرج من الهيكل سرًّا واتى البر وقنصل حاملاً غصن زيتون دليل السلام واستسلم لهُ فاجلسهُ سيبيو عند قدميهِ واراهُ للقوم المحصورين في المعبد فلما ابصروه اخذوا يشتمونهُ ويلعنونهُ ثم اشعلوا نارهم وماتوا . قيل ان امرأة اسدر بال صعدت الى سطح الهيكل ونادت سيبيو ورغبت اليهِ ان يقاص زوجها الخائن ثم خاطبت بعلها قائلة ايها الرجل اللئيم الجبان الدنيء ان النار التي تنظرها مشتعلة ستميتني قريبًا مع بنيَّ فنروح من هذه الدنيا مزودين بالفخار ولست اراك مؤثرًا الحيوة على الممات الا لتزيد مجد من انت جالس عند قدميهِ وتذوق منهُ عذابًا اليماً

وحينما استولى الرومانيون على قرطجنة امر المجلس بهدمها تمامًا وهدم كل المدائن التي حاربتها واعطاء اراضيها لحلفاء رومية وجعل البلاد التي كانت خاضعة للجمهورية الافريقية ولاية رومانية فانفذ سيبيو تلك الاوامر وعاد الى رومية حيث احتفل بنصرتهِ ولقب بالافريقي

قال احد المؤرخين ان سيبيو الكبير قد مهد سبل عظمة الرومانيين

اما سيبيو الصغير فقد فتح لهم باب التنعم والترف لانهم لما امنوا شر القرطجنيين اهملوا تلك الصفات الحسنة التي اوصلتهم الى هذه الدرجة العليا من سلم الفضيلة والفخر وتهوروا في مهاوي الرذائل

الباب السادس

من حين انتهاء الحرب القرطجنية الثالثة سنة ١٤٦
الى اقامة الحكومة الثلاثية الاولى سنة ٦٠ ق٠م

او

من سنة ٦٠٧ الى ٦٩٣ ب٠ر

الفصل الاول

لاريب ان داب الرومانيين توسيع نطاق سلطتهم باية وسيلة يرونها موافقة لهذه الغاية فلا يهمهم لذلك رعاية صداقة وحفظ ذمام لانهم بعد ما هدموا مدينة قرطجنة وخربوا تلك الجمهورية الافريقية العظيمة بزمان قليل هدوا اركان الحكومة الاخائية اليونانية وحرقوا مدينة كورنثوس عاصمة البلاد وسبب ذلك انهُ تنازع الاهلون في امور طفيفة وابوا الانقياد لما امر بهِ المجلس الروماني واضرموا نار الحرب الاهلية فحاربهم الرومانيون وقهروهم وخربوا مدائنهم الحصينة وجعلوا البلاد اليونانية ولاية رومانية

وكان الاسبانيون القدماء شجعانًا يحبون الحرب والغارات ويانفون من الخضوع للغرباء فنهضوا لقتال الرومانيين مرارًا وقهروهم في وقائع كثيرة ودامت هذه الفتن مدة مديدة لجهل او جبن قواد الجمهورية في تلك الديار وبسالة وحكمة فيرياتس رئيس الثائرين الذي قتلهُ

الرومانيون اغنيالاً سنة ١٤١ ق.م ومما يشهد لاولئك الاقوام بالجسارة والباس هو ان نيمانسا احدى المدائن الاسبانية الحصينة قدرت وحدها ان ترد هجمات المحاصرين وان تستظهر على ابطال دانت لهم امم الارض صاغرة فاقام الشعب سنة ١٣٢ ق.م قنصلاً وقائداً الجيوش ذلك الاقليم سيبيو الذي خرب قرطجنة لانهُ كان احسن رجلٍ قادرٍ على اخضاع العصاة واحياءِ الشجاعة بقلوب الجنود

ولما وصل هذا القائد البطل الى اسبانيا وجد العساكر الرومانية هناك بلا ترتيب ولا نظام لا تعرف الانقياد للرؤساء ولا الاذعان لاوامرهم وكانت منغمسة بالتنعم والملذات كانها اتت للتنزه لا للكر والكفاح فعلم القنصل انهُ من الواجب عليهِ قبل ان يحارب الاعداء ويقهرهم ان يصلح احوال الجنود ويكرههم على الخضوع لاوامره بطاعة عمياء فمنعهم عن التانق بالماكل والمشرب وطرد من المعسكر الباعة والخدام والنساء العواهر ولم يترك للجندي غير مرجل وفراش محشوّ اوراق شجرٍ او تبنًا وعوّد هولاء الرجال الاتعاب والصبر عليها

وفي ذلك الاوان ارسل اليهِ مسينيسا ملك نوميديا مدّدا مع ابن اخيهِ يوغرتا الفارس المغوار الذي لهُ في تاريخ الرومانيين شان عظيم والذي سنفرد لذكر اعمالهِ الفصل الثاني من هذا الباب:

وكان سيبيو يرغب اجتناب قتال النيمانسيين ما امكن لانهُ رأى الجوع خير جيش واحسن سلاح يفتح بهما تلك المدينة بلا عناءٍ فشدد عليها الحصار ومنع المدد والقوت من الوصول اليها فضاق الاهلون ذرعًا وارسلوا اليهِ رسلاً يسألونهُ السلام بشرط ان يعاملهم بالرفق والاحسان فمثل السفراءُ لديهِ ونهض رئيسهم وعرض لهُ حاجتهم بعبارات وجيزة اعربت عن مدح مواطنيهِ واطراءِ بسالتهم وعقب ذلك بقولهِ ان النيمانسيين وان كانوا تعساءَ الان ليسوا بمذنبين لانهم اقدموا على سفك دمائهم دفاعًا عن نسائهم واولادهم

واستقلال بلادهم فمن العدل ايها البطل ان ترحم شجعانًا يرومون الاستسلام الك وإن ابيت فدعهم يحاربونك ويموتون كرجال في ساحة القتال . اجابهم سيبيو لا سلام الاَّ بتسليمكم اليَّ سلاحكم ومدينتكم وانفسكم فرفض النيانسيون اجابته الى ما طلب وفضلوا الموت على حيوة ذليلة واخذوا في الاستعداد للقتال ثم خرجوا من مدينتهم وهجموا على متاريس الرومانيين فهلك منهم عدد عديد وارتد الباقون بالفشل ولما خاب املهم من النجاة حرقوا سلاحهم وامتعتهم ومنازلهم وقضوا نحبهم جميعًا بالجوع او السيف او السم او النار ولم يتركوا للظافرين من المدينة سوى اسمها فدخلها سيبيو وامر بهدم الاسوار والمنازل القليلة الباقية وعاد الى رومية واحتفل بنصرته فيها

بينما كان سيبيو جاهدًا في اخضاع مدينة نيانسا والاستيلاء عليها حدثت في رومية حوادث اقلقت الاهلين وفتحت بابًا جديدًا للفساد واهراق الدماء في الاجتماعات العمومية وسبب ذلك تيبيريوس وكايوس غراكس حفيدا سيبيو الافريقيّ الاول من ابنته كورنيليا اللذين كانا حاذقين نجيبين لا يحاكيان بالبلاغة ولا يجاريان بميدان الخطابة فنالا بين مواطنيهما مقامًا عاليًا وشهرة واسعة وانتخب تيبيريوس وكيلاً للشعب في هذه السنة

وكان من عوائد الرومانيين كما ابنَّا سابقًا انهم اذا افتتحوا بلادًا او اخضعوا امة بايطاليا ياخذون قسماً من اراضي تلك البلاد يبيعون نصفهُ قيامًا بنفقات الحرب ويعطون النصف الآخر للفقراء باجرة طفيفة ليحرثوهُ ويقتاتوا من غلالهِ غيران الاغنياء والكبراء قدروا بالخبث والدهاء ان يختلسوا الاراضي المذكورة ويحرموا المحتاجين وسائل الراحة والهناء فحمل ذلك لشينيوس ستولو ان يقترح القانون العقاري الذي مرَّ ذكرهُ صفحة ٦٢ والذي بعد ان صدق عليهِ المجلس وعمل بموجبهِ مدة من الزمان أُهمل وطوته يد النسيان وكان هولاء الكبراء يستخدمون لحرث حقولهم

وبساتينهم الكثيرة عبيداً وغرباء لا يهمهم تقدم الجمهورية ويفرحون بخرابها

ونظر تيبيريوس الى حالة الوطنيين الاحرار نظرة آسف على حالتهم التعيسة ومشفق منهم فاراد احياء القانون العقاري وكاشف بذلك بعض اصدقائه الاصفياء فوافقوهُ وعولوا على مساعدته لارجاع هذا القانون واجرائه

وعلم بما جرى الشرفاء والاغنياء فحنقوا وهاجوا ولعنوا تيبيريوس وقالوا انهُ ظالم معتدٍ يريد القاء الفتن لنيل امر يسرُّ بهِ الى اصدقائه واعوانه او يكتمهُ من الجميع اما الفقراء فكانوا مثقلين بسلاسل الحاجة والتعاسة لا يستطيعون الزواج لاحياء نسلهم وان تزوجوا لا يمكنهم القيام باود عائلتهم وتربية اولادهم فتذكروا تلك الحروب التي خاضوا عجاجها والمعامع التي ابصروا الاهوال فيها دفاعًا عن الجمهورية واعلاء لمنار مجدها وراوا انهم جوزوا على بسالتهم وافعالهم هذه بان كان الفقر لهم نصيبًا وحرموا قطعة ارض يحرثونها ويتقوتون بغلالها وزاد العظماء ظلمهم ظلمًا بان منعوهم من الشغل مفضلين العبيد عليهم فاصبحوا وهم احرارٌ اشقى من الاولى خسروا الحرية وحقوقهم المدنية

وحينما اجتمع الشعب للنظر في امر القانون نهض تيبيريوس واندفع يتكلم ببلاغة تفتن الالباب وتسلب القلوب ثم التفت الى الاغنياء وقال لهم انّى تفضلون يا قوم العبيد على الوطنيين والذين لا يجوز تجندهم على الاولى يسفكون دماءهم فداء الوطن ان وحوش ايطاليا لها كهوف واغوار تلجأُ اليها اما الرجال الذين يخاطرون بارواحهم لحمايتكم لا يملكون سوى النور والهواء السمّ تنظر وتهم يطوفون الاسياء بنسائهم واولادهم ليجدوا مكانًا يأوونهُ فلا ريب ان القواد يسخرون من الجنود بتحريضهم على اقتحام الاخطار لصون مدافنهم ومذابحهم الاهلية لانهُ لا يوجد احد منهم لهُ مذبح

اومدفن فبالحقيقة انهم يحاربون ويموتون دفاعًا عن ثروة الآخرين ومن العجب العجاب انهم يدعون سادة الارض وهم لا يملكون منها قدمًا واحدة

فاذهلت فصاحتهُ وحجتهُ الدامغة الحاضرين فلم ينطقوا ببنت شفة بل انصرفوا متعجبين وكان المجلس والشرفاء يحاولون اهلاكهُ واحباط اعماله فبينما كان يخطب مرة في محفل حافل وقد زاد الضجيج واللغط حتى ان صوتهُ لم يكن الجميع بسمعونهُ وضع يدهُ على راسهِ مشيرًا للناس ان بعضًا يريد قتلهُ فاوّل اعداوءهُ تلك الاشارة بانهُ يطلب الى الجمهور اكليل الملك فانقض عليهِ سيبيو نزيكا احد انسبائهِ وكثير من الشرفاء وقتلوهُ مع ثلثمائة رجل من اصدقائهِ

وكان كايوس اخوهُ فتيًّا فلم يشترك معهُ في هذه المؤامرة بل قضى سنوات عديدة ساكنًا لا يبدي حراكًا ولا يظهر رغبة في الانتقام من اعداء اخيهِ وقاتليهِ غير انهُ لما استتب لهُ الامر واصبح قادرًا على اجراء اغراضهِ اعلن صداقتهُ للشعب وعداوتهُ للمجلس والكبراء واخذ يقترح قوانين وامورًا تحط سلطة العظماء فرغبوا وعمدوا الى اردائهِ بالطريقة التي قتلوا بها اخاهُ تيبيريوس وارسلوا لذلك القنصل اوبيميوس بفرقة من الجنود وحينما ابصر اعوانهُ الخطر المحيط بهم اركنوا الى الفرار فامر كايوس اذ ذاك احد عبيده ان يقتلهُ فطعنهُ ذلك العبد ثم طعن نفسهُ وخرّا كلاهما صريعين سنة ١٢١ ق.م وحيث ان اوبيميوس اقسم ان يعطي من يأتيهِ براس كايوس ذهبًا ثقلهُ اخذ رجل اسمهُ سبتيميليوس ذلك الراس ونزع دماغهُ وحشاهُ رصاصًا فنال لذلك سبعة عشر رطلاً ذهبًا

وحزن الشعب جدًّا على موت هذين الاخوين الفاضلين فاقاما لهما تمثالين في المكان الذي قتلا بهِ وكان كثيرون يأتون هناك ويصلون اما وكلاء العوام فذلوا بعد هذه الحادثة وفقدوا تلك الحمية التي طالما اشتهروا بها وغدا الكبراء والاغنياء قادرين لا يجسر احد ان يخالف لهم امرًا وكان

القانون العقاري قد دفن مع الغراكيين فاصبح نسيًا منسيًّا

وفي سنة ١٣١ ق.م ثارت حرب مهولة في سيسيليا وسببها ان الاغنياء هناك اشتروا عبيدًا كثيرين لحرث اراضيهم والاعتناء بها ولما كان اولئك العبيد لا يُعاملون معاملة حسنة ولا يعطون طعامًا كافيًا لهم كانوا يفتكون احيانًا بالاهلين وينهبون دائمًا ما يمكنهم نهبهُ وكان الولاة يغضون الطرف عن اعمالهم خوفًا من مواليهم الذين كانوا في الغالب فرسانًا رومانيين ذوي مقام رفيع فاتسع الخرق وزاد اولئك الاشرار جسارة وفجورًا حتى انهم تآمروا في خلع نير العبودية

وكان لرجل سيسيليّ عبدٌ سوريٌّ اسمهُ انيوس ذو فكر ثاقب ودهاء عظيم فادعى ان الآلهة تظهر لهُ في الحلم وتذاكرهُ بامور البشر فصدقهُ بعضهم وصار الناس ياتونهُ افواجًا ليستشيروهُ بامور خطيرة

وجاء اليهِ ذات يوم عبيد رجل قاسٍ من مدينة أنّا واخبروهُ انهم يريدون قتل مولاهم وسالوهُ اذا كانوا ينجحون في مسعاهم ام يخيبون اجابهم ان كل ما يرومون فعلهُ يرضي الالهة بشرط ان يباشروا الامر بسرعة ونشاط فاجتمع العبيد المذكورون وكان عددهم اربعمائة نفس واقاموهُ قائدًا عليهم وقصدوا مدينة أنا وقتلوا سكانها ونهبوا منازلها ثم نصبوهُ ملكًا ودعوهُ انطيوخوس وسموا هم انفسهم سوريين ولما علم ذلك العبيد الباقون هرعوا اليهِ جمًّا غفيرًا فقويت شوكتهُ وحارب ثلثة ولاة وقهرهم وشتت جنودهم في البلاد.

ولما استفحل امر العصاة بعث المجلس الى سيسيليا بقنصل وجيش عرمرم فقاتل القنصل العبيد بالقرب من مسّانا وقهرهم ولكنهم لم يخضعوا تمامًا الا في سنة ١٣٢ ق.م

الفصل الثاني

في حرب يوغرتا

ان مسينيسا الذي ملكهُ الرومانيون على بلاد نوميديا خلف ثلاثة بنين مات منهم اثنان وبقي ميسبسا الذي ملك بعد وفاة اخويهِ على جميع ذلك الاقليم وكان لهذا الامير غلامان وابن اخ اسمهُ يوغرتا احبهُ جداً واعتنى بتربيتهِ غاية الاعتناء

وكان يوغرتا جميلاً وشجاعاً لا يهاب الموت ويقتحم الاخطار بقلب ثابت كأنهُ ساع لنيل المنى ولقد الف ركوب الخيل وهو صغير فشب فارساً مغواراً لا يحاكى بخبرة الضرب والطعن ولا يجارى بميدان البسالة والاقدام وكان مع ذلك لطيفاً بشوشاً لا يعرف العُجْب والافتخار فاحبهُ جميع الفرسان والابطال ودانوا لهُ طائعين اختياراً

وكأنّ الملك قد تنبه من غفلتهِ وادرك ان يوغرتا لا بد يوماً ان يخلع ابنيهِ عن سرير الملك ويرتقيهِ بدلاً منهما فاراد الفتك بهِ اغتيالاً ولكنهُ خاف الشعب وخشي حدوث ثورة وفتن اهلية فارسلهُ بفرق من جنوده الى الديار الاسبانية ليساعد الرومانيين على افتتاح مدينة نيمانسيا آملاً ان شجاعتهُ توقعهُ بالمهالك . فاسرع يوغرتا الى ساحة القتال واظهر اذ ذاك من الباس والاقدام ما حير الابطال وسهل لهُ سبل التزلف من القواد العظام الذين اهاجوا في صدره حاسات الطمع بقولهم لهُ انهُ يمكنهُ الملك على البلاد النوميدية وارضاء الرومانيين ليغضوا الطرف عنهُ بالذهب الاصفر الرنان

ولما انتهت الحرب واراد سيبيو صرف الجنود التي اتت لمساعدتهِ دعا يوغرتا واثنى عليهِ ثناء طيباً ومنحهُ هدايا ثمينة وحرضهُ ان يكون صديقاً

صدوقًا للشعب الروماني وإلا يغفل عن عمل كل ما يرضيهِ ليحرز الفخر وينال المقام العالي ثم امره بالانصراف بعد ما اعطاه كتابًا الى ميسبسا هذا معناه

احيطك علمًا ان يوغرتا قائد جنودك قد اظهر في هذه الحرب فعالاً تحير الشجعان فساخبر بصفاتهِ الحسنة مجلس وشعب رومية ليحباهُ ويجلاهُ كما احبهُ واجلهُ انا وبناءً عليهِ اهنئك ببطل هو لا ريب اهل لان يكون ابن اخيك وحفيد مسينيسا العظيم

وعلم الملك استحالة اهلاك يوغرتا سرًا او علنًا واراد تلافي الخطب ومصادقتهُ فتبناهُ واشركهُ في الملك مع ابنيهِ الشرعيين وحينما حضرتهُ ساعة الوفاة ضمهُ الى صدره وسالهُ الا يحول عن العهد وان يتذكر احسانهُ اليهِ ويعامل ابنيهِ بمثل ذلك

وبعد ان دفن الملك المتوفى بالتجلة والتكريم اجتمع الامراءُ الثلاثة للنظر في امور المملكة واصلاح شؤونها المختلة وكان اصغر ولدي ميسبسا فتى حاذقًا نجيبًا يحتقر يوغرتا ويبغضهُ فاتى وجلس على يمين اخيهِ لئلا يكون ابن عمهِ في الوسط وهو محل يحفظ في الاجتماعات لذوي المكانة العالية ويدل في كل حال على الرئاسة فغضب يوغرتا ووغر صدره عليهِ لا سيما حينما قال انهُ يجب مراجعة الاوامر التي اصدرها ميسبسا في السنين الخمس الاخيرة اجابهُ ذلك الفتى نعم انا راضٍ بما تشير بهِ لان ابي قد تبناك في هذه المدة فاشعل هذا الكلام القاسي في قلب يوغرتا سعير الغضب وحب الانتقام وارسل رجالاً الى منزل ابن عمهِ فقتلوه بهِ ليلاً

وعلم النوميديون بما حدث فانقسموا الى قسمين حازب كل منهما احد الامراء وانتشبت لذلك الحرب بين الفريقين واحتدمت نار الفتن الاهلية ولما كان الفرسان والابطال يحبون يوغرتا لبسالتهِ انضموا اليهِ حالاً فتقدم بهم الى ساحات الضرب والطعان وافتتح المدائن واستولى على جميع البلاد

ورأى ادر بال بن ميسبسا فوز خصمهِ والاخطار التي اصبح محاطًا بها من كل جانب ففرَّ هاربًا الى ولاية رومانية ومن هناك اسرع بالذهاب الى رومية

وخشي يوغرتا غضب الرومانيين فارسل على الفور سفراء الى رومية واعطاهم الهدايا الثمينة والاموال الوافرة ليسترضوا الرؤساء ويرشوا القابضين على زمام الاحكام فنجح اولئك الرسل بالتزلف من الكبراء واستمالتهم لسيدهم وغض المجلس لذلك الطرف عن اعمالهِ القبيحة وامر بقسم المملكة بين الامير بن فنال المغتصب احسن القسمين واكبرها غير انهُ لم يرضَ بما حازهُ بل شن الغارة على ادر بال وبعد حروب طويلة استولى على مدائنهِ وامانهُ شر ميتة . فاغضب هذا الفعل الشعب الروماني وامر يوغرتا بالحضور الى رومية ليبرأ نفسهُ فيها فجاء اليها متكلاً على دراهمهِ ودناءة كبراء تلك المدينة ولقد كاد يظفر بالمنى لو لم يقتل هناك نوميديًا سليل مسينيسا اراد ان ينازعهُ الملك حينئذٍ اعلنهُ المجلس الحرب واوعز اليهِ ان يغادر ايطاليا حالاً قيل انهُ لما خرج من رومية فاه بهذه الكلمات ايتها المدينة المبنية على الفساد والرشوة انك على شفا الخراب ولا يعوزك غير مشترٍ يشتريك

واراد الرومانيون تاديب يوغرتا الظالم الطاغي فارسلوا الى افريقيا جيوشًا جرارة سنة ١١٠ ق . م واملوا ان يقمعوا بها ذلك الرجل المختال ولكن دناءة وطمع القواد حالا دون النجاح والبسا تلك الامة العظيمة ثوبًا من الذل والعار لان الملك النوميدي قدر ان يستميلهم بالدرهم الغرار فاهملوا واجباتهم وقضوا اياما كثيرة بالجولان بالبلاد بلا فائدة واخيرًا حينما رجع القنصل رئيس تلك الجنود الى رومية اغتنم يوغرتا الفرصة وحارب عساكرهُ وقهرهم واكرههم ان يمروا تحت النير دلالة على الذل والعبودية

ولما بلغت تلك الاخبار الشعب الروماني غضب جدًا وبعث سنة

١٠٩ ق.م ميتلوس مع جيش جهزه لهُ وكان هذا القائد خبيرًا بالفنون الحربية ورجلاً فاضلاً لا يؤثر شيئًا على خير امتهِ والبلاد فاتى افريقيا وباشر الحرب بهمة وحكمة فنال على عدوّهِ ظفرًا مبينًا واستولى على المدائن الحصينة ولقد كاد يذلل جميع المصاعب ويقبض على يوغرتا اسيرًا لولا ماريوس احد قواده الذي رغب في الارتقاء فحمل الرومانيين بدهائهِ ومكره على اقامتهِ قنصلاً وتقليده قيادة الجيش

وفي سنة ١٠٧ ق.م وصل ماريوس الى افريقيا واثار على النوميديين حربًا عوانًا فقهرهم مرارًا وشتت عساكرهم في البلاد واكره بوخس ملك موريتانيا وحما يوغرتا على العود من ساحة القتال وطلب السلام فارسل اليهِ خازنهُ سيلاً وهو رجل يقل نظيرهُ في الدنيا ودليل ذلك ما ستراهُ في هذا الكتاب عن اعمالهِ العظيمة التي تشهد لهُ بالبراعة والفطنة ولكن لا تبرئهُ من المكر الذي اتخذهُ شعارًا ولا تبيض سيرتهُ التي اسودتها قساوتهُ وجعلتهُ مثالاً للحقد وحب الانتقام .

وحينما قابل سيلاً الملك المغربي اخبرهُ ان المجلس الروماني يرضى بابرام الصلح معهُ بشرط ان يشتري السلام بخدمة مهمة ويسلم صهرهُ يوغرتا الى الرومانيين فتردد بوخس زمانًا طويلاً حتى انهُ عزم ان يقبض على سيلاً ويسلمهُ اسيرًا الى يوغرتا غير ان هذا البطل الروماني تغلب عليهِ بمكره ودهائهِ واراهُ جليًا ما وراء غدره من الاخطار وخوّفهُ من غضب الرومانيين فحملهُ على خيانة صهره الذي دعاهُ اليهِ محتجًا انهُ يريد مخابرتهُ ولما حضر قبض عليهِ وسلمهُ الى سيلاً مكبلاً بالقيود وهكذا انتهت هذه الحرب الشهيرة التي كان بودنا ان نتكلم عنها بالتفصيل حسبما روى ذلك سلست المورّخ اللاتيني البليغ لولا وجوب مراعاة المناسبة في الاخبار من حيث الاسهاب او الاختصار وخوفنا من ملل المطالعين في ديارنا العربية لانهم لم يعتادوا درس الحوادث القديمة بهمة ونشاط فينفروا من كثرة الاسماء الاعجمية وتستك مسامعهم

من الفاظها الوحشية فيتخذون ما نكتبهُ ورآءهم ظهريًا كما اتخذوا كتبًا اخرى تاريخية الفها او ترجمها بعض الفضلآء من ابنآء الوطن ولا ذنب على اولئك المؤلفين او المترجمين سوى انهم لم يبسطوا الكلام على الاخبار التي تستلفت انظار المتفكهين ولم يهملوا الحوادث القليلة الاهمية المملوءة بالالفاظ الغريبة التي يجب حصرها في الجداول التاريخية او تركها راسًا لانها من مباحث الاسفار المطولة . وهناك ايضًا ذنب اخر وهو ان بعض المترجمين غير مضطلع بلغتهِ التي يكتب فيها او ينقل اليها فيلتزم الترجمة الحرفية ويعسر عليهِ احيانًا فهم غرض المولف فياخذ في التاويل والتحريف وهو يخبط خبط عشوآء فياتي كلامهُ لغوًا وعباراتهُ خارجة عن حد التركيب المالوف وبعضهم يكون قليل المعرفة باللسان الذي يترجم منهُ فيتصرف بالمعاني وهو لا يدري

وكان سيلاَّ يفاخر ماريوس بنصرتهِ على الملك النوميدي حتى انهُ عمل خاتمًا نقش عليهِ صورتهُ وصورة باكخس آتيا يسلم اليهِ يوغرتا الذي أُحضر الى رومية ومشى امام مركبة القائد الظافر حينما احتفل بنصرتهِ ثم طرح بالسجن ومات فيهِ جوعًا

الفصل الثالث

في حرب السمبريين والتيتونيين والحرب الاهلية او الايطالية

ان تاريخ الشعب الروماني هو بالحقيقة سلسلة قتال وفتن فلا تكاد هذه الامة توصد باب حربٍ الا ويفتح الزمان لها ابوابًا لذلك لم يكن فرحها بانتصار ماريوس او قهر يوغرتا خالصًا من شوائب الكدر لان السمبريين والتيتونيين وهم قبيلتان ساكنتان في الجهة الشمالة من اوربا زحفوا الى الجنوب

بالقرب من جبال الالب واخذوا في تخريب ونهب البلاد الغالية فارسل المجلس الجيوش اللازمة لقمع هولاء البرابرة ولكن قواد تلك الجيوش كانوا جاهلين غير متفقين فانكسروا سنة ١٠٤ ق٠م كسرة مهولة لم يرَ الرومانيون نظيرها منذ تاسيس مدينتهم لان الاعداء قتلوا منهم ثمانين الف رجل واربعين الفًا من الخدام والتابعين غير ان هولاء الاقوام الظافرين لم ينتفعوا بنصرتهم بل طرحوا الذهب والفضة والامتعة الثمينة التي غنموها في النهر ومزقوا الثياب وكسروا السلاح واغرقوا الخيل وعلقوا الموتى باغصان الشجر وعوضًا عن ان يجتازوا جبال الالب ويدخلوا الى ايطاليا زحفوا الى اسبانيا فقهرهم هناك السلتبريون والجأوهم الى رجوع من حيث اتوا

ولا يمكننا تصور الكدر الذي استولى على الرومانيين حينما نعي لهم ذلك الجيش الجرار فهاجوا وامروا بخلع القائد عن منصبهِ وحجز املاكهِ ولا يخفى ان هذا الامر قصاص قاس لم يعاقب بهِ قائد قبلاً

ولم يرَ الشعب في هذا الضيق رجلاً اقدر من ماريوس على انقاذ الوطن من مخالب الاعداء فاقامهُ قنصلاً اربع سنوات متوالية وذلك مضادٌ للعوائد الرومانية والقوانين فشرع ذلك البطل يستعد للكر والكفاح ويعود جنوده الاتعاب والصبر عليها ثم زحف وعسكر على نهر الرون فالتقى هناك بالتيتونيين الذين ابى قتالهم لانهُ رام اولاً اختبار شجاعة عساكره وجعلهم يالفون صياح البرابرة الشبيه بعواء الذئاب ولا يجزعون من مناظرهم الوحشية القبيحة قيل ان قائدًا تيتونيًا قويًا طويلاً اراد مبارزتهُ فاجابهُ اذا كنت تحب الموت اذهب واشنق نفسك . ولما راى التيتونيون ان الرومانيين يرفضون القتال زحفوا الى ايطاليا فتاثرهم القنصل وهجم عليهم بالقرب من مدينة اكس سنة ١٠٢ ق٠م وقتل منهم واسر اكثر من مئة الف رجل وفي اليوم الثاني اتى ماريوس رسل من رومية واخبروهُ انهُ اقيم قنصلاً مرة خامسة فسبب هذا الخبر في المعسكر فرحًا عظيمًا واصبح

لذلك السرور عامًا

وفي سنة ١٠١ ق.م التقى السمبريون والرومانيون عند نهر البو وشرع كل فريق يستعد للكر والكفاح ويظهر ان السمبريين لم يبلغهم خبر انكسار التيتونيين او لم يصدقوهُ فارسلوا رسلاً يطلبون الى القنصل ان يعطيهم اراضي ومدائن كافية لسكنهم مع اخوتهم

— فسالهم من هم اخوتكم

— قالوا لهُ التيتونيون

فضحك جميع الحاضرين من كلامهم غير ان ماريوس التفت اليهم واجابهم قائلاً

— لا تهتموا بشان اخوتكم لاننا قد اعطيناهم ارضًا كافية سيملكونها الى الابد

فغضب السفراء جدًّا وظهرت على وجوههم سمات الحنق وقالوا لهُ

— ستندم على كلامك لان السمبريين سيفتكون بك اولاً جزاء لك على احتقارك ايانا وحينما يصل التيتونيون سيقاتلونك قتالاً لا يبقي ولا يذر

اجابهم ماريوس قد وصلوا من مدة واظن انهُ لا يليق بكم ان تذهبوا قبل ان تروهم وتسلموا عليهم

ثم امر باحضار ملوك (او قواد) التيتونيين الذين اسرهم فرآهم السفراء ورجعوا في الحال يخبرون قومهم بما جرى

واتى السمبريون بعد ذلك وعسكروا في مكان قريب من الرومانيين وركب ملكهم بوجاركس بفرقة من الفرسان وجاء وطلب الحرب ملتمسًا من ماريوس ان يختار الزمان والمكان قال لهُ القنصل

لا يخفى ان الرومانيين لم يعتادوا قط ان يشاوروا اعداءهم بشان القتال ولكن اجابة لطلبهِ يرضى بمحاربتهِ بعد ثلثة ايام في سهل فرنشلّه

وفي اليوم المعين التقى الجيشان وانتشبت الحرب وكانت عوانًا وقاتل الفريقان في ذلك النهار قتال من استمات وثبتا ثبات الابطال الا ان الرومانيين انتصروا اخيرًا على اعدائهم ونكلوا بهم تنكيلاً واسروا سعين الف رجل واردوا الباقين وبلغت هذه الاخبار رومية ليلاً ففرح الشعب جدًّا واخذ يقدم قرابين لماريوس كما يقدم للآلهة ودعاهُ مؤسس المدينة الثالث

ان لفظة ايطاليا كانت تطلق قديمًا على الاراضي الواقعة داخل نهر الروبيكون (الان نهر لوزا حسب منشور البابا سنة ١٧٥٦ غير ان البعض يرجح كونهُ نهر بيزاتلو وهو ابعد منهُ قليلاً الى الجهة الشمالية) الذي يصب في بحر الادرياتيك بالقرب من مدينة ريميني الحالية ونهر ارنوس (الان ارنو) الذي يصب في البحر التريني الواقع بين سردينيا وايطاليا بالقرب من بيزا وهي اعظم مدينة في أترورِيا (الان توسكانا) وكلا النهرين واقع في عرض درجة ٤٤ شمالاً اما البلاد الواقعة وراءها الى سفح جبال الالب فكانت تدعى غاليا السيزألبية وهي قد أُخضعت من زمان وجعلت ولاية رومانية

ولم يحسب الرومانيون الايطاليين رعية بل حلفاء تختلف شروط محالفتهم باختلاف الازمنة والوسائل التي أُخضعوا بها وبناءً عليهِ لم يكن لهم جميع امتيازات وحقوق الوطنيين سكان رومية غير ان اللاتينيين كانوا ممتازين عن الامم المجاورة والصابنيين كان لهم حق الاقتراع لذلك لم ينهضوا مع الباقين في طلب المساواة

وكان الحلفاء مجبرين ان ينقدوا الرومانيين جزية معلومة في كل سنة وان يقدموا عساكر لمساعدتهم وقت الحاجة غير ان تلك العساكر كانت منفردة وحدها لا يمكنها الامتزاج مع الفرق الرومانية الخاصة اما قوادها ورؤساؤها فكانوا رومانيين يطيعون اوامر قائد الجيش العام

وكان الايطاليون من زمان طويل يطلبون الى الشعب الروماني منحهم جميع الحقوق الوطنية فبدلاً من ان يمنحهم تلك الحقوق التي استحقوها بشجاعتهم واخلاصهم للحكومة الجمهورية قتل الحكام والكبراء الذين حازبوهم فاتحدوا اذ ذاك جميعهم واثاروا على رومية سنة ٩٠ ق.م حرباً عواناً دامت سنتين ولم تنتهِ الا بنيل ما رغبوا

الفصل الرابع

في حرب متريدات الاولى
وعداوة ماريوس مع سيلاً

ان متريدات ملك بونتس الذي نازع الرومانيين زماناً طويلاً السلطة على البلاد الاسيوية ارتقى عرش مملكتهِ في السنة الثانية عشرة من عمره ولما كان هذا الامير عاقلاً فطيناً اراد اوصياؤهُ ان يهلكوهُ وهو صغير فاركبوهُ فرساً جموحاً اخذ يعدو بهِ الرهقى وهو يغير وينجد غير ان متريدات تخلص من الخطر بمهارتهِ وثبات جنانهِ لانهُ رجع الى قومهِ آمناً سالماً قيل انهُ كان مولعاً بالطب والتطبيب حتى ان اعوانهُ لكي يتزلفوا منهُ كانوا يحرقون بقعاً من اجسادهم ليعالجهم ويسر بشفائهم . وادعى انهُ يحب الصيد لينجو من القتل ويكون على حذر خارج المدينة فقضى سبع سنوات جائلاً في الرياض والغياض بين الجبال والآكام لا ينام في بيت ليلة واحدة على ان هذه العيشة وتلك الاتعاب ولدت في قلبهِ الشجاعة والثبات وعودتهُ الصبر على الاهوال والرزايا فشب فارساً مغواراً يصطلي بناره وجباراً لا يحاكى في ميادين الضرب والطعان فقتل اوصياءهُ وامهُ واخاهُ وزحف بعساكره واخضع قسماً عظيماً من البلاد السكيتية (الان السلافية) وغيرها واجبر

التراكيين ومن يجاورهم ان يحالفوهُ و يساعدوهُ بجنودهم و يظهر ان نصرانه هذه قد زادت املهُ وازالت على ما زعم جميع العقبات التي تقف في طريق نجاحهِ فطمحت ابصاره الى افتتاح آسيا فغادر بلاطهُ وسافر متنكرًا مع بعض اصدقائهِ يجول في البلاد ليرى قوة المدائن والحصون والمظنون ان هذه الرواية قد اختلقها الرومانيون ليشهروا اعتداءَ الملك في الحرب التي سناتي على ذكرها في هذا الفصل

وحدث ان ملك كابدوكية تزوج كوديكي اخت متريدات فولدت لهُ غلامين وكان ملك البونتس جاهدًا في الاستيلاءِ على تلك البلاد فاغتال صهرهُ وسعى ليقتل ابني اختهِ غير ان نيكوميدس ملك بيثينيا زحف بجنوده وافتتح كبادوكية واقترن بالملكة

ولما بلغ متريدات ما جرى اسرع لمحاربة خصمهِ فقهرهُ وملّك ابن اختهِ البكر الذي ذبحهُ بعد ذلك بيده لانهُ عصي اوامرهُ ولم يرضَ بارجاع غورديوس قاتل ابيهِ من المنفى ثم طرد ابن اختهِ الآخر وولى ابنهُ وهو صبيٌّ عمرهُ ثماني سنوات دعاهُ اريارانس واقام لهُ وصيًا غورديوس المذكور

وكان الحكام الذين اقامهم متريدات ظالمين طاغين فملَّ الكبادوكيون من جورهم وارسلوا يدعون ابن ملكهم المتوفى ليملكوهُ عليهم فاتاهم هذا الفتى على جناح السرعة وحارب متريدات الا انهُ انكسر ومات

وخشي نيكوميدس من ملك البونتس الذي استولى الان على كبادوكية وقويت شوكتهُ ان تدفعهُ اطماعهُ الى افتتاح البلاد البيثينية المجاورة لها فاتي بفتى مليح ادعى انهُ ابن ملك كبادوكية المقتول وارسلهُ الى رومية مع الملكة لوديكي يسال المجلس ردَّ مملكة ابيهِ عليهِ وعلم ذلك متريدات فبعث بغورديوس ليدحض دعوى خصمهِ و يثبت ان الغلام المالك هو ابن الملك الحقيقي و يلوح ان الآباءَ اعضاءَ المجلس ادركوا ما وراءَ دعوى الفريقين من المكر والخداع فاخذوا كبادوكيا من متريدات و بافلاغونيا من نيكوميدس

(هي بلاد استولى عليها هذا الامير ظلمًا وعدوانًا) واعلنوا انهما حرتان مستقلتان ولما كان الكبادوكيون معتادين الحكومة الملكية طلبوا تولية ملك عليهم واختاروا لذلك رجلاً شريفًا اسمهُ اريو بارزانس

ولم يجاهر متريدات الكبادوكيين بالعداوة ولكنهُ اثار عليهم الارمنيين فاستجاروا بالرومانيين الذين ارسلوا في الحال سيلاَّ الى آسيا ليصلح احوالهم ويطرد المعتدين ففعل ذلك سيلاَّ ورجع من حيث اتى في سنة ٩٢ ق٠م

وكان تيغرانس ملك ارمينيا قد افتتح مدائن واقاليم واسعة شاسعة فاصبح مرهوب الجانب يخافهُ جميع الامم المجاورة فتزلف متريدات اليهِ وزوجهُ بابنتهِ كليو بترا ثم اغراهُ بقتال الكبادوكيين فزحف الارمني بجنوده ولما علم ذلك اريو بارزانس ترك عرش ملكهِ ومملكتهُ وفرَّ هاربًا يطلب النجاة

ومات في هذه الاثناء نيكوميدس فيلو باتر ملك بيثينيا وخلفهُ ابنهُ المدعو ايضًا نيكوميدس وكان الرومانيون راضين بهِ فاصدر مجلسهم امرًا يثبت جلوسهُ على اريكة آبائهِ الا ان اخاهُ سوكراتس خرستس ادعى ان لهُ حقًا بالملك فاستعان بعساكر متريدات وحاربهُ وخلعهُ

وعلم الرومانيون ما حدث فارسلوا سفراء الى آسيا ردوا على الملكين المعزولين ما فقداهُ وكان متريدات يود التظاهر بمصادقتهم فقتل سوكراتس خرستس المغتصب الذي لجيء اذ ذاك الى بلاده مستجيرًا

وحالف متريدات في ذلك الحين تيغرانس ملك ارمينيا وتعاهدا انهما يتحدان لمحاربة الامم المجاورة واتفقا ان المدائن والاراضي التي يفتحانها تكون ملك الاول اما الثاني فلهُ الحق بنهبها ونقل سكانها الى مدينة تيغرانوسرتا التي كان آخذًا ببنائها والتي كان يودان يجعلها من اعظم مدائن العالم

وكان المعتمدون الرومانيون في آسيا يرومون انتشاب القتال ليتسنى لهم النهب وحشد الاموال فاغروا ملك بيثينيا بمحاربة متريدات

فشن الغارة على بلاده وغزا قسماً عظيماً منها فتظاهر ملك بونتوس ان لا علم لهُ بما فعل وامر سفرآء الرومانيين وارسل اليهم رسلاً يعرضون لهم ما جرى و يسالونهم مدداً لقمع نيكوميدس اولاجباره على ارضائهِ وتعويضهِ مما خسر وكان السفرآء البيثينيون يتشكون من اعتدآء متريدات عليهم و يتهمونهُ انهُ عدو رومية لكونهِ اسعف سوكراتس على خلع ملكهم الذي رضيهُ مجلسها واستولى على محال كثيرة في خرز ونزس التراكية مع ان الرومانيين حظروا على جميع ملوك آسيا تملك قطعة ارض في اوربا ولو لم يكن ناوياً الغدر بمن يجاورهُ لم يجمع الجنود وهو يجهد في محالفة ملوك كثيرين حينئذٍ اجابهم بيلو بيداس السفير البونتسي ان هذا المقام ليس مقام مماحكة وخصام فالامر واضح لا يستوجب الجدال ثم استانف التماسهُ من من المعتمدين الرومانيين ان يامروا نيكوميدس بكف القتال او يسعفوا متريدات عليهِ فقالوا لهُ انهم غير راضين بما جرى لان ذلك يضر الجمهورية الرومانية وانهم لا يسمحون لاحد ان يعتدي على الاخر

ولما كان متريدات موقناً ان الكبادوكيين هم المعتدون ارسل ابنهُ اريارانس بكتيبة الى بلادهم واستولى عليها سريعاً ثم بعث بيلو بيداس سفيراً الى المعتمدين الرومانيين فقال لهم ان غدر ومكر الكبادوكيين قد حملاهم على محاربتهم وان مولاهُ قد ارسل يشكوهم الى مجلس رومية فيلزمهم الذهاب الى هناك ليدافعوا عن انفسهم لديهِ فغضب المعتمدون من هذا الكلام وامروا متريدات بالجلاء عن كبادوكية وان يكف كل اعتدآء على نيكوميدس ثم صرفوا السفير واوعزوا اليهِ الا يعود اليهم مرة اخرى اذا كان الملك ظل مصمما على العصيان

ولم ينتظر المعتمدون لاشهار الحرب امر المجلس بل جهزوا سنة ٨٧ ق.م من الولايات الاسيوية مائة وعشرين الف رجل قسموهم الى ثلث فرق وفرقوهم في البلاد ليحتلوا المراكز الحسنة و يهجموا على الاعدآء وامدهم

نيكوميدس بخمسين الف راجل وستة الاف فارس . اما عدد جنود متريدات فكان مائتين وخمسين الف راجل واربعين الف فارس وكان لهُ مائة وثلاثون مركبة مسلحة واربعمائة سفينة حربية وامدهُ صهرهُ تيغرانس ملك ارمينيا وملوك بارثيا (خورسان) وسوريا ومصر بعدد عديد من الابطال والفرسان

وهاجم قائدا ملك بونتس نيكوميدس بعشرة الاف فارس ارمني وبضع مركبات فكسراهُ وشتتا شمل عساكره وعامل متريدات بعد هذه الوقعة الاسرآء بالرفق والاحسان وارجعهم الى بلادهم بلا فدآء ثم زحف بجنوده الجرارة وقهر فرقة رومانية والجأ الفرقتين الباقيتين الى الفرار فخضعت لهُ البلاد صاغرة واستتب لهُ الامر في جميع تلك الانحآء ويظهر ان الانتصار لم يبطرهُ ولم يهيج بصدره حب الانتقام بل صفح عن الاهلين كافة واعفاهم من الديون التي عليهم للحكومة وسمح لهم بجزية خمس سنوات واستولى بعد ذلك على كل مدائن وجزائر اسيا الصغرى ما خلا رودس وقبض على القائد أبيوس الروماني واكرمهُ اما القائد اكويليوس فعاملهُ بقساوة عظيمة واركبهُ على حمار في مقدمة الجيش واجبرهُ ان ينادي وهو سائر انا مانيوس اكويليوس البروقنصل الروماني واماتهُ اخيرًا في اراضي تروادة بان صب ذهبًا مصهورًا في حلقهِ وذلك توبيخ للرومانيين على طمعهم الاشعبي

وعزم المجلس في هذه السنة على محاربة متريدات وتأديبهِ فجهز جيشًا جرارًا ولى القنصل سيلاَّ قيادتهُ فاهاج ذلك في فؤاد ماريوس حاسات الحسد والغضب لانهُ كان عدوهُ وكان يرغب من زمان طويل قتال ملوك آسيا طمعًا بثروة تلك البلاد فسعى مع صديقهِ سيلبيسيوس احد وكلاء الشعب في عزل سيلاَّ عن منصبهِ فتم لهُ ما ارادهُ لان المجلس أُكره على اصدار امر بهذا الشان لكن سيلاَّ كان وقتئذٍ بعيدًا عن رومية يحارب او يحاصر

مدينة نولا فلم يصدع بامر المجلس وقتلت عساكره الرسولين المرسلين لابلاغه ما حدث ولما علم ذلك ماريوس قتل كثيرين من اصدقائه وحجز املاكهم وهو يريد بهذا الامر ان يشفي غليلهُ وينتقم من عدوه الالد حينئذٍ زحف سيلاً بجنوده الى رومية ودخلها بعد ان قهر اعداءهُ وجمع المجلس في الكابيتولينوس واوعز اليه ان يصدر امرًا بنفي ماريوس وابنهُ وسلبيسيوس وتسعة اخرين فلم يجسر الاعضاء ان يفوهوا ببنت شفة بل صدقوا جميعهم على ما طلبهُ

ولم يكتف سيلاً بنفي عدوهُ بل أهدر دمهُ ووعد من يقتلهُ جزاء ففرَّ ماريوس من رومية هاربًا وهام على وجهه في المدائن والبحار وما زال محفوفًا بالمشقات والاخطار حتى القى اعداؤهُ القبض عليهِ في مرج منتورني وقادوهُ اسيرًا روى المورخون انهُ قال لفتى سمبري همَّ بقتله اتجسر يارجل ان تقتل ماريوس فجزع السمبري وهرب واخذ يعدو حتى وصل الى المكان المجتمع فيهِ شعب تلك المدينة فطرح سيفهُ وصرخ لا يمكنني ارداء هذا البطل ويظهر ان المنتورنيين اشفقوا عليهِ وخافوا منهُ فجهزوا لهُ مركبًا واعطوهُ زادًا وسمحوا لهُ بالرحيل عن ديارهم

وظلَّ هذا القائد الشهير تائهًا خائفًا حتى وصل الى افريقيا فلقيهُ هناك بين اطلال قرطجنة رسول والي تلك الولاية وامرهُ ان يرجع من حيث اتى فاجابهُ اذهب وقل لمن ارسلك انك نظرت ماريوس بين اطلال قرطجنة ومعنى هذا الكلام ان ما حدث لهُ ولتلك المدينة العظيمة مثالٌ صريح لغدر الدهر يعلم الوالي الحذر من صروف الزمان

ولما كان سيلاً قد غادر رومية ورحل لقتال متريدات قدر ماريوس ان يرجع اليها سنة ٨٦ ق .م آمنًا سالمًا لان صديقهُ سنا الذي اقيم قنصلاً اعانهُ على ذلك فدخلها مع اربعة الاف عبد قوي شجاع واوصد ابوابها واخذ يقتل الاهلين بقساوة تقشعر منها الابدان فمثلهُ مثل رجل بربري

قد استولى على مدينة عنوة وولجها ظافرًا ومشهرًا سيف الانتقام لا يعرف سوى سفك الدماء ونهب المهج

وكان اعداؤهُ واصدقاؤهُ يرتعدون خوفًا لان حيوتهم كانت متوقفة على اشارة او التفاتة منهُ وكثيرًا ما كان اعوانهُ الاشرار يفتكون بالاولى لا يرد عليهم التحية والسلام وبينما كان الدم جاريًا في شوارع رومية كالانهار نهض ذلك الوحش البربري وقص على الشعب المجتمع ما عاناهُ من المشقات والاخطار ثم قال انهُ بعوده الى المدينة قد عاد اليوم ما خسرهُ حين نفيهِ منها

وبعد ان داس هذا الظالم الفاجر قوانين بلاده وشرائع الانسانية اراد ان يستر اعمالهُ القبيحة ببرقع العدل فسمح برافعة الذين يروم قتلهم فمات عدد عديد من الكبراء والعوام بسيف جوره وجور عدلهِ وفرَّ كثيرون من العظماء الى بلاد اليونان يستجيرون بسيلاَّ واخبروهُ ان عدوهُ قد حرق بيتهُ وخرب اراضيهُ واهلك اصدقاءهُ واستبد بالسلطة يفعل ما يشاء ويشاء ما لا يحل فعلهُ ومع كل هذا لم يكن ماريوس يعرف لذة الراحة او راحة الضمير بل كان قلقًا تتقاذفهُ امواج الهموم لانهُ كان خائفًا سيلاَّ وما زال كذلك الى ان قبض في ١٣ كانون الثاني سنة ٨٥ ق . م ولهُ من العمر واحد وسبعون عامًا

ولما استتب الامر لمتريدات بقهره الجنود الرومانية اصدر منشورًا الى سكان البلاد يامرهم بهِ ان يقتلوا في يوم عينهُ لهم جميع الايطاليين الموجودين في مدائنهم رجالاً ونساء اولادًا وشيوخًا عبيدًا ومعتقين وان يقتسموا بينهم وبينهُ اموال اولئك التعساء وجعل جزاء من يرحم ايطاليًا الموت الزؤام فمات في هذه الجزيرة مائة الف روماني ويظهر ان الآسيويين كانوا اشد عداوة وبغضًا لهولاء الغرباء من ملكهم حتى انهم لم يعفوا عن احد لا خوفًا من متريدات بل شفاء لغليلهم بماء الانتقام

ولكي يمنع الرومانيين من الدخول الى آسيا عزم على جعل اوربا ساحة القتال فارسل اصغر اولاده المدعوار يارانس مع جيش جرار الى ثراكة ومكدونية و بعث ارخلاوس اعظم واهم قواده بعمارة الى بلاد اليونان ليغري الشعب بمحاربتهِ بالقوة او الكلام فحالفهُ الآثينيون وعولوا على مساعدتهِ

وفي سنة ٨٧ ق . م وصل سيلاَّ الى بلاد اليونان واسرع لمحاربة الآثينيين فحاصر مدينتهم واخذ يستعد للهجوم لان اسوارها كانت منيعة جدًّا وارسل يسال الامفقطيون او مجلس الولايات اليونانية المجتمع في ذلفي ان يبعث اليهِ بالاموال المذخورة في هيكل الاله ابولو ليحفظها عنده فاذعن المجلس لاوامره واعطاه الاموال المطلوبة وسلم اليهِ ايضًا اهالي اولمبيا وابيدورس اموال هيكل جوبيتر واسكيلابيوس

وكان ارخلاوس قائد متريدات قد دخل بيرياس ميناَء آثينا فحارب سيلاَّ مرارًا وردَّ هجماتهِ على الاسوار وجرت لذلك وقائع كثيرة اظهر فيها الفريقان شجاعة عظيمة الا ان القائد الروماني تغلب على اعدائهِ وفتح المدينة عنوة سنة ٨٦ ق . م واكره ارخلاوس على الفرار الى سفنهِ ثم قتل كثيرين من كبراَء الاثينيين والعوام وحرمهم حق انتخاب حكام وسنّ شرائع اي سلبهم الحرية التي طالما جهدوا في الدفاع عنها مخاطرين بالارواح ولقي بعد ذلك ارخلاوس في خرونيا وكسرهُ وافنى جيشهُ الذي كان اكثر عددًا من الجيش الروماني باربع مرار ثم قاتل قائدًا اسيويًّا اخر في سهل اورخومينس وقهرهُ واردى من عساكره خمسة عشر الف نفس قيل ان الرومانيين خافوا جدًّا حينما دنوا من جيش متريدات وراوا كثرة عدده فارادوا الهرب فاخذ سيلاَّ راية وتقدم وحدهُ للقاَء الاعداَء وهو يخاطب رجالهُ دعوني اموت مجيدًا في هذا المكان واذهبوا وقولوا لمن يسالكم اين تركتم قائدكم اننا تركناهُ في ارخومنس فثارت بهم الحمية واحتدمت بقلوبهم

نار الشجاعة وبادروا الى الضرب والطعن فدحروا هولاء البرابرة وشتتوا شملهم وبقي ارخلاوس يومين متواريًا في المروج الموجودة هناك الى ان تمكن من الفرار والنجاة

ولما كانت احوال متريدات في آسيا على غير ما يرام لظلمهِ وفجوره ورأى انتصار الرومانيين المبين على جنوده في البلاد اليونانية ارسل يامر ارخلاوس ان يهادن سيلا بالشروط التي براها موافقة فاسرع ارخلاوس بمخابرة القائد الروماني الذي كان يرغب السلام كرغبة الملك فيهِ لانهُ كان يود الرجوع الى ايطاليا لينتقم من اعدائهِ الجائرين اللئام

وكان القائد الاسيوي عالمًا بما هو جارٍ في رومية فقال لسيلا اذا كنت ترضى ان تملك متريدات على آسيا وبونتس وترجع الى ايطاليا لتهمد نار الفتن الاهلية فالملك يعينك بالمال والرجال اجابهُ سيلا اذا كنت تخون متريدات وتسلم سفنهُ الحربية للرومانيين يمكنك ان تخلعهُ وتملك عوضًا عنهُ ويكون المجلس راضيًا عنك ويمنحك لقب صديق وحليف شعب رومية فاشمأز ارخلاوس وظهرت على وجههِ سمات الكدر فقال لهُ سيلاً انت عبد او صديق ملك بربري ترفض اشتراء الملك بالخيانة فكيف تجسر ان تسال قائدًا رومانيًا هو سيلا خيانة وطنهِ لعلك نسيت انك انت ارخلاوس الذي ترك منذ بضعة ايام جيشهُ في سهلي خرونيا وارخومنس رزقًا لطيور السماء ووحوش الفلا

ولا ريب ان كلام القائد الروماني البطل قد اخاف ارخلاوس واذهلهُ حتى انهُ رضي حالاً بالشروط التي اقترحها سيلاً وهي

اولاً يترك الملك آسيا وبافلاغونيا ويسلم بيثينيا لنيكوميدس وكبادوكيا لاريوبارزانس وينقد الرومانيين الفي زنة تعويضًا لهم من نفقات الحرب ويعطيهم سبعين سفينة حربية

ثانيًا يثبت سيلا متريدات ملكًا على الاراضي الباقية ويمنحهُ لقب

صديق وحليف الامة الرومانية

وكان الملك متردداً في التصديق على العهدة فارسل رسلاً يخبرون سيلاً انهُ يرضى بالشروط المقترحة الا انهُ لا يمكنهُ تسليم بافلاغونيا والسبعين سفينة فطار الشرار من عيني القائد الروماني واجاب الرسل قائلاً أيرفض متريدات ان يعطي ما امرتهُ باعطائهِ الم يكن واجبًا عليهِ ان يخرَّ ساجداً عند قدميَّ ويشكرني لانني تركت لهُ يده اليمنى التي ذبح بها الرومانيين لذلك سأؤدبهُ حينما احضر الى اسيا اما الان فدعوهُ يحدث نفسهُ بحرب لم يرها بعد فخاف متريدات وصدع بامر الظافر الشجاع

وبعد ان اصلح سيلا شؤون البلاد عاد سنة ٨٢ ق . م الى ايطاليا بجنوده الجرارة واحتل برندزيوم واسرع بالمسير الى رومية

الفصل الخامس

في استيلاء سيلا على رومية
واقامته ديكتاتوراً طول حياتهِ
الى حين موتهِ سنة ٧٨ ق . م

ولما علم اصدقاء ماريوس والقابضون على زمام الاحكام بوصول سيلا الى ايطاليا نهضوا يداً واحدة وجهزوا الابطال والفرسان وزحفوا لقتالهِ وقتلهِ ان امكن فانتشبت الحرب بين الفريقين مراراً وكان الظفر في جميع الوقائع خاضعًا لسيلا ومعقوداً بلوائهِ لان عساكره كانوا شجعانًا قد اعتادوا الضرب والطعان ورجالاً امناء يخاطرون بارواحهم في ساحات القتال حبًا بهِ وحازبهُ بومبايس وكراسس الشهيران واعاناه على محاربة الاعداء وقهرهم

وبينما كان سيلا راتعًا في بحبوبة الظفر المبين وسائرًا في سبل النجاح حدث حادث كاد يوقعهُ في مهاوي الذل والفشل وذلك ان بونتيوس تليزينوس القائد السمنيتي كان زاحفًا لاعانة مدينة برينستي فبلغهُ ان سيلا وبومبايس آتيان لمحاربتهِ فنهض على الفور ومشى الى رومية واراد محاصرتها فخاف الاهلون منهُ خوفًا لم يروا مثلهُ منذ ايام انيبال القرطجني غير انهم استعدوا لقتالهِ وخرجوا عليهِ ليدافعوا عن مدينتهم فلم يثبتوا امامهُ ولم يطيقوا كرَّهُ وكفاحهُ ورجعوا حالاً الى رومية مدحورين

وعلم سيلا بما فعل الاعداءُ فاتى بعساكره مسرعًا وهجم عليهم هجمة الاسد الرئبال وحملت الرجال على الرجال وسالت الدماءُ انهارًا وكان تليزينوس قائد السمنيتيين يجول بين الصفوف يشجع الابطال ويحث الشجعان وهو يقول . هذا اخر يوم من حيوة رومية نهدم بهِ المدينة وندك اسوارها لاننا لا ننجو من تلك الذئاب الخاطفة السالبة حرية الايطاليين الا بخراب وجارها ولما كان الرومانيون قد اتعبهم مسيرهم السريع وكانوا قد بادروا الى الحرب قبل ان يستريحوا خارت قواهم وابتدأَت جنود الميسرة في الرجوع الى الوراءِ والهزيمة ولما رأى ذلك سيلا ارتبك في امره واخذ صورة الاله ابولو التي كان معلقها في عنقهِ وقبلها وقال ترى بعد ما انتصرت مرارًا عديدة في جميع الاقطار قد اتيت الى وطني لاقهر عند ابوابهِ واهلك لابسًا لباس الذل والعار

ودام الفوز للسمنيتيين الى ان خيم الظلام وخرَّ تليزينوس قائدهم جريحًا فانكسروا واستولى الرومانيون على معسكرهم واردوهم جميعًا

وكان ماريوس بن ماريوس الشهير قد لجئَ الى مدينة برينستي وتحصن فيها فحينما بلغهُ خبر انكسار القائد السمنيتي يئس من الفوز وانتحر ففتحت المدينة ابوابها لسيلا وخضعت لهُ صاغرة حينئذ لقب ذلك البطل نفسهُ بالسعيد ودخل رومية ظافرًا واخذ في سفك الدماءِ وقتل ابرياءَ

ومجرمون بلا فحص ولا شفقة فجرى من المهجات بحرٌ زاخر واصبحت عاصمة العالم والبلاد الايطالية مجزرًا تذبح بهِ الناس كالاغنام

وفتح هذا الظالم اعمالهُ الوحشية بان جمع ثمانية الاف اسير في محل عمومي وامر المجلس بالالتئام في هيكل بلونا القريب من ذلك المكان وبينما كان يخطب كانت عساكرهُ كما اوعز اليها تقتل اولئك الاسرآء التعسآء الذين ملأ صراخهم ونواحهم الفضآء فرعب اعضآء المجلس وتغيرت الوانهم فقال لهم سيلا انتبهوا ايها الآبآء لما انا قائلهُ ولا تبالون بصراخ بعض اشقيآء امرت بقصاصهم

بعد ذلك شرع في القتل والنهب فلم يصفح عن احد من اعدائهِ ولا اعدآء اصدقائهِ وكثيرًا ما كان اعوانهُ يقتلون اناسًا ابريآء لسبب رفعة شانهم او طمعًا بمالهم وفي ذات يوم قال لهُ كاتيلوس احد اصدقائهِ مع من يلزم ان نعيش اذا كنا نقتل في الحرب الرجال المتسلحين وفي السلم الذين نراهم عزلا وسالهُ صديق آخر متى تكون نهاية هذه البلايا ومن هم الذين عزمت على اردائهم والذين ترغب خلاصهم اجابهُ سيلا لست اعلم بعد من ساترك حيًا وطلب اليهِ آخران يعلمهم اسمآء الاولى يريد اهلاكهم فوعدهم بذلك وفي الغد اصدر منشورًا كتب فيهِ اسمآء ثمانين شخصًا حكم عليهم بالموت وامر ان كل من يخلص احدًا منهم يُقتل ومن يقتل احدهم ياخذ جزآء الفي زنة وان املاكهم واموالهم تحجز ولا يجوز لاولادهم ولحفدتهم ان يتولوا منصبًا في الحكومة وطريقة القتل هذه هي اهدار الدم واول من اجراها هو سيلاَّ قال سلُست المورخ انهُ اول من فرض قصاصًا لاناس لم يولدوا بعد واعد ضررًا للاولى حياتهم غير موكدة

وفي اليوم التالي اهدر دم مائتين وعشرين نفسًا وفي اليوم الذي بعده مثلهُ وقال للشعب وهو مجتمع انني قتلت من فطنت بهِ والذين نسيتهم الان ساهلكهم فيما بعد وبالجملة انني لا اعفو عن احد من اعدآئي ثم اصدر

منشوراً اهدر بهِ دم اربعين اباً من اعضاء المجلس والف وستمائة فارس قبل ان متريدات لم يذبح من الايطاليين بمقدار ما ذبح منهم سيلا لان جلاديهِ كانوا يطوفون في البلاد يبحثون عن الذين حازبوا ماريوس ويقتلونهم ولم يكن الذنب فقط بمحاربة سيلا بل بمساعدة اعدائهِ او مصادقتهم او اقراضهم دراهم او السفر معهم ولو اتفاقاً وكانت ابصاره طامحة الى الاغنياء ليستولي على اموالهم و يعطيها لاعوانهِ وقد والى اناساً اشقياء لئاماً كان اولى بهم الصارم البتار من جملتهم او بيانيكس وكاتيلينا فالاول فارس روماني من لارنيوم قتل امرأة اخيهِ ليرث ابنهُ اموال جدتهِ فاغضب فعلهُ اقرباءهُ وارادوا اهلاكهُ ففر هارباً الى معسكر ميتلوس وحدث ان سيلا ارسلهُ بعد ذلك بفرقة من العساكر الى مدينة لارنيوم لقضاء بعض حاجات فذبح جميع الذين قصدوا اضراره والثاني قتل اخاهُ وطلب الى البروقنصل ان يدرج اسم اخيهِ بين الذين حكم عليهم بالموت وقبض على رجل اسمهُ ماريوس غراتيديانوس وجلده في المدينة امام الناس ثم سحبهُ الى ضريح كسر عليهِ رجليهِ وذراعيهِ وقلع عينيهِ وقطع يديهِ واذنيهِ و بعدما اذاقهُ من العذاب الواناً ضرب عنقهُ واحضر راسهُ الى سيلا في الفورم وذهب وغسل يديهِ في بركة هيكل الاله ابولو المقدسة

وكان يوليوس قيصر في خطر عظيم لان ماريوس الكبير تزوج عمتهُ واقترن هو بابنة سنّا ففصلهُ سيلا عن الكهنة ارفاقهِ وحجز املاكهُ وكاد يقتلهُ لولم ياتهِ كبراء رومية والمتبتلات خادمات الالهة فيستا يلحون عليهِ بالعفو عنهُ اجابهم قد تغلبتم عليَّ في هذا الامر ولكن اعلموا ان الذي تودون خلاصهُ سيقهر جميع الاحزاب واذا كنتم لا ترون في هذا الغلام رجلاً يفوق ماريوس يكون الجهل قد اعمى ابصاركم و بصائركم وجعلكم لا لا تدركون من العالم شيئاً

ويلوح ان قتل الناس وتنكيلهم لم يكفيا ذلك الظالم الطاغي بل امر

بهدم وتخريب مدائن كثيرة كبيرة وذبح قسماً عظيماً من سكانها وقتل جميع السمنيتيين او نفاهم من ايطاليا محتجًا ان هذه الامة عدوة الرومانيين فلا تدعهم ابدًا يذوقون لذة الراحة والسلام

ولما آن اوان انتخاب قنصلين يتوليان الاحكام جريًا على العادة غادر سيلاّ المدينة وعاد الى معسكره وكتب منهُ الى المجلس او الى رئيس لجنة الاقتراع كتابًا يامرهُ فيهِ ان يسال الشعب اقامة ديكتاتور يقبض على زمام الاحكام الى اجل غير مسمى ليصلح الاحوال في سائر الاقطار وختم رسالتهُ بقولهِ انهُ يود تقديم هذه الخدمة للجمهورية اذا كانت الامة ترضى بذلك حينئذٍ جمع فالريوس رئيس لجنة الاقتراع الشعب ووضع قانونًا مفادهُ اقامة سيلا ديكتاتورًا الى اجل غير مسمى وصدق على جميع اعماله الماضية واعطاهُ سلطة مطلقة على حيوة واموال الوطنيين

وفي اول كانون الثاني سنة ٨١ ق.م احتفل الديكتاتور بنصراتهِ في الشرق واقيمت الافراح يومين وكان الاباءُ اعضاءُ المجلس والوطنيون الذين صانهم من غضب ماريوس وسنّا ماشين خلفهُ فرحين وهم يدعونهُ ابا الوطن وحامي الزمار غير ان بعضًا من عساكره دعاهُ ملكًا متنكرًا اما التاريخ فلا يتردد بتسميتهِ ظالمًا طاغيًا مستبدًا

وحينما انتهى الاحتفال ارتقى سيلاّ المنبر وخطب خطابًا طويلاً ذكر فيهِ اعمالهُ العظيمة ونسب نجاحهُ لإلهة الحظ ودعا نفسهُ لذلك بالسعيد واقام المجلس لهُ تمثالاً كتب عليهِ اسمهُ مع هذا اللقب

وكان كثيرون ممن حازب ماريوس وسنّا قد لجئوا الى سيسيليا وافريقيا وجاهروا بالعصيان فارسل الدكتاتور بومبايس ليقاتلهم فسار هذا القائد الفتى بالجنود اللازمة وقهرهم ثم ارتد راجعًا الى رومية فالتقاه الديكتاتور بالترحاب والتكريم ولقبهُ بالكبير الا انهُ لم يسمح لهُ بالاحتفال بنصرتهِ قائلاً ان الشريعة الرومانية تحظر هذا الاكرام والشرف

على الذين لم يقبضوا قط على زمام الاحكام اجابهُ بومبايس ان الساجدين للشمس عند اشراقها اكثر جدًّا من الاولى يسجدون لها وقت المغيب ولم يسمع سيلا هذه العبارة ولكنهُ راى بسمات الدهشة والانذهال على جميع الوجوه فسال الحاضرين عما يسرون فاخبروه بما قال بومبايس فعجب جدًّا من جسارتهِ ورضي بانالتهِ ما طلب

ومعلوم ان سيلا كان مطلق السلطة وقويًا فلو اراد ابطال الحكومة الجمهورية وارتقاء عرش الملك لم يعترضهُ احدٌ في العالم ولكنهُ كان يرغب في الاعتزال عن الاعمال السياسية بعد ان يهلك اعداءَهُ كلهم ليمكنهُ ان يعيش بالراحة والهناء وبناءً عليهِ لم يبقَ في المجلس الا من كان مدبونًا لهُ بحياتهِ وشرفهِ ومالهِ وحط سلطة وكلاء الشعب وقوى شوكة الشرفاء وقسم بين عساكرهِ البالغ عددهم مائة وعشرين الف نفس الاراضي التي اخذها من الرجال الذين سقاهم بسيف ظلمهِ كاس المنون ليظلوا يدافعون عنهُ وعن شرائعهِ متى مست الحاجة ولما تم لهُ ما اراده وادرك من العظمة درجة لم يدركها احد قبلهُ استعفى من منصبهِ وسلم زمام الاحكام لقنصلين جديدين ومضى يذوق في العزلة لذة الراحة والسلام ولكن اين تلك الراحة لرجل اضنى جسمهُ التعب واوهنتهُ الرذائل فاعتراهُ مرض رديءٌ جدًّا افسد احشاءَهُ وكسى جسمهُ دودًا ولم يكن الاغتسال والنظافة بجديانهِ نفعًا فمات سنة ٧٨ ق.م بحالة تعيسة جدًّا وقد امر ان يكتب على ضريحهِ ما معناه لم يفق احد سيلا في الاحسان الى اصدقائهِ والانتقام من اعدائهِ

وقبل الابتداء بحرب متربدات الثانية نلمع الى اعمال واخبار سرتوريوس وهو من اعظم رجال الرومانيين العصاميين ولد في قرية صابينية واشتهر في الحرب التيتونية مع ماريوس وتقلد عدة مناصب عالية وحينما ثارت الحرب الاهلية سنة ٨٨ ق.م حازب العوام ولكنهُ لم يعادِ ماريوس رئيسهُ القديم وفي سنة ٨٢ ق.م اقيم واليًا على الديار الاسبانية

فجمع العساكر وذهب الى موريتانيا وكسر فيها باكثيانوس احد قواد سيلاّ واحبهُ الاسبانيون لا سيما قبيلة اللوزيتانيين والقوا اليهِ مقاليد الامور فنظم منهم جنودًا قدران يلقى بها الجيوش الرومانية ويقهرها مرارًا ولما كان اولئك البرابرة جهلاء يعتقدون بالخرافات اراد التسلط على عقولهم بالاوهام فربى ظبيًا واكثر الاعتناء بهِ حتى دجن واصبح لا يفارقهُ فادعى حينئذٍ ان الظبي رسول الآلهة يعلمهُ اسرار المستقبل فصدق ذلك الاسبانيون واذعنوا لكل اوامرهِ بطاعة عمياء وبعد ان استولى سيلاّ على ايطاليا لجيء اليهِ كثيرون من كبراء تلك البلاد الذين حكم عليهم الديكتاتور بالموت واتاهُ القائد بربرنا بثلث وخمسين فرقة رومانية فقويت شوكتهُ وانشأ مجلسًا عاليًا مثل مجلس رومية وفتح مدرسة في مدينة هيسكا (الآن أُسكا) ليعلم اولاد الاهلين العلوم والآداب وكانت الحرب اذ ذاك ثائرة بينهُ وبين الرومانيين الذين ارسلوا اليهِ القائدين متيلوس وبومبايس ودامت الحال هكذا الى سنة ٧٢ ق.م حينما قتلهُ بربرنا وقواد آخرون في وليمة دعاهم اليها

اما سبرتاكس فولد في ثراكة وكان اولاً راعيًا فصار جنديًا ثم رئيس لصوص ووقع في ايدي الرومانيين الذين اسروهُ وباعوهُ لمدرّب السيافة (في اللاتينية غلاديياتور وهي لفظة مشتقة من غلاديوس اي السيف وهم جماعة من الاسراء او المذنبين يمرنون على ضرب السيف ويبرزون في اوقات معينة او في الاعياد العظيمة بميادين الملاعب ويتقاتلون امام الحضور ويسفكون دماءهم ليسر المتفرجون برؤية تلك المناظر القبيحة التي تذ... لها القلوب وتقشعر الابدان فلا اعلم كيف كان الرومانيون يتهافتون عليها ويعدونها من احسن واجمل الملاهي وعندي ان لعب السيف والترس المألوف في بلادنا بالاعياد والافراح مأخوذ عنها. واظن ان لفظة السيافة التي استعملتها تدل تمامًا على المعنى المقصود لانهُ فضلاً عن

كونها ترجمة حرفية لغلاديا تور باللسان اللاتيني قد ورد بالقاموس ان السيافة هم الذين سيوفهم حصونهم فتامل)ففرّ من المدرسة مع سبعين رجلاً من ارفاقه ولجئوا جميعهم الى بركان فزيفيوس فاتاهم عبيدٌ كثيرون واتحدوا معهم وتعاهدوا ان يموتوا وهم مجردون الحسام فداءَ الحرية واقاموا سبارتاكس رئيساً عليهم وقائداً وحاربوا الجيوش الرومانية زماناً طويلاً وقهروهـا مراراً فاستفحل امرهم واخذوا يخربون ايطاليا طولاً وعرضاً ولم يقمعهم سوى كراسس الذي قتل الراعي وبدّد الخراف

الفصل السادس

في حرب متريدات الثانية والثالثة

قد طبع ملك البونتس على الطمع وحب الفخار والعناد وهو صغير خوض عجاج الحروب والصبر على الاهوال فيذوق في ساحات القتال ونزال الابطال لذة لا يشعر بها المخنث الجبان بقصور الامراءِ بين ربات الخدور وفي خدور ربات الجمال ولذلك حالما ابرم الصلح مع الرومانيين وراى سيلاً قد غادر البلاد اخذ في الاستعداد للكر والكفاح وشن الغارة على الكولخيين فقهرهم وملّك عليهم ابنهُ المدعو متريدات الذي قتلهُ بعد ذلك ظلماً وعدواناً . ولما كان لا يفتر عن تجهيز الابطال وحشد الجنود ظنّ الرومانيون انهُ ينوي الانتقام منهم والفتك بهم فتقدم مورينا وهو القائد الروماني الذي تركهُ سيلاً في آسيا ودخل بلاد كبادوكية واستولى على مدينة كومانا ونهب هيكل بلُونا إلهة الحرب واخت او زوجة المريخ فزحف متريدات بجنوده حالاً وانتشبت الحرب ودامت ثلث سنوات الى ان ارسل سيلا سنة ٨١ ق.م رسلاً يامرون الفريقين بكف القتال فاذعنا

لاوامر الديكتاتور وانصرف كل الى مركزه . غير ان متريدات لم يصرف جنودهُ بل زحف بهم لمحاربة القوقافيين والساكنين بالقرب من نهر فازس ليمرنهم ويجعلهم ابطالاً قادرين على لقاء الرومانيين في كل آن ومكان

وفي هذه الاثناء كانت الفتن الاهلية وحرب سبارتاكس وسرتوريس قائمة على قدم وساق في ايطاليا واسبانيا فظن متريدات انهُ يمكنهُ الانتصار على الرومانيين فاغرى تيغرانس ان يجاهر بالعداوة فدخل هذا الملك بلاد كبادوكية واستولى عليها وخرب اثني عشرة مدينة منها ونقل سكانها البالغ عددهم ثلثمائة الف نفس الى تيغرانوسرتا مدينتهِ المحبوبة

وفي سنة ٧٥ ق . م مات نيكوميدس ملك بثينيا الذي اوصى بمملكتهِ للرومانيين فاغضب هذا الامر متريدات لانهُ كان يود من زمان طويل الاستيلاء على تلك البلاد فزاح اذ ذاك برقع الصداقة واشهر حربهُ الثالثة مع الشعب الروماني آملاً ان ينتصر عليهِ وينال الوطر لانهُ جمع في هذه المرة مائة وعشرين الف جندي خاضوا عجاج الحروب مراراً واصبحوا خبيرين بالضرب والطعن ثابتين لدى الاهوال في ساحات القتال لا يبالون بشرب كاس الحمام وعمل مائة مركبة مسلحة بالمناجل تدفع بين صفوف الاعداء فتحصد الاعمار حصداً وجهز اربعمائة سفينة كبيرة وتقدم لمحاربة البلاد البيثينية براً وبحراً فافتتح قسماً منهـا وزحف لمحاصرة مدينة كيزيكوس وبينما كانت جنودهُ محيطةً بها والقتال منتشب بينهُ وبين الاهلين جاء ليكولوس القنصل الروماني وهجم عليهِ هجمة الرئبال فدحرهُ وقتل عدداً عديداً من عساكره واكرههُ على الفرار بحراً الى مدينة باريوم ثم تأثر من بقي من رجالهِ ودهمهم عند نهر غرانيكس فقتل منهم عشرين الفًا واسر كثيرين وشتت شمل الباقين وحينما رجع الى كيزيكوس استقبلهُ شعبها بالترحاب والاكرام وعمل لهُ عيداً دعاهُ ليكوليا

وجرت بعد ذلك وقائع كثيرة بين الفريقين كان النصر فيها

للرومانيين الذين استولوا على بلاد البونتس فلجيء متريدات الى صهره ملك ارمينيا وبينما كان منهزمًا وعساكر ليكولوس تتاثرهُ لتاسرهُ ترك في الطريق برذونًا محملاً ذهبًا فاشغل النضار الجنود الرومانية وسهل لهُ الفرار والوصول سالمًا الى تيغرانس سنة ٧٠ ق.م

وكان تيغرانس وقتئذٍ اعظم واقدر ملك في آسيا قد الف الحروب من صغره فشب بطلاً مغوارًا وقهر امرآء كثيرين واستولى على بلادهم ودعا ذاتهُ ملك الملوك وافتتح مزوبوتاميا (الان الجزيرة) ونقل اليها اقوامًا يونانيين من كليكية وكبادوكية واكره بعض قبائل عربية ان تاتي بلادهُ وتستوطنها وتتعاطى التجارة فيها ولما ملّ السوريون من الحروب والفتن الاهلية التي اثارها السلوقيون ملوكهم خضعوا لهُ اختيارًا وطلبوا حمايتهُ ليعيشوا بالراحة والهنآء تحت ظل رايتهِ الظليل غير انهُ كان متكبرًا فخورًا يحتقر البشر ويظنهم خلقوا لخدمتهِ وعبادتهِ وعليهِ فالملوك الذين غلبهم كانوا يمشون امامهُ او وراءهُ متى ركب ويقفون عند قدميهِ صاغرين حينما يجلس على سرير الملك وذلك اشارة الى انهم عبيد سيدهم القادر ان يفعل بهم ما يشا ويريد

وكان تيغرانس يستعد لقتال الرومانيين لانهُ ابى ان يسلم اليهم حماهُ متريدات فجمع الابطال والفرسان وماجت الارض باقدام المحاربين وملأ الفضآء اصوات الجنود وصهيل الجياد ويلوح ان ليكولوس قد احتقر اعدآءهُ ولم يبال بهم فتقدم بجسارة الى البلاد الارمنية ودخلها باثني عشر الف راجل وثلثمائة فارس غير خاشٍ بأس عدوهِ امير الشرق وملك الملوك الذي اعمى بصيرتهُ وبصره انتصاره القديم على امرآء الولايات الصغيرة التي تجاور مملكتهُ فلم يكترث للرومانيين ولم يباشر الحرب بهمة ونشاط بل كل غارقًا في بحار الملذات بين ربات الحسن والجمال وجماعة من الكبرآء المملقين الذين يتزلفون اليهِ بالثنآء على اعمالهِ التي تستوجب احيانًا

الذم والاهانة وبناآء عليهِ لم يعلم اولم يرد ان يعلم تقدم اعدآئهِ في بلاده لان الرجل التعيس الذي ساقهُ سوء الحظ الى اخباره بوصول الرومانيين كان جزآؤُهُ شرب كاس الحمام في الحال وما زال ليكولوس سائرًا باملن يفتح المدائن ويستولي على الاقاليم حتى وصل الى مدينة تيغرانوسرتا وحاصرها فتنبه اذ ذاك الملك الارمني من رقدة الاهمال وزحف بجنوده لمحاربة قوم اتوا على ما زعم لتجرع الموت الزؤام بعيدًا عن الاوطان وحينما ابصرهم ورأى قلة عددهم استغرب وقال اذ كان هؤلاء سفراء فكثيرون واذا كانوا اعدآء فقليلون وهكذا قضى نهارهُ وليلهُ في المزاح والسخر منهم

ولما اصبح الصباح زحف الجيشان للقتال وكان جدول فاصلاً بينهما فاخذ الرومانيون يتقدمون الى ناحية من النهر راوها احسن مركز في ذلك المكان فظن تيغرانس انهم عازمون على الهزيمة فقال لاحد قواده انظر الى اعدائنا كيف يستعدون للهرب اجابهُ القائد اودان يتم هذا الامر الذي اخالهُ مستحيلاً لانني ارى بريق سلاحهم ومغافرهم واعلم علم اليقين انهم ان جردوا الصوارم لا يغمدوها الا بعد الظفر

وبينما كان ليكلوس اخذًا في اجتياز الجدول قال لهُ احد اعوانهِ ان هذا النهار وهو ٦ تشرين اول يتشاءم بهِ الرومانيون اجابهُ ونحن سنجعلهُ فألاً ثم داوم المسير حتى وصل الى قمة رابية ومن هناك هجم على الاعدآء في مقدمة جنوده وهو يناديهم دونكم الانتصار فبادروا اليهم كالضراغم وما زالوا يضربونهم ويطعنونهم الى ان قتلوا منهم مائة وخمسين الف رجل وشتتوا شمل الباقين ولم يمت من الرومانيين حسبما روى المؤرخون واظن في الرواية مبالغة سوى خمسة انفس وجرح البعض وذلك سنة ٦٩ ق . م

ثم رجع الرومانيون بالطريق التي اتوا منها وجمعوا اسلابًا واموالاً لا تحصى وكان تيغرانس قد هرب في ابتدآء المعركة فاعطى تاجهُ وهو يبكي

لابنهِ وحرضهُ ان يذهب بطريقٍ اخرى ويطلب النجاة لنفسهِ فلم يجسر الامير الفتى ان يضع التاج على راسهِ بل سلمهُ الى احد اعوانهِ الذي اسرهُ الرومانيون واخذوا منهُ التاج المذكور

وذكر القدماء هذه المعركة وعجبوا جدًّا من انتصار ليكولوس السريع وانكسار تيغرانس العظيم قال احدهم ان الشمس لم تشاهد قط يومًا كهذا وقال آخران الظافرين قد تخجلوا من انهم قد استلوا سيوفهم لمحاربة عبيد جبناء محتقرين

ومن الامور التي يجدر بنا الالتفات اليها والتنبيه عليها هو امتهان الاوربيين للشرقيين في الزمان القديم والحديث فانك قلما ترى كتابًا من كتبهم يذكرون فيهِ حربًا او فتنة جرت بين الفريقين الا وينسبون لاعدائهم الاسيويين الجبن وخساسة الاخلاق ولعمري انهم يرتكبون في ذلك متن الشطط لانهُ من ينكر شجاعة العرب العرباء الذين دانت لهم امم الارض صاغرة ومن لا يقرُّ بالبسالة والفراسة للاقوام الاسيويين الذين رحلوا من بلادهم في اوقات مختلفة واستولوا على المدائن والاقاليم واحيوا مدى قرون عديدة الرعب في قلوب الغربيين ولكن لكل زمان دولة ورجال ومعلوم ان الثروة والنجاح يورثان التنعم والاهمال سببي الخراب لا سيما في الايام القديمة حيث الظفر كان متوقفًا على الجسارة اكثر من الرأي ومع هذا كلهِ لا ارى الرومانيين في ايام سلاطينهم اقلّ جبنًا وخساسة من الارمنيين الذين يسخرون منهم في هذا المقام ويشركون معهم جميع القاطنين بقارة آسيا الواسعة الارجاء

وكان حاكم تيغرانوسرتا يابى تسليمها الى الرومانيين ويرغب في مداومة الدفاع عسى حادث غير منتظر ياتيهِ بالفتح الا ان اليونانيين الموجودين في المدينة نهضوا يدًا واحدة وقاتلوا الاهلين الحازبين الحاكم واستولوا على احدى القلاع وفتحوا ابوابها للاعداء فدخلها ليكولوس وجنودهُ وقبض على

خزائن الملك فوجد فيها ما خلا الامتعة الثمينة والجواهر ثمانية الاف وزنة ذهب وفضة (نحو مليون واحد وخمسمائة وخمسين الف ليرة انكليزية) فمنح كل واحد من عساكره ثمانمائة دراخمه (نحو ست وعشرين ليرة انكليزية) وسمح لليونانيين ان يرجعوا الى بلادهم واعطاهم ما يلزمهم من الدراهم لاجل نفقات السفر وعامل الباقين الذين نقلهم تيغرانس الى هذه المدينة بالرفق والاحسان واذن لهم بالانصراف الى الاوطان فاصبحت تيغرانوسرتا بعد تلك العظمة قرية صغيرة لا ذكر لها بين مدائن الشرق

ولا يخفى ان الزمان خير مؤدب للانسان يكسبهُ خبرة بالتجارب وتكسيهِ التجارب ثوب حكمة وفطنة وعليهِ فتيغرانس بعد ما قهره الرومانيون ذل وعرف ضعفهُ وجهلهُ فدعا حماه متريدات وفوض اليهِ اصلاح احوالهِ وقيادة جنوده فجهز ملك البونتس في الحال الفرسان والابطال وتقدم لقتال الاعداء ناهجًا غير منهجهِ الاول وذلك انهُ كان يجتنب المعامع العظيمة ويرقب حركات الرومانيين ليفتك بهم اغتيالاً ويمنع وصول القوت اليهم فضاق ليكولوس ذرعًا واراد محاربة متريدات باية وسيلة كانت فساق عساكرهُ الى الى جهة ارتاكزاتا عاصمة ارمينيا حيث ادخر تيغرانس اموالهُ وابقى نساءهُ فاغتر الملكان بخداع الروماني واسرعا لقتالهِ دفاعًا عن تلك المدينة ولما علم ليكولوس مراد عدوهِ فرح واستبشر وانقض عليهما انقضاض الصواعق واعمل بجيوشهما السيوف البواتر فقتل منهم عددًا عديدًا وشتت شمل الاولى بقوا في قيد الحيوة ولا ريب ان خوف الرومانيين قد حل في قلب متريدات وانساهُ شجاعتهُ القديمة لانهُ اول من بادر الى الهزيمة في ذلك النهار واصبحت مدائن ارمينيا بعد هذه الوقعة مفتحة الابواب يمكن الرومانيين دخولها متى ارادوا الا ان العساكر عصت اوامر قائدها ليكولوس الحكيم وابت الانقياد لهُ لان الاموال التي جمعتها من تلك الاقاليم الاسيوية قد ابطرتها وشوقتها الى ايطاليا فطلبت الرجوع الى الاوطان لتتمتع بالراحة والسلام بعد

المشقات والاتعاب . وهكذا أكره ذلك البطل ان يعود الى رومية حينما ذلل المصاعب وانتصر على اعدائهِ انتصارًا مبينًا فرحل سنة ٦٧ ق . م من ارمينيا وخلف قوادًا جهلاء اضاعوا بجهلهم ثمر اعمالهِ العظيمة وتركا متريدات وتيغرانس يرجعان الى البلاد ويتولى كل منهما مملكتهُ كأنهُ لم يحدث شيئًا قبلاً

وبلغ مجلس وشعب رومية ما جرى فقلقا جدًا وارسلا الى آسيا بومبايس القائد الفتى واصحباهُ بالجنود والفرسان آملين انهُ يقمع الاعداء ببسالتهِ وتدبيره ويصلح الاحوال المختلة في تلك الارجاء بفطنتهِ واصالة رأيهِ لانهُ كان بطلاً مغوارًا وقائدًا حكيماً قد خاض عجاج الحروب مرارًا وعاد من ساحاتها مكللاً بالنجاح ومرتديًا بالظفر

وحدث ان ابن ملك ارمينيا عصى اباهُ وفرّ هاربًا الى بارثيا واقام في بلاط حميهِ ملك تلك البلاد فوقعت الوحشة لذلك بين الفريقين وطال النفار ولما كان تيغرانس موقنًا ان متريدات قد حرض ابنهُ على العصيان أبغضهُ ورفض مساعدتهُ في حربهِ مع الرومانيين فاصبح حينئذٍ ملك البونتس منفردًا في القتال لا حليف لهُ ولا صديق يعتمد عليهِ بين الامراء المجاورين

وكان دأب متريدات في هذه المرة ان يتجنب القتال النظامي ما امكن ويفتك باعدائهِ اغتيالاً متى سنحت لهُ الفرصة فادرك ذلك بومبايس وقدر لمهارتهِ بالفنون الحربية ان يدهمهُ ويحيط بعسكرهِ احاطة الاسورة بالمعاصم غير ان ملك البونتس تخلص من الشرك والاخطار بخداعهِ وذلك انهُ لما خيم الظلام وادلهم الليل ترك النيران والانوار في خيامهِ ومشى بجنوده سرًا ولم يستطع القائد الروماني ان يحاربهُ لانهُ كان يتحصن في النهار بعسكره ويسير في الليل تحت جنح الظلام يطلب النجاة

وحينما دنا الملك من الفرات ابصر واذا بومبايس قد ظهر بغتة بجنوده

واحتل ذلك المكان وحال بينهُ و بين النهر ليمنعهُ من عبورهِ ودخول مملكة تيغرانس صهرهِ ولما كان وصولهُ جريًا على العادة تحت جنح الظلام لم يشعر بالاعداء حتى اختلطت عساكره بهم فامر بومبايس اذ ذاك المبوقين ان يبوقوا والرجال ان يهتفوا ويهجموا على البونتسيين الاولى كانوا غير مستعدين للقتال فرعبوا وولوا هاربين برون الشجاعة بالفرار والفرار للجبناء في كل حال حصين منيع

وتقدم متريدات بثمانمائة فارس وهجم على صفوف الرومانيين فاخترقها وخرج منها سالمًا الا ان هولاء الفرسان تركوهُ بعد ذلك وشانه وذهبوا الى حيث يرجون الكسب والغنيمة فلم يبقَ معهُ سوى ثلثة انفس من جملتهم جارية اسمها ابسيكراتيا كانت قوية باسلة ترافقهُ في جميع غزواتهِ ورحلاتهِ وتركب بجانبهِ وهي لابسة عدة الجلاد كالفرسان والابطال

وقدر ملك البونتس وهو هارب هائم على وجههِ ان يجمع ثلثة الاف راجل و بعض فرسان غرباء فتقدم بهم الى قلعة اسمها سنوريا على حدود ارمينيا الصغرى حيث كان مدخرًا اموالهُ فاخذ منها ستة الاف وزنة ووزع بين اصدقائهِ الثياب الثمينة والجواهر واعطى لكلٍ منهم سمًّا كي يسفهُ ولا يقع حيًّا في ايدي الرومانيين وكان راجيًا ان تيغرانس يستقبلهُ بالترحاب ويسمح لهُ بالاقامة في بلادهِ فخاب املهُ لان الامير الارمني لم يا ب فقط اجابتهُ الى ما سأَل بل اعلن جزاء من ياتيهِ براسهِ مائةوزنة وتأكد حينئذٍ ذلك الملك التعيس ان كثرة اصدقاء واعداء المرء متوقفة على سعادتهِ وتعاستهِ وان رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل فارتد راجعًا واجتاز بلادهُ محفوفًا بالاخطار ووصل بعد المشقات والاتعاب الى بلاد البوسفور السميرية حيث كان مالكًا ابنهُ ماخرس . و بنى القائد الروماني في المكان الذي انتصر بهِ على متريدات مدينة دعاها نيكو بولس اي مدينة الظفر ثم زحف لمحاربة تيغرانس فدخل ارمينيا واخذ يفتح المدائن

و يقهر الجنود فرعب الملك واتى مسرعًا الى معسكر الرومانيين وجثا عند قدمي بومبايس واعلن خضوعهُ لهُ صاغرًا فاشفق عليهِ ورضي بكف القتال وابرام الصلح معهُ بشروط منها انهُ يسلم الى الرومانيين كل البلاد الواقعة وراء نهر الفرات و ينقدهم ستة الاف وزنة و يملك على ارمينيا الكبرى و يكون صديق وحليف الامة الرومانية

وزحف بومبايس بعد ذلك واخضع الالبانيين وغيرهم الساكنين في الجهات الشمالية ثم تقدم الى الجنوب واستولى على بلاد ماديا وكوماجن وارسل قائدهُ سكورس ليفتح الديار السورية التي خضعت لهُ سنة ٦٤ ق . م فجعلها ولاية رومانية وهكذا سقطت الدولة السلوقية بعد ما ملكت مائتين وثمانيًا وخمسين سنة

و بينما كان بومبايس في سوريا منهمكًا في اصلاح احوالها وترتيب حكامها اتاهُ سنة ٦٣ ق . م رسلٌ من بونتس يخبرونهُ بموت متريدات وتولي ابنهِ فارناسس سرير الملك مقرًا جهرًا بسيادة الرومانيين ومعلنًا بسرور خضوعهُ لهم وسبب ذلك ان متريدات جهز جيشًا جرارًا ونوى الذهاب الى ايطاليا لمحاربة الرومانيين في بلادهم كما فعل انيبال القرطجني قبلاً فجزعت جنودهُ من هذه الحملة وادركت الاخطار والمشقات التي تحول دون النجاح فجاهرت بالعصيان واسعفت فارناسس ان يرتقي العرش و يقبض على زمام الاحكام ففر متريدات اذ ذاك هاربًا ولجئ الى قلعة واقام بها ينتظر فرجًا ثم ارسل يسال العصاة عما يرغبون فيهِ وما يطلبون اجابوهُ اننا نريد تمليك فارناسس لكونهِ فتى لا يملك قيادة مماليك لئام ولا يروم توطيد سلطتهِ علينا بقتلهِ قوادهُ واصدقاءهُ و بنيهِ كما هو دابك

وعلم متريدات ان لا نجاة لهُ الا بالموت فخرَّ ساجدًا ورفع عينيهِ الى السماء وقال ايتها الآلهة الآخذة بثار الآباء اذ كنت موجودة حقيقة ارغب اليك ان تجعلي موت فارناسس على يد بنيهِ ثم نهض على قدميهِ واعطى نساءه

وجواريه و بناته سماً تجرعنهُ وقضين نحبهنّ في الحال ولما كان السم لا يؤثر بهِ لانهُ اعتاد شربهُ وهو صغير اخترط حسامهُ لينتحر فجرح جسدهُ جرحًا خفيفًا حينئذٍ التفت الى جنديّ غاليّ وقال لهُ ايها البطل قد اختبرت شجاعتك في ساحات القتال واني شاكر لك على ما فعلتهُ لي قبلا فاطلب اليك الان ان تنعم عليّ وتقتلني لئلاَّ اقع حيًّا في ايدي الرومانيين فصدع الجندي بامره واستل سيفهُ وضربهُ ضربة سقاه بها كاس المنون

ولا يخفى ان مثريدات كان من اعظم الملوك الذين اشتهروا بالشجاعة واصالة الراي لا توقفهُ صعوبة في طريق النجاح ولا تخيفهُ الاخطار ان حالت دون المرام ولقد حكى أنيبال القرطجني في بغضهِ للرومانيين واجتهادهِ في احباط اعمالهم واذلالهم غير ان اجتهادهُ عاد عليهِ كما عاد على ذلك القائد الشهير بالويل والحرب ومات مثلهُ مقهورًا ذليلاً

و بعد ما اصلح بومبايس حالة الممالك التي استولى عليها في الشرق وجازى جنودهُ كما يستحقون عاد راجعًا الى رومية واحتفل بنصرتهِ احتفالاً لم يرَ الناس قط نظيره

الفصل السابع

ملخص ترجمة حيوة سيسرون وبورسيوس كاتو وجوليوس قيصر وسرجيوس كاتلينا قبل شبوب نار الفتنة التي اضرمها الاخير

سيسرون — هو ماركس ظليوس سيسرون ولد في ٣ كانون الثاني سنة ١٠٦ ق.م قرأ العلوم والآداب على العلماء والفلاسفة المشهورين

في ذلك الزمان فبرع في جميع الفنون لا سيما في الفقه والخطابة ولما بلغ السنة الثامنة والعشرين من عمره رحل الى بلاد اليونان واقام فيها عامين صرفهما في الدرس والمطالعة وعند عودتهِ الى رومية انتخب باتفاق الآراء خازنًا لولاية ليلبسوم في جزيرة سيسيليا فقام بعبء الاعمال التي فوضت اليهِ واكتسب ثقة الرومانيين ومحبة الاهلين ثم تقلب بعد ذلك في عدة مناصب عالية كان بها عنوان الفضل والشهامة وفي سنة ٦٣ ق.م انتخب قنصلاً وقدر ان يعرف مكيدة كاتلينا ويرد كيده في نحره كما هو مذكور في الفصل التالي

بورسيوس كاتو — هو المعروف بكاتو الصغير او كاتو الأتيكيّ كان من صغره نشيطًا عنيدًا لا يثنيهِ تعب او خطر عن السعي لادراك ما يبتغيهِ فشب رجلاً ثابتًا في اعمالهِ يتحرى الحقائق بهمة عالية ويبغض التمليق والملقين وكان قليل المزاح بطيء الغضب ولكنهُ شديد العداوة لمن يضره او يناويه

ولما كان عمرهُ اربع عشرة سنة كان يتردد على سيلاَّ لكونهِ صديق ابيهِ فرأَى مرارًا اعوان ذلك الظالم ياتونهُ برؤُوس الكبراءِ دامية وسمع تنهدات الحاضرين فسأَل ذات يوم استاذهُ قائلاً لماذا لا يقتل احدٌ هذا الرجل اجابهُ الاستاذ لان خوف الناس منهُ اعظم من بغضهم لهُ فقال لهُ كاتو على الفور لماذا اذًا لم تعطني حسامًا حينما ذهبنا اليهِ لاهلكهُ بهِ وأريح البلاد من مظالمهِ

وكان مولعًا بالفلسفة الرواقية وهي من تعاليم زينو اليوناني ومفادها احتمال المصائب التي تفاجئُ المرء بصبر عظيم تحكيهِ رواسي الجبال ولكي يقوي جسدهُ ويمكنهُ ان يطيق الحر والبرد صيفًا وشتاءً كان يذهب في كل الفصول من مكان الى آخر حافيًا حاسرًا وكان اذا مرض يمتنع عن الاكل ويلزم منزلهُ الى ان يشفى

و بعد ان خدم مدة في الجندية بحرب سبارتاكس وفي مكدونية ذهب الى البلاد الاسيوية ليشاهد مدائنها ويدرس عوائد اهلها وطباعهم فوصل الى انطاكية واراد الدخول اليها والاقامة فيها قليلاً لانها كانت من اجمل المدن الشرقية ولما دنا منها رأى عن بعد اناساً لابسين ثياباً بيضاء ومصطفين على جانبي الطريق فظن انهم خرجوا للقائهِ ومع ان هذا الامر ساءهُ جداً لانهُ لا يحب الاحتفال والاكرام امر اصحابهُ ان يترجلوا اجلالاً لهم حينئذٍ تقدم اليهِ الرجل الذي صف الجمع وكان لابساً تاجاً وماسكاً عصا وقال لهُ اين تركت دمتريوس (وهو عبد لبومبايس) وهل تعلم متى ياتي فضحك ارفاقهُ حينما سمعوا هذا الكلام حتى استغربوا اما هو فلم يجب الرجل ببنت شفة بل التفت وقال يالك من مدينة تعيسة

واقيم بعد ذلك خازناً فاصلح اموراً كثيرة واكره الذين اخذوا في عهد سيلاً من خزينة الحكومة اجرة لاجل قتل الاولى اهدر ذلك الديكتاتور دمهم ان يردوا ما اخذوه وبالجملة نرى كاتو رجلاً ثابتاً في اعمالهِ وصديقاً صدوقاً لمن يحفظ ذمامهُ وعدواً الدّ لمن يغضبهُ او يضرهُ وكان مع هذا كلهِ رقيق الجانب شجاعاً حكيماً يحب العفة والعدل ويبذل الجهد في محاماة الضعفاء ورد كيد الظالمين في نحرهم

كايس جوليوس قيصر — ولد هذا البطل سنة ٩٩ ق.م من عائلة شريفة يتصل نسبها بايليوس بن انياس التروادي وهو من الرجال العظام او من اعظم الرجال الذين يبخل الزمان بمثلهم في كل آن ومكان قد برع في جميع الفنون وفاق معاصريهِ بالذكاء واصالة الراي ولا ريب ان سمات الفطنة والشجاعة كانت ظاهرة على محياه وهو غلام حدث حتى ان سيلاً خشي منهُ واهدر دمهُ كما ذكرنا في محلهِ ولما اشتد ساعدهُ هاجر الى رودس ليقرأ علم البلاغة على ابولونيوس مولو استاذ سيسرون فاسره القرصان بالقرب من جزيرة فاراماكوزا الواقعة تجاه مدينة ميليتوس في آسيا وساؤهُ ان

يفدي نفسهُ بعشرين وزنة فسخر منهم ووعدهم ان يعطيهم خمسين ثم ارسل اعوانهُ الى المدن المجاورة ليجمعوا الدراهم المطلوبة وبقي هو مع طبيبهِ وخادمين ثمانية وثلثين يوماً في سفن هولاَء الاشقياَء وكان ينفق ساعاتهِ في نظم الاشعار وتاليف الخطب وقراَءة ما يكتبهُ للقرصان الذين كان يهددهم بالصلب وهو يمازحهم ولما نقدهم الدراهم التي طلبوها اطلقوا سبيلهُ فذهب الى ميليتوس وجهز بسرعة عظيمة جميع السفن الصغيرة التي وجدها في تلك المدينة وتاثر القرصان وقاتلهم فاغرق بعضهم واسر الباقين وصلبهم على رغم البرو قنصل الذي كان يرغب ببيعهم طمعاً بالمال

وحين رجوعهِ الى رومية اخذ يتزلف من الكبراَء ويجهد في مصادقة الجميع وكان كريماً مسرفاً حتى ان اعداَءهُ ظنوا سقوطهُ قريباً لكثرة الديون التي عليهِ ولكونهِ زير نساَء ميالاً للهو والمسرات

وكان يحب ان ياخذ دائماً بناصر الشعب ويرد عليهِ الحقوق والامتيازات التي حرمهُ اياها سيلاّ وحينما توفيت عمتهُ جوليا زوجة ماريوس ارتقى المنبر في الفورم وأبنها وأمر بحمل صور بعلها في الجناز وكان سيلاّ قد ابطل هذه العادة فسرّ الجمهور جدًّا بما فعل وانصرف وهو يثني عليهِ ويعجب من شجاعتهِ وجسارتهِ وأبّن امرأتهُ كورنيليا بنة سنّا وذلك ايضاً مخالف للعوائد لان النساَء الشابات لا يجوز تأبينهنّ

وبعد ان تقلد عدة مناصب عالية اقيم اديلاً (انظر معنى هذا اللفظ صفحة ٩٠) فاحتفل بعيد لابيهِ واتي بستمائة وار بعين سيافاً تقاتلوا وتصارعوا امام الشعب وعمل اعمالاً اخرى كثيرة لاشهار اسمهِ وارضاَء العوام واغرائهم بمحازبتهِ وفي سنة ٦٣ ق. م انتخب حبرًا اعظم باكثرية الاصوات مع ان انتخابهُ لهذا المنصب كان مخالفاً للقوانين الرومانية لانهُ كان فتياً لم يتول بعد القضاَء

وخلاصة الكلام عن هذا البطل انهُ كان من احسن العائلات الشريفة

ربي في حجر التمدن والتهذيب فشب شهماً شجاعًا اديبًا بليغًا كريمًا يحب الشعب ولا يبالي بالاخطار في عمل ما يرضيه

لوسيوس سرجيوس كاتلينا — هو سليل عائلة شهيرة كان غريب الاطوار فاسد الاخلاق ولقد اجاد بعضهم بوصفهِ اذ قال كان هذا الرجل ذا عقل ثاقب ولسان طلق ويد قادرة على اجرآء اعظم الاعمال واصعبها وكان دأْبهُ مذ شب القتل والنهب واثارة الحروب والفتن الاهلية لا يبالي بالمشقات وعندهُ سفك الدمآء الذ من معاقرة الراح ومنادمة الخلان الا ان اطماعهُ واهوآءهُ كانت تدفعهُ الى مهاوي الاخطار فيقدم على افعال دون اجرآئها خرط القتاد

واحب سيدة شريفة ففض بكارتها واغتصب ابنة متبتلة وقتل ابنهُ ارضآء لامرأة علق بها قال سلست واظن ان فعلهُ هذا قد مهد لهُ سبيل العصيان لان نفسهُ الشريرة المكروهة من الآلهة والناس كانت في عذاب دائم تطلب الراحة ولا تجدها لذلك كان اصفر الوجه وهيئتهُ هيئة رجل ذي جنة

الفصل الثامن
في مؤامرة كاتلينا

لا يخفى ان لنجاح الممالك في العالم اسبابًا جديرة بالاعتبار اهمها الاتحاد وحب الوطن فلو لم توجد تلك الصفات الحسنة في قلوب الرومانيين منذ تاسيس مدينتهم لم يصلوا الى هذه الدرجة العليا من سلم المجد والفخار بل كانت ايدي الخراب قد اغتالتهم وجعلتهم بين امم الارض نسيًا منسيًا ولو كان القابضون على زمام احكام الجمهورية قبل هدم قرطجنة مثل ماريوس

وسيلاً وكاتلينا وغيرهم من تعرق جبهة الانسانية عند ذكرهم خجلاً لسقطت رومية وخضعت الشعوب المجاورة

ويظن بعض الجهلاء ان حب الوطن هو من الامور الوهمية التي لا تتعدى حيز التصور لان الانسان محب ذاتهُ بالطبع فلا يمكنهُ ان يتخذ مصالحهُ الشخصية ظهريًا ويجهد في نفع غيره اقول ان ما يزعمهُ هولاء جهل مركب اذ حب الوطن هو بالحقيقة حب العاقل لذاتهِ لان الامة اذا تعاونت وجهدت في احياء السلام الداخلي وتوسيع نطاق الاعمال وتوفير اسباب النجاح عاد ذلك بالراحة والفلاح على كل من افرادها واي فخر يحرز الانسان اذا كان نظير كاتلينا الشرير الذي جمع فتيانًا طغامًا عودهم القساوة وسفك الدماء واعدهم لحرق وهدم مدينة رومية وذبح اعضاء المجلس ونهب مهج الابرياء وكان يشجعهم وينشطهم على تلك الفعال بخطبهِ الحماسية وكلامهِ البليغ من ذلك قولهُ قد ساءت ياقوم احوالنا واصبح زمام الاحكام بيد بعض انفس ظالمين يتسلطون على امم الارض ويتمتعون بالاموال التي يسلبونها الملوك والامراء غير مبالين بالشعب كأن الشعب عبدٌ خاضع طوعًا او كرهًا لما ينهون وما يامرون فهبوا بنا نخلع ثوب الذل ونموت شرفاء في ساحة القتال او نبلغ المنى واعلموا ان نجاحنا قريب وأكيد وان الحرية والاموال والفخار هي ثمر الانتصار فبادروا الى اجتناء ما طالما تمنيتموهُ

ولما كان هولاء الفتيان قد قنطوا من الحيوة لانهم فقراء اثقلت الديون كاهلهم راوا في النهب والقتل خيرًا وتوسموا في الانقلاب السياسي حيوة جديدة ونعيماً دائمًا الى الممات فبادروا الى رئيسهم متطوعين واستعدوا لركوب متن الاخطار غير مبالين وكان من جملتهم شخص شريف اسمهُ كوريوس قد طرد من المجلس لسبب خفتهِ واعمالهِ القبيحة وكان هذا الرجل مهذارًا لا يحفظ سرًا ويخبر اعداءهُ واصدقاءهُ بكل ما يعلمهُ حتى انهُ لم يكن يستطيع ان يكتم من الناس ذنوبهُ التي اقترفها والتي يود ارتكابها فاسرَّ الى

حبيبتهِ ما ينويه فعلهُ مع ارفاقهِ فاخبرت هذه انسباءها واخبر هولاء اصدقاءهم ولم تمض مدة الا وذاع الخبر فاوجس الاهلون خوفًا واخذوا يتحدثون بما كان وما يكون واقاموا سيسرون قنصلاً ليتلافى الخطب ويصلح الاحوال

وكان كاتلينا يسعى ان يكون قنصلاً ليمكنهُ ان يجري ما يروم اجراءه بسهولة فعلم ذلك سيسرون واتخذ الوسائل اللازمة لمنعهِ فعمد اذ ذاك كاتلينا الى قتلهِ مع بعض روساء المجلس يوم الانتخاب الا ان القنصل بلغهُ ما دبر عدوهُ فاخر زمن الانتخاب وفي اليوم التالي بينما كان المجلس مجتمعًا شكاهُ الى اعضائهِ وامرهُ ان يبرىء نفسهُ امام الجمع فتقدم كاتلينا الشرير وعوضًا عن ان ينكر او يجهد في تبرئة نفسهِ قال لهم ان الجمهورية مولفة من شخصين (يعني المجلس والشعب) احدهما مريض وراسهُ ضعيف والاخر ثابت لا راس لهُ ولا يحتاج الى راس ما دام حيًّا واجاب كاتو قبل ذلك ببضعة ايام ان النار اذا احتدمت وحرقت امواله لا يطفئها بالماء بل بخراب عمومي

ومن ذلك الوقت زاد همة ونشاطًا في انفاذ ما نواه فارسل كثيرين من اعوانهِ الى المدائن الايطالية لاثارة الفتن واستمالة الاهلين واقام هو في رومية يستعد لقتل القنصل وحرق المدينة وامر رجالهُ ان يتسلحوا ويكمنوا في جميع الاحياء وكان يقضي نهارهُ وليلهُ بلا نوم منهمكًا في تحقيق امانيهِ وتتميم اغراضهِ الشريرة وكانت الرسائل ترد تترى الى سيسرون والكبراء تحذرهم من كاتلينا وتحرضهم على الخروج من المدينة والفرار فاجتمع المجلس حينئذٍ وفوَّض الى القنصلين امر صيانة الجمهورية من الاخطار ومنحهما الحرية باجراء كل ما يريان اجراءهُ لازمًا

وجمع كاتلينا رجالهُ في ذلك الليل واخبرهم انهُ ذاهب الى بلاد أتروريا ليتولى قيادة الجنود التي جهزها هناك وامرهم ان يحرقوا المدينة ويقتلوا

الاهلين في يوم عينهُ لهم وارسل اثنين من اعوانهِ ليذبحا سيسرون باكرًا في الصباح وهو نائم في فراشهِ فعلم سيسرون ما دبر عدوهُ الالد فاحاط منزلهُ بالحراس الذين منعوا الرجلين من الدخول عليهِ وارجعوهما من حيث اتيا

وفي الغد جمع القنصل المجلس في الكابيتولينوس وهو مكان التئامهِ ايام الخوف والفتن وعرض للاعضاء ما حدث وما سيحدث وبينما كانوا يتذاكرون في الامر اقبل عليهم كاتلينا كانسان لا علم لهُ بما جرى فابتعد الآباء عنهُ ولم يردوا عليهِ السلام فنهض سيسرون وقد احتدم غيظًا وقال لهُ

حتى مَ نصبر يا كاتلينا ونتحمل الاهانة وانت لا تنثني عن غيك أَتظننا جاهلين ما فعلتهُ وما تفعلهُ ولكن ياللهُ من عصر تعيس وجيل خبيث يعيش فيهِ المنافق الخائن لا بل يدخل المجلس بوقاحة ليرقب اعمالهُ ويعلم مَنْ مِنْ اعضائهِ المجتمعين يلزم اهلاكهُ قد مضى زمن الشجاعة ومحبة الوطن كيف لا وبوبليوس سيبيو وهو خارج عن دائرة الحكومة قدر ان يقتل قبلاً تيبيريوس غراكس لانهُ اراد ان يلقي الشغب بين الشعب ونحن القنصلين رئيسي الجمهورية ومدبري ممالك الدنيا نترك الان كاتلينا بقيد الحيوة وهو رجل خائن يريد ان يهلك العالم بالقتل والحريق

ايها الآباء انني طبعت على الشفقة ولكن ضميري يوبخني على التواني والاهمال بوقت اصبحت فيهِ بلادنا محاطة بالاخطار المهولة فاعلموا ان عدونا الالد الذي هو مقيم داخل اسوار المدينة قد جهز جيشًا جرارًا يزداد كل يوم عددًا وعددًا وهو محتل الديار الاترورية ومستعد للقتال

والان يا كاتلينا اذا امرت الشرط بالقبض عليك وذبحك حالاً لا اكون قاسيًا ظالمًا وانما اخاف ان يقال اني كنت بطيئًا باجراء العدل اما ما منعني ويمنعني عن قتالك فهو وجود اناس لئام طغام نظيرك يودون

خلاصك ويبذلون الجهد بتبرئتك فعش كما كنت محاطًا بالحراس والرقباء الذين اقمتهم ليعلموا اعمالك ويذيعوا افكارك وما تنوي فهيهات ان يستر ظلام الليل الحالك اجتماعاتك السرية مع رجالك واعوانك وان تمنع جدران منزلك صوت خيانتك من الوصول الى اذنيّ

ثم نصح له ان يترك المدينة ويعرض عن نواياهُ الشريرة وحذّرهُ من عاقبة الظلم والاعتداء بعبارات هي منتهى البلاغة وحد الاعجاز (اه ملخصًا)

ولما كان كاتلينا اروغ من ثعلب واحيل من ضب نهض على قدميهِ وهو مطرق وقال للحاضرين بصوت ضعيف الا يصدقوا تلك التهم الكاذبة لان شرف عائلتهِ وسيرتهُ الحسنة مذ شب بوهلانهِ لان يرتقي ذرى العظمة والمجد وهل يمكن رجلاً شريفًا مثلهُ خدم هو واباؤهُ الحكومة وجهد في توفير اسباب نقدم البلاد ان يخطر ببالهِ اضرار مواطنيهِ فاعترضهُ الاعضاء وشتموهُ ولم يدعوهُ ان يتم كلامهُ فحنق وازبد وقال لهم وهو خارج ما قالهُ قبلاً اكاتو انني اطفئ النار التي يتوعدني بها اعدائي بخراب عمومي

وعلم كاتلينا ضرورة السرعة في العمل لبلوغ مأربهِ فرحل بالليل سرًّا الى أترورِيا بعد ما حرّض رؤساء اعوانهِ الا يهملوا الوسائل اللازمة لزيادة عدد جنوده وقتل سيسرون والاستعداد لحرق المدينة وتدمير اهلها فحكم المجلس عليهِ انهُ عدو البلاد وصرح بالعفو عن رجالهِ الذين يثوبون الى الطاعة وامر القنصلين بتجهيز العساكر والمبادرة الى قتالهِ حالاً قبل ان تقوى شوكتهُ ويستفحل امره

ولكي يغش هذا الشرير الكبراء ارسل الى كل منهم كتابًا يقول فيهِ لقد تفاقم الخطب واصبحت هدفًا لسهام التهم والوقيعة فها انا راحل الى مرسيليا فرارًا من كيد اعدائي وخوفًا من حدوث فتن يثيرها اصدقائي انتصارًا لي

وارسل الى احد خلانهِ كتابًا آخر يسالهُ فيهِ ان يعتني بحبيبتهِ اورِيستلاً

ويخبرهُ بالاسباب التي حملتهُ على ركوب هذه الخطة قال

من كاتلينا الى كاتلس سلام

ايها الحبيب ان صداقتك الصادقة التي اختبرتها من زمان طويل تشجعني على الفكر انك غير مرتاب ببراءَتي ومحبتي للوطن الا ان نمَّ الحاسدين و وقيعة المبغضين قد الجأَتني ان انهض لآخذ بيد الفقراء والمظلومين ولا تظنني عاجزًا عن تادية ما استقرضتهُ لان اموالي كما تعلم وافرة وكافية لوفاء تلك الديون ولما كنت لا استطيع ان اصبر على الخسف والذل وارى اناسًا طغامًا يرتقون ذرى المجد والعظمة قد بادرت الى صيانة شرفي بالتي هي احسن فاطلب اليك الان ايها العزيز ان تعتني باورليستلاً وتصونها من كل ضرر

وجاء الى رومية في هذا الاوان سفراء الوبروجيون (هم قبائل غالية قاطنة في اقليمي سفوا ودوفيني من اعمال فرنسا) يستجيرون بالمجلس من ظلم وطمع حكامهم الرومانيين ويرغبون اليهِ بالاشفاق عليهم واصلاح حالتهم التعيسة فلم يصغ الاعضاء الى شكواهم وردوهم خائبين ولما علم ذلك لنتلوس احد زعماء العصاة في المدينة ارسل اليهم رجلاً اسمهُ اومبرينوس ليستميلهم الى حزب كاتلينا ويكونوا لهُ نصراء متى ثارت الحرب واحتدمت نارها فاقبل اليهم كانسان يهمهُ نفعهم واستخبرهم عن احوالهم وعما نالوهُ اجابوهُ ان الموت نصب اعيننا اذ لا نجاة لنا بغيره فحكامنا ظالمون قساة والمجلس قد اعارنا اذنًا صماء

— قال لهم ان حالتكم تعيسة جدًّا ولا يمكنكم اصلاحها الا اذا كنتم شجعانًا تعملون ما اشير عليكم بهِ

— اجابوهُ خذ بيدنا ايها الرجل واشفق علينا واعلم اننا مستعدون ان نركب متن الاخطار لننقذ امتنا من الديون والمظالم التي اثقلت كاهلها

فاحضرهم اومبرنيوس اذ ذاك الى اصحابهِ وكاشفهم بسرّ موّامرتهم ووعدهم خيرًا فرضوا بالاشتراك معهم ومساعدتهم بفرقة عظيمة من الفرسان الا انهم حينما خلوا في منزلهم وفكروا في الاخطار والاهوال التي تكون بلا ريب عاقبة العصيان ندموا على ما فعلوه وذهبوا توًّا الى فابيوس سنغا وليّ إمتهم واخبروهُ بالامر فاعلم هذا سيسرون الذي دعا حالاً السفرآء وامرهم ان يتظاهروا للعصاة برغبتهم في محازبتهم وياخذوا منهم عهدة يوقعها زعمآؤهم لتكون دليلاً بينًا على خيانتهم وسعيهم في اضرار الوطن وبنيهِ ففعل السفرآء ما امر بهِ القنصل وابرموا عهدة مع الثائرين واخذوا كتابا الى كاتلينا وخرجوا مع بعض اعوانهِ من المدينة الا ان فرقة من جنود الحكومة كانت كامنة في المكان الذي يجب ان يمروا بهِ كما جرى الاتفاق قبلاً فانقضت عليهم واسرتهم وقبضت على الاوراق التي معهم

حينئذٍ التأم المجلس حالاً للمذاكرة في الامر والنظر في دعوى روّساء الثائرين الذين القي القبض عليهم والذين اقروا جهرًا بذنبهم وخيانتهم فحكم عليهم بالسجن وانصرف الاعضاء وهم يشكرون لسيسرون ويثنون على اعمالهِ وهمتهِ

وفي اليوم الثاني بعد جدال طويل وخصام عظيم في المجلس حكم على المسجونين بالموت فقتلوا في الفورم امام الشعب وزينت المنازل والشوارع ايذانًا بفرح الجمهور لنجاتهِ من تلك البلايا التي اوشكت ان تفاجئهُ وكانت النسآء والاولاد والرجال تزدحم في الاسواق لترى سيسرون حينما كان راجعًا الى بيتهِ والاباء والفرسان تحيط بهِ كأنهُ عائدٌ من ساحات القتال يحتفل بنصرتهِ داخل المدينة وكان الشعب يناديهِ ياحامي البلاد وموّسس رومية الثاني

وظن المجلس انهُ بالقبض على روّساء الثائرين وقتلهم قد سقط كاتلينا ولعبت بحزبهِ ايدي سبا لذلك استعفى سيسرون ورفيقهُ من منصبها

وانتخبت الامة قنصلين جديدين وراح كل فرحًا آمنًا حدثان الدهر كأن
الدهر قد سالمهُ غير ان ذلك البطل المغوار عدو وطنهِ كان لا يفتر عن
حشد الجنود والاستعداد لشن الغارة على مواطنيهِ فارسلت الحكومة لمحاربتهِ
فرقًا من العساكر فالتقى الجيشان بالقرب من جبال الابنين وانتشب
القتال وكان مهولاً لان الفريقين ثبتا في ذلك النهار ثبات من لا يرعى
الحمام او كيف يرعهم الحمام وارواحهم مرهونة للنصر او الممات فقضى كاتلينا
وعدد عديد من جنوده وانتهت بموتهِ تلك المؤامرة الشهيرة التي كادت تمحو
اسم الجمهورية الرومانية من العالم

وفي سنة ٦٠ ق . م عاد جوليوس قيصر من الديار الاسبانية مكللاً
بالظفر لانهُ اخضع تلك القبائل المتوحشة بسيفهِ البتار وهذبهم بقوانينهِ
الحكيمة وتعاهد مع كراسس و بومبايس على الصداقة الصادقة والتعاون
ودعي اتفاقهم هذا بالحكومة الثلاثية

الباب السابع

من حين اقامة الحكومة الثلاثية
الاولى سنة ٦٠
الى حين تسلط اوكتافيانوس سنة ٢٩ ق . م

الفصل الاول

اعمال قيصر في رومية
وحروبهُ في البلاد الغالية
مع ذكر حرب كراسس ببارثيا

اعمال قيصر في رومية — لما كان الاتحاد آية الفلاح وعنوان النجاح

قدر قيصر ان يتقلد سنة ٥٩ ق . م بمساعدة صديقيهِ منصب القنصلية ويستبد بالاحكام لانهُ على رغم كاتو والقنصل الآخر وجميع اعضاءِ المجلس اجرى القانون العقاري وقسم بين الوطنيين الفقرآءِ اراضي كامبينيا وجعل الشعب يصدق على اعمال بومبايس في آسيا وحينما انتهت السنة عين واليًا لمدة خمس سنوات على ايلريا وغاليا السيزالبية وقائدًا لاربع كتائب (لجيون) وزوج بومبايس بابنتهِ جوليا لتدوم صداقتهُ ويكون لهُ نصيرًا متى مست الحاجة

حروب قيصر في البلاد الغالية — ان غاليا ما خلا الولاية الرومانية كانت مقسومة في ذلك الحين الى ثلثة اقسام هم آكيتانيا وغاليا السلتية وغاليا البلجكية فالقسم الاول يحدهُ شمالاً نهر غارون وجنوبًا جبال البيرنه وغربًا الاوقيانس وشرقًا الولاية الرومانية وهو الان اقليما البروفنس ولانغدوك من اعمال فرنسا والثاني يحدهُ نهرا السين والمارن وجنوبًا نهر الغارون وغربًا الاوقيانس وشرقًا نهر الرين وهو يشتمل تقريبًا على الاقاليم الفرنسوية الباقية ولا حاجة الى تحديد القسم الثالث لان اسمهُ خير دليل عليهِ

وكان اولئك الشعوب الثلثة مختلفي العوائد واللغات الا ان البلجكيين والألفتيين وهم ساكنو القسم الغربي من سويسرا كانوا اشجع من الجميع لقتالهم الدائم مع الجرمانيين القاطنين ورآءَ نهر الرين .

وحدث ان الألفتيين ملوا الاقامة في بلادهم لانها ضاقت بهم فعزموا على الرحيل منها واستيطان مكان اخر فحرقوا مدائنهم وقراهم وتقدموا الى جهة الولاية الرومانية ليجتازوا بها ويحتلوا البلاد التي يرونهـا حسنة وصالحة لسكناهم وكان ذلك في ٢٨ ادار سنة ٥٨ ق . م

وعلم قيصر بما جرى وكان وقتئذٍ معسكرًا بالقرب من رومية فاسرع الى غاليا واخذ يجهز الجنود ويحشد الابطال وخرب جسر مدينة جنيفا

ليمنع الالفتيين من عبور نهر الرون ويظهر ان هولاء البرابرة لم يقصدوا مناواة الرومانيين بل ارسلوا رسلاً الى قيصر يعرضون له سبب رحيلهم من الاوطان ويطلبون اليهِ ان يسمح لهم باجتياز الولاية الرومانية ليمكنهم الذهاب الى بلاد اخرى فابى قيصر اجابتهم الى ما سالوهُ وردَّ رسلهم خائبين

ولما رأى الألفتيون استحالة او صعوبة المرور بذلك المكان رجعوا على اعقابهم وتقدموا الى جهة اخرى ليجتازوا في بلاد امير غالي تجاور ارضهُ الولاية الرومانية فزحف قيصر اذ ذاك بجنوده ولقيهم عند نهر آرار (الان السون) ودهم فرقة من معسكرهم فكسرها وشتت شملها في تلك البطاح واستعد لقتال الاخرين فارسلوا اليهِ سفراء يسترضونهُ فلم يكترث لهم واخذ يتاثرهم ليوقع بهم وبعد مسير بضعة ايام فاجاهم بالقرب من مدينة بيبراكته (الان اوتون وهي على بعد ثلثمائة وواحد واربعين كيلومترًا من باريس) وهجم عليهم بعساكره فدام القتال الى الليل ولم ينج منهم سوى مائة وعشرين الفًا اكرههم على العود الى اوطانهم ليستعمروها ويردوا هجمات الجرمانيين على الشعوب الخاضعة للرومانيين

وكان ملك جرماني اسمهُ اريوفيستس قد اعتدى على بعض قبائل غالية فسالهُ قيصر ان يكف العداوة والاعتداء على اناس خضعوا للرومانيين او استجاروا بهم فابى ذلك الملك الاذعان لاوامره حينئذٍ زحف قيصر بجنوده واستعد لقتالهِ ومن عوائد الجرمانيين الغريبة هو انهم لا يباشرون حربًا الا بامر الساحرات اللواتي اعلنَّ في هذه المرة لاقوامهنَّ انهم يغلبون اعداءهم اذا قاتلوهم في هلة القمر غير ان قيصر هجم عليهم حالاً وبادرت اليهم جنودهُ كالضراغم فانتشبت الحروب وكانت عوانًا وبعد ان جرت وقائع يشيب هولها الاطفال وسالت على اديم ذلك الصحصحان دماء الفرسان والابطال انكسر الجرمانيون وولوا هاربين فتاثرهم الرومانيون وما زالوا

يطعنونهم و يضربونهم دراكًا حتى عبروا نهر الرين ونجوا بانفسهم

وفي السنة الثانية اتحدت القبائل البلجكية وعولت على محاربة الرومانيين لتضعف شوكتهم وتامن شرهم فعلم ذلك قيصر واتاها بعساكره كالبرق الخاطف وكسر جنودها في مواقع كثيرة فخضعت لهُ جميعها صاغرة واقرت بسيادة الشعب الروماني نادمة على عصيانها وما فعلت

ولم تكن الوقائع التي حدثت كافية لاخضاع الغاليين تمامًا لانهم كانوا اقوامًا شجعانًا يحبون الحرية ويفدونها بالارواح لذلك كانوا دائمًا مجاهرين بالعصيان يشنون الغارة على الرومانيين ويشن الرومانيون الغارة عليهم فبقي قيصر يحاربهم تسع سنوات حتى استطاع ان يملك قيادهم ويجعل بلادهم الواسعة ولايات رومانية . قيل انهُ استولى عنوة في هذه المدة على ثمانمائة مدينة واخضع ثلثمائة شعب وقهر في ساحات القتال ثلثة ملايين رجل قتل منهم واسر اكثر من مليونين وفي اثناء ذلك ذهب مرتين الى بريطانيا وحارب اهلها وقهرهم الا انهُ لم يستول على تلك البلاد التي كانت وقتئذٍ خاضعة لسلطان التوحش والغباوة وقد كتب قيصر نفسهُ رسالة مسهبة في الحروب التي اثارها في غاليا وهي رسالة حسنة الوضع وجليلة النفع للذين يرومون التدقيق في درس تاريخ فرنسا القديمة اما نحن فقد اخذنا منها ما ذكرناهُ وهو خلاصة الخلاصة وبهذا القدر كما لا يخفى كفاية للمطالعين ومتطلعي الاخبار التاريخية في هذه الديار •

كراسس وحربهُ في الشرق — كان كراسس يروم ان يجاري صديقيهِ في ميدان الفخار ويحاكيهما في البسالة والفتوح الا انهُ كان يفوقهما في الطمع وحب المال ولما عين واليًا للديار السورية حسب طلبهِ سرّجدًا وذهب الى ذلك القطر مصمماً على نهب ما يمكنهُ نهبهُ

روى يوسيفوس المؤرخ اليهودي انهُ سلب حين وصولهِ امتعة هيكل اورشليم الثمينة واخذ امواله البالغة عشرة الاف وزنة (نحو مليونين ليرة

انكليزية) وشرع يستعد لقتال البارثيين ليستولي على مدائنهم وينهب ما تحوي وبناءً عليهِ زحف بجنوده سنة ٥٣ ق . م لمحاربة شعب صديق وحليف الرومانيين فارسل اليهِ اورودس ملك بارثيا رسلاً يسالونهُ عن الاسباب التي حملتهُ على حربهِ ونقض العهود اجابهم قولوا لهُ انني اعلمهُ الاسباب حينما ادخل سلوقية عاصمة مملكتهِ

ولو كان طمع كراسس مقرونًا بالفطنة واصالة الراي او الخبرة بالفنون الحربية لهان البلاءُ واصبح نجاحهُ مامولاً لكنهُ كان جاهلاً فخورًا ودليل ذلك الخطأ الذي ارتكبهُ في هذه الحملة لانهُ عوضًا عن ان يسير في بلاد ارمينيا كما نصح لهُ ملكها او يمشي بالقرب من ضفات الفرات اتبع مشورة شيخ قبيلة عربية اراد غشهُ وايقاعهُ بالمهالك فتوغل في مزوبوتاميا ظانًا انهُ يستولي على بارثيا غنيمة باردة فلقي بعد ما نهكتهُ التعب جنود الاعداءِ وفرسانهم يتقدمون لقتالهِ

ولما كان البارثيون يفوقون الرومانيين عددًا وعُددًا وكانت فرسانهم صعبة المراس يصطلى بنارها هجمت على كراسس وعساكره هجمة الرئبال فنهبت المهجات وجندلت الابطال فرأى الرومانيين ان لانجاة لهم الا بالفرار وحينما ادلهم الليل زحفوا سرًا وتركوا في المعسكر الجرحى ومن لا يستطيع ان يتبعهم فمات هولاء التعساءَ في اليوم الثاني قتلاً بسيف اعدائهم الذين لم يشفقوا على احد

واعتمد الرومانيون في هزيمتهم على بعض الوطنيين الخائنين الذين قادوهم في مسالك صعبة حرجة واوقعوهم مرة ثانية في ايدي الاعداءِ فادعى سيرينا قائد البارثيين ان مولاه يود ابرام الصلح مع الرومانيين ومقابلة رئيسهم فلم يغتر كراسس بكلامهِ وعلم ان ذلك دخيلة لكن عساكره الحوا عليهِ الا يرفض تلك المقابلة وحينما وصل كراسس واعوانهُ الى معسكر الاعداءِ ورأى عين الغدر بادرت رجالهِ الى حمايتهِ فاحاط بهم البارثيون

ونكلوا بهم تنكيلاً واتوا براس كراسس الى ملكهم فصب في فمهِ ذهبًا مصهورًا وهو يقول اشبع ايها الطمع من معدن قضيت حياتك في طلبهِ وجمعهِ

الفصل الثاني

في حرب قيصر مع بومبايس
وموت الاخير
مع ذكر اعمال قيصر في الشرق

قد مات الان كراسس وانحلت بموتهِ عرى الاتحاد الثلاثي واصبحت الحكومة هدفًا لسهام اطماع صديقيهِ الآخرين لان كلاً منهما كان يروم التسلط وحدهُ على العالم الروماني ويرغب في اهلاك خصمهِ ليتسنى لهُ ارتقاء اوج الفخار ولم يكن ذلك فيهما نزاعًا جديدًا ولكنهما خضعا اولاً لاحكام الضرورة والاحوال وسترا اهواءهم ببرقع الصداقة والتعاون ولما خلا لهما الجو وقويت شوكتهما ولم يبقَ مانع يمنعهما من اعلان العداوة اضرما نار الفتنة الاهلية التي امتد سعيرها الى كل الاقطار

وفي ذلك الحين كانت احوال الحكومة والحكام مختلة فاسدة وكان بومبايس قادرًا ان يصلح هذا الخلل ويريح الشعب من المظالم والبلايا لولا اطاعة ومحبتهُ للرئاسة لانهُ ترك الامور تجري مجراها ليتسع الخرق ويمكن الشعب ان يقدرهُ حق قدره فيقيمهُ رئيسًا للجمهورية ويخولهُ سلطة مطلقة وعليهِ ففي سنة ٥٢ ق . م تولى وحدهُ منصب القنصلية مع ان العوائد والقوانين تقضي بوجوب تعيين قنصلين في كل عام كما علمت قبلاً

ولما بلغ ذلك قيصر وهو في البلاد الغالية هاجت بصدره حاسات

الحسد وطلبه الى المجلس والشعب تعيينهُ قنصلاً في السنة التالية فلبي الجميع طلبهُ ومنحوهُ هذا الامتياز الا ان بومبايس قدر بدسائسهِ ومكرهِ ان يبطل ذلك الامر او يجعلهُ مهملاً لا يعمل بهِ فاحتدم قيصر غيظاً وقبض عند علمهِ ما جرى على فرند سيفهِ وقال ان هذا الحسام البتار سينيلني بعدل ما يمنعني ظلم اعدائي اللئام من الحصول عليهِ وفي الحال جمع عساكره واجتاز جبال الالب سنة ٤٩ ق . م ووصل الى نهر الروبيكون وهو المكان الذي لا يسوغ للجيوش الرومانية ان تعبرهُ وتتقدم في ايطاليا فبعد ان تردد قليلاً وهو يقول اذا كنت اعبر هذ النهر ساجلب على وطني مصائب عظيمة واذا توقفت في مسيري ساهلك لا محالة زحف بجنوده ووصل الى ريميني واستولى عليها وجال في البلاد طولاً وعرضاً بسرعة عجيبة واتى وحاصر بومبايس في برندزيوم ففرَّ بومبايس هارباً الى درَّاخيوم في ايلريا وترك ايطاليا غنيمة باردة لعدوهِ القادر النشيط

وكان الشرفاء خائفين من قيصر يظنون انهُ سيفتك بهم فتكاً ذريعاً لمحازبتهم بومبايس الا ان ذلك البطل كان يسير وجيشا الرعب والحلم يتقدمانهِ ويفتحان لهُ بلا حرب ولا عناء المدائن والقلوب حتى وصل الى رومية فدخلها ظافراً واقام فيها بضعة ايام صرفها في تأمين الخائف وتشجيعهِ وارضاء اعدائهِ واستمالتهم فاحبهُ الجميع وفرحوا بانتصاره بعد ان كانوا يضجون بالدعاء للالهة ان تقهرهُ وتردهُ مخزياً ولما استتب لهُ الامر مشى الى اسبانيا وحارب افرانيوس وبتريوس قائدي جيوش خصمهِ في تلك الديار فقهرهم وارتد راجعاً الى رومية

وحدث ان احدى الكتائب عصت اوامرهُ لانهُ لم يسمح للجنود ان ينهبوا المدن التي استولى عليها وطلبت اليهِ ان يأذن لها بالانصراف للاوطان فاحضرها ووبخها على صنيعها بكلام لطيف يخلب العقول ويجرح القلوب الى ان قال انهُ غير محتاج لخدمتها ولا يفتقر ابداً الى جنود

يقاسمونهُ النجاح وفخر الانتصار وبناءً عليهِ يرغب في صرفها ولكنهُ يريد معاقبتها بقتل عُشْر رجالها فرعب الثائرون والقوا بانفسهم عند قدميهِ وسالوهُ الصفح عن ذنبهم فعفا عنهم الا انهُ امرهم ان يسلموا اليهِ مائة وعشرين نفساً من المذنبين فقتل منهم عشرين وصفح عن الباقين

وجمع بومبايس من بلاد اليونان والمشرق جيوشاً جرارة واستعدَّ لقتال قيصر الذي بعد ان تقلد منصب الديكتاتورية مدة احد عشر يوماً واصلح الاحوال عين قنصلاً باتفاق الآراء فاسرع اذ ذاك بالرحيل الى ايطاليا لمحاربة عدوهِ وقهره فجرت بينهما وبين قوادهما وقائع كثيرة كان النصر فيها تارة لهذا وتارة لذاك اخيرًا التقى الفريقان في سهل فارزاليا في تساليا سنة ٤٨ ق. م وانتشبت الحرب وكانت سجالاً . وعلم قيصر ان فرسان الاعداء وهم عدد عديد ينوون الهجوم على فرسانهِ دفعة واحدة حتى اذا ما كسروهم وشتتوا شملهم في مجاهل تلك الارض كرّوا على رجالتهِ ونكلوا بهم تنكيلاً فامر ست فرق من جيشهِ ان تكمن وراء الميمنة وتهجم على فرسان بومبايس بغتة اذا تسنى لهم الانتصار كما املوا وعادوا الى ساحة الضرب والطعان ثم ردم الخنادق التي حول المعسكر وقال لجنوده دونكم الكر والكفاح لانهُ لا نجاة لنا الا بالنصر او الممات حينئذٍ حملت الرجال على الرجال وسالت دماء الابطال في ذلك النهار كالانهار وكانت فرسان بومبايس قد كسرت فرسان قيصر واستعدت لقتال رجالتهِ فالتقتها الفرق الست الكامنة وراء الميمنة واكرهتها على الفرار ثم ارتدت لمساعدة ارفاقها وهجمت معهم على رجالة الاعداء وهي تطعنهم وتضربهم دراكًا فذعروا وولوا منهزمين وفي اليوم التالي سلموا سلاحهم الى قيصر وامنوا اليهِ ففازوا بالامان اما بومبايس فغير ثيابهُ وفرَّ هاربًا مع بعض اعوانه يطلب النجاة فاتى اولاً امفيبوليس واصدر فيها منشورًا يامر بهِ الفتيان الرومانيين واليونانيين ان يبتدروا السلاح ويحضروا اليهِ ولما كان عدوهُ قيصر مثابرهُ وقد قرب

من ذلك المكان بادر الى الرحيل حالاً فذهب الى قبرص وعلم هناك ان السوريين لا يسمحون له بالدخول الى بلادهم فجهز الفي جندي من تلك الجزيرة ورحل بهم الى مصر ليستجير ببطلماوس ملكها فدعاه هذا الامير الخائن الى بلاطهِ وامر بعض رجالهِ ان يقتلوه حينما يصبح في قبضة يدهم وارسل الى سفينتهِ قاربًا يحضرهُ بهِ ولما خرج بومبايس من السفينة التفت الى امرأتهِ وقال لها بيتي شعر لسفوكلس اليوناني معناهما ان الذي يذهب الى بلاط ملك يصبح عبد ذلك الملك وحين وصولهِ الى البر اخترط احد المصريين حسامهُ وضربهُ بهِ ثم قطع راسهُ وترك جثتهُ مطروحة على الشاطىء فاخذها احد عبيده وحرقها واتى كورنيليا امرأتهُ برمادها غير ان المصريين بنوا لهُ بعد ذلك ضريحًا وزينوهُ بالتماثيل النحاسية

وما زال قيصر متاثرًا بومبايس ليأسره او يفتك بهِ حتى وصل الى مدينة الاسكندرية فعلم هناك بموت عدوه الالد قيل انهُ لما نظر راس وخاتم ذلك الرجل التعيس اغرورقت عيناه وامر ان يدفن حالاً بالتجلة والاكرام

وكانت الحرب وقتئذٍ قائمة على قدم وساق بين بطلماوس وكليوبترا اختهِ وسببها ان اباهما حين موتهِ اوصى لهما بالملك حسب عوائد وشرائع البلاد وامر ان يقترن الاخ باختهِ لتدوم محبتهما ويعيشا بالصفو والهناء وكان عمر كليوبترا سبع عشرة سنة وعمر بطلماوس ثلث عشرة فقط فبقيا متحدين حينًا من الزمان ثم تعاديا واقدم كل منهما على قتال الاخر ليقتلهُ ويستبد بعدهُ بالملك ظالمًا

واراد قيصر نفي النزاع وابقاء القديم على قدمهِ لان كليوبترا لجئت اليهِ وطلبت مساعدتهُ فاغضب ذلك بطلماوس وجمع عساكره واتى يحارب البطل الروماني الذي لم يكن معهُ اكثر من اربعة الاف جندي فتحصن في القصر وحرق كل السفن الموجودة في الميناء لئلا يستولي عليها الاعداء

ويمنعوا المدد من الوصول اليهِ الا ان اللهيب امتد الى المكتبة وحرقها وكانت هذه المكتبة شهيرة تحوي اربعمائة الف مجلد حسب رواية لفيوس وقيل اكثر

ولكي لا يبقى مانع من وصول المدد اليهِ ارسل شرذمة من عساكره الى جزيرة فاروس (الان راس التين وكانت هذه البقعة جزيرة صغيرة في الايام القديمة الا ان اسكندر الكبير امر ان توصل بالبر ليجعل المدينة ميناوين) ثم بنى متاريس حول قصر الملك والملعب الذي بقربهِ وعمل كل ما يلزم ليامن شر الاعداء ويمكنهُ القتال او الدفاع بسهولة ودامت الحال هكذا الى ان جاءت جنود رومانية جديدة فبادر قيصر الى محاربة المصريين وملكهم فكسرهم في عدة وقائع ومات ذلك الامير الخائن سنة ٤٧ ق.م غرقًا في نهر النيل فنال بلا ريب جزاء خيانتهِ ومكره لانهُ قتل بومبايس صديقهُ وولي نعمتهِ وغدر بقيصر بعد ان اسره وخلى سبيلهُ

ولم تات حرب قيصر بالديار المصرية بفائدة للرومانيين لانهُ لم يخضع ذلك القطر لسلطتهم بل تركهُ مستقلاً كما كان قبلاً ويظهر انهُ فعل ما فعلهُ حبًا بكليوبترا التي اقام معها تسعة اشهر فحبلت منهُ وولدت غلامًا دعتهُ قيصريو ومن المؤكد ان هذا البطل قد غادر الاسكندرية كرهًا لان الضرورة قد احوجتهُ الى ذلك

ولما راى فرناسس بن متريدات وقاتلهُ ان نار الحرب بين بومبايس وقيصر قد تاججت ظن الاوان قد آن لخلع نير تسلط الرومانيين على وطنهِ فجاهر بالعصيان واخذ يحارب الامم المجاورة ليوسع نطاق مملكتهِ وقهر حاكم البلاد الاسيوية الروماني وشتت شمل عساكرهِ فرحل لذلك قيصر من القطر المصري وتقدم في الديار السورية وما زال سائرًا حتى لقي فارناسس وجنوده فهجم عليهم برجالهِ ونكل بهم تنكيلاً وكان انتصاره على البونتسيين سريعًا جدًا حتى انهُ قال يابومبايس السعيد ان

اعدآءك الذين قهرتهم واكتسبت بقهرهم لقب الكبير هم مثل هولاء ولكي يظهر لاحد اصدقائهِ سرعة انتصاره في هذه الوقعة لم يجد وجهاً للتعبير ابلغ من قولهِ جئت ونظرت وغلبت

ثم عاد الى ايطاليا وحينما وصل الى برندز يوم لقيهُ سيسرون ماشياً لانهُ كان محاربًا لبومبايس فاراد بذلك استرضاءهُ فتلقاه قيصر بالبشاشة والاكرام وسمح لهُ بالرجوع معهُ الى رومية وحدث ان عساكرهُ جاهروا بالعصيان لكونهِ لم يعطهم الجزآء الذي وعدهم بهِ فاخمد نار تلك الفتنة بكلامهِ فقط وتهديدهِ اياهم انهُ يصرفهم ولا ياذن لهم بالذهاب معهُ الى افريقيا لمحاربة اعدائهِ هناك

الفصل الثالث

في حروب قيصر بافريقيا واسبانيا واعمالهِ في رومية وموتهِ سنة ٤٤ ق . م

لقد اصبح قيصر بقهرهِ بومبايس واعوانهِ في الشرق الرجل الوحيد الذي يتسلط حقيقة على العالم الروماني والحاكم الفريد الذي يرجى منهُ اصلاح الاحوال وتوفير اسباب الراحة الداخلية والسلام ولو كان هذا البطل حقوداً نظير من تقدمهُ لخضب ارض ايطاليا وعاصمتها بدماء اعدائهِ الشرفاء ولكنهُ كان حليماً يحب العدل ويانف من القتل لذلك لم يرد قط عدوًّا استسلم لهُ او قدر على اخضاعهِ فاحبهُ الجميع واقامهُ الشعب ديكتانوراً لمدة عشر سنوات ولما استتب لهُ الامر جمع جنودهُ وذهب الى افريقيا ليحارب هناك لابينوس وكاتو وغيرهما من بقي من حزب بومبايس فجرت

بين الفريقين وقائع كثيرة اشهرها وقعة ثابسس حيث انتصر قيصر انتصارًا مبينًا وشتت شمل اعدائهِ الاولى هرب بعض منهم الى اسبانيا وخضع لهُ البعض الآخر اما كاتو الشجاع فحينما راى تضعضع احوال قومهِ وانكسارهم يئس من الحيوة وانف من الذل والخضوع لعدوه الالد فدخل غرفتهُ وبعد ان قرأ مرارًا الفدو وهو كتاب لافلاطون الفيلسوف وموضوعهُ خلود النفس اخترط سيفهُ وضرب بهِ صدرهُ ووقع على الارض مغشيًا عليهِ فانتبه اصدقاؤهُ واتوهُ مسرعين وضمدوا جرحهُ ولما افاق وابصر ما فعلوه حنق وفتح الجرح وسحب احشاءهُ بيدهِ ومات سنة ٤٦ ق.م

وقدر ابنا بومبايس ورفاقهما الذين هربوا من افريقيا ان يستميلوا السواد الاعظم من الاسبانيين وان يجهزوا جنودًا كافية للقاء عدوهم وقتالهِ فارسل قيصر لمحاربتهم بعضًا من قواده وعاد هو الى رومية وولجها ظافرًا غانمًا واحتفل بنصراتهِ العديدة ثم اخذ في اصلاح الاحكام واجراء العدل غير مبالٍ بالصعوبات ولا خاشٍ في جانب الحق لومة لائم

ومن اعمالهِ الحسنة التي تذكر فتشكر هو اصلاح حساب السنة لان نوما ملك رومية الثاني قد جعل العام ثلثمائة وخمسة وخمسين يومًا اي زاد يومًا واحدًا على السنة القمرية المستعملة اذ ذاك في بلاد اليونان واضاف اليها كل عامين شهرًا واحدًا عدد ايامهِ اثنين وعشرين ولما كانت سنتهُ هذه تزيد يومًا واحدًا او ثلثة ارباع اليوم على السنة الشمسية وكان الموكلون بذلك يهملون احيانًا زيادة الشهر المذكور اصبح الخلل على مرّ الزمان عظيماً فانتبه قيصر لهذا الامر وجعل السنة الرومانية شمسية اي ثلثمائة وخمسة وستين يومًا واضاف كل اربعة اعوام يومًا واحدًا الى شهر شباط كما هو جار الان في سائر الممالك المسيحية

واستفحل امر ابني بومبايس باسبانيا لان القواد المرسلين لمحاربتهما لم يستطيعوا ان يقمعوهما فزحف ذلك البطل الى تلك الديار سنة ٤٥ ق.م

ولقيهما بالقرب من مدينة موندا فانتشب القتال وكان مهولاً ويظهر ان عساكر الديكتاتور قد نسيت نصراتها السابقة والفخر الذي حازتهُ في حروبها الماضية فلم تثبت بادىء بدء بل رجعت الى الوراء وعولت على الفرار فوقف قيصر وقفة الحائر الكئيب لا يعلم ما يعمل ولا يدري كيف يكون الخلاص من الفضيحة حتى انهُ اراد ان ينتحر في ذلك النهار اخيرًا جرّد حسامهُ واخذ مجنـاً وهجم وحدهُ على صفوف الاعداء مؤثرًا الموت الزؤام على الحيوة بالذل والعار فشجع حينئذٍ القواد والجنود وتبعوهُ بقلب ثابت الى حومة الوغى وساحة الاخطار وحدث ان لبيونس احد قواد الاعداء ارسل خمس فرق لقتال بوغد ملك مور يتانيا فاغتنم قيصر هذه الفرصة واذاع ان عساكر البومبيين اخذت في الفرار فانتشر هذا الخبر في الجيشين وكان من نتيجتهِ انكسار الاعداء حقيقة فمات منهم في هذه الوقعة ثلثون الف رجل وقواد كثيرون من جملتهم لبيونس واحد ابني بومبايس وهكذا انتهت هذه الحرب الاهلية التي امتد سعيرها الى جميع اقطار العالم الروماني ولما رجع قيصر الى رومية احتفل بنصرتهِ واعلن العفو عمن ناواه وحازب خصمهُ وبنى هيكلاً لالهة الرحمة ونصب تمثالهُ بالقرب من تمثال هذه المعبودة

ومنحهُ المجلس العالي في ذلك الحين كل الالقاب الشريفة وعينهُ امبراطورًا اي قائدًا عامًا لجميع الجيوش الرومانية ومفتشًا ومدبرًا لاموال الحكومة طول حياتهِ ودعاهُ ابا ومخلص الوطن وبنى هيكلاً للحرية لان الرومانيين قد نالوها على يده واعلن شخصهُ مقدسًا نظير وكلاء الشعب وسمى باسمهِ الشهر السابع من السنة لانهُ ولد فيهِ وسمح لهُ ان يضع دائمًا على راسهِ اكليلاً من الغار وان يلبس في ايام الاعياد ثوب الانتصار وان يكون لهُ محل مخصوص في الملاعب وان يجلس في المجلس والفورم على كرسي ذهبي وان ينصب تمثالهُ في جميع المدائن وسائر هياكل رومية وان يكتب على

بعض تلك التماثيل الى الاله الذي لا يغلب

ومعلوم ان قيصر قد طبع على محبة العظمة والرئاسة ودليل ذلك الحروب المهولة التي خاض عجاجهـا غير مبال وقولهُ دائمًا لاصدقائهِ اني اود ان اكون الاول في قرية ولا الثاني في رومية غير ان اطاعة التي مهدت لهُ سبل المجد والفخار قد سببت هلاكهُ لانهُ لم يرضَ بالالقاب الشريفة التي منحهُ اياها المجلس الروماني ولم تكفهِ المناصب العالية التي تقلدها بل تطلب ان يكون ملكًا ويرتقي عرش الملك قبل ذهابهِ الى بارثيا ليحارب اهلها وياخذ بثار صديقهِ كراسس فاهاج سعيهُ هذا بغضهُ في قلوب كثيرين من جملتهم بروتس وكاسيوس وستون اخرون من عظماء وشرفاء رومية فتآمروا بقتلهِ وتعاهدوا على هذا الامر باوثق الايمان وفي اليوم المعين لتنصيبهِ ملكًا اتاهُ هولاء المؤامرون وبينما كان جالسًا في دار الندوة تقدم احدهم المدعو سيمبر وجثا عند قدميهِ يسالهُ حاجة ثم امسك بذيل ثوبهِ وهي العلامة التي جعلوها لاشهار السلاح وقتلهِ فانقضوا عليهِ حينئذ انقضاض الصواعق وضربوه ثلثًا وعشرين ضربة سقوهُ بها كاس المنون وذلك عام ٤٤ ق . م في السنة السادسة والخمسين من عمره

الفصل الرابع

في الحكومة الثلاثية الثانية

وما جرى بعدها

الى حين موت انطونيوس

واستبداد اوكتافيانس بالاحكام

هيهات ان ينجو الوطن بقتل قيصر من الاستعباد وان تصح

الجمهورية وطيدة الاركان والشعب حرًّا كما كان قبل امتداد سلطته على اقطـار العالم المعروف وفساد اخلاقهِ بسبب ذلك لان العظمآء ورجال السياسة حينما رأوا تنعم ملوك الشرق وذاقوا لذة الاستبداد وعلموا ان لا عدو لهم في الدنيا يستطيع قتالهم فقدوا تلك الشجاعة التي اسسوا بها عظمة بلادهم ونسوا محبة الوطن حصن رومية الوحيد لدى النوازل الجلى واقبلوا على الدسائس والمكر يحبطون اعمال بعضهم ويسعون في اهلاك مواطنيهم لادراك ما تزينهُ لهم الاطماع فلا ينثنون عن غيهم ولو ادركوا المنية بدلاً من المنى وبناء عليهِ نجد الرومانيين بعد وفاة حاكمهم قيصر النشيط هدفًا لسهام البلايا ورزايا الحروب لان الاطماع قد عصفت برؤوس الرؤساء وغدت المدائن والاقاليم ساحات قتال تجري فيها دماء البشر انهارًا

وكان في بلاد اليونان فتى روماني لم يتجاوز بعد السنة التاسعة عشرة من عمره قد عرك الدهر من صغره فشب شجاعًا طمعًا حكيمًا فلما علم بموت قيصر جاء مسرعًا الى رومية لان الديكتاتور قد تبناهُ وهو ابن بنت اختهِ المسمى اوكتافيوس الذي دعاهُ المجلس اوكتافيانوس فاخذ يستميل القلوب ويسعى في تمهيد سبيل ارتقائهِ اوج الفخار فاتحد لذلك مع انطونيوس قائد الفرسان وقائم مقام قيصر والمتولي وقتئذٍ منصب القنصلية ورجلاً آخر خاملاً اسمهُ لبيدوس ودعي اتحادهم هذا بالحكومة الثلاثية الثانية

وحينما استتب لهم الامر ونالوا ما كانوا يبتغونهُ احيوا في رومية والمدائن الخاضعة لها اعمال ماريوس وسيلا الوحشية لانهم اهدروا دماء كثيرين اعداء واصدقاء من جملتهم سيسرون خطيب اللاتينيين الفريد الذي تحامل عليهِ انطونيوس لانهُ ثلبهُ في الخطب التي القاها في ذلك العام دفاعًا عن حرية الجمهورية وبينما كان ذلك العالم العلامة سائرًا في البلاد هاربًا لقيهُ رجال الحكومة المرسلين لقتلهِ فاراد خدامهُ ان يقاتلوهم ويموتوا فداء

سيدهم الا ان سيسرون منعهم من هذا الامر ومدّ عنقهُ للقتل فضربه هولاءَ الرجال واتوا انطونيوس براسهِ فعلقهُ بالمنبر في ساحة الفورم مضمار مجده

و بعد ان خضب اعضاءُ الحكومة الثلاثية ارض رومية بدماءِ ابنائها جهزوا الجنود وذهبوا سنة ٤٢ ق . م الى مكدونية ليحاربوا بروتس وكاسيوس اللذين حشدا الفرسان والابطال وكانا مستعدين للحروب انتقامًا من اعدآئهم ودفاعًا عن حرية الرومانيين فالتقى الجيشان بالقرب من مدينة فيلبه وانتشب القتال وكان بروتس تجاه اوكتافيانس فهجم عليهِ برجالهِ وصدمهُ صدمة الرئبال فدحر جنودهُ وما زال يضربهم ويطعنهم حتى شتت شملهم في تلك البطاح ودخل معسكرهم واستولى عليهِ اما انطونيوس فقاتل كاسيوس وقهرهُ وظن هذا القائد ان رفيقهُ قد قهر ايضًا فضاق ذرعًا واخترط حسامهُ وانتحر وكانت نتيجة هذا الامر القاءَ الرعب واثارة الياس في قلوب عساكر الجمهوريين وبعد ايام قليلة انكسر بروتس فاقتفى اثر صديقهِ وسلب مهجتهُ بيده ولقد اصاب مؤرخ يسوعي بقولهِ في عرض الكلام على معركة فيلبه هذه ان الانتحار داب الكافرين الذين يرون في قتل النفس دوآءً شافيًا لادوآءِ الحيوة ولكن الدين والعقل وفطرة الانسان تانف منهُ ووثنيون كثيرون قد نسبوه الى جبن المرء الذي لا يستطيع الصبر على حدثان الدهر غير ان المؤرخ المذكور لم يخبرنا ماذا كان واجبًا على بروتس ان يعمل لو صبر لينجو من اعدائهِ الراغبين في قتلهِ وتعذيبهِ لانهم لم يثيروا الحرب الا لاهلاكهِ

واقتسم اوكتافيانوس وانطونيوس بعد وقعتي فيلبه املاك الجمهورية الرومانية فنال الاول بلاد الغرب واخذ الثاني بلاد الشرق ولما كان انطونيوس زير نساءٍ تيمهُ هوى كليوبترا ملكة مصر واصبح اسير جمالها يقاد لها طوعًا بازمة حبها ومكرها وكان يقضي لذلك اوقاتهِ بالولائم

والمسرات ناسياً مجده وفخره ومهملاً واجباته لتوطيد سلطته وصيانة شرفه حتى انه طلق امرأته اوكتافيا اخت صديقه وحليفه وتزوج حبيبته كليوبترا التي وسع نطاق مملكتها بمنحه اياها ليبيا وقبرص وسهل كليسيريا (البقاع) وفي هذه الاثناء زحف بجنوده لمحاربة ملك بارثيا فقاتله مراراً وعاد من تلك الديار بالذل والفشل الا انه قهر سكستس بن بومبايس الكبير الذي استفحل امره في سيسيليا وجمع جيشاً عرمرماً ليستولي به على ايطاليا . اما اوكتافيانوس فكان باذلاً جهده في توطيد سلطته واتخاذ الوسائل اللازمة لارداء رفيقه والاستبداد بالاحكام وحده وعليه ففي سنة ٣١ ق . م حينما رأى ضعف انطونيوس وانهماكه في الملذات اضرم نار العداوة وسود سيرته لدى المجلس والشعب وجهز عمارة مولفة من ثلثمائة سفينة واتى لمحاربته في البلاد الشرقية ويظهر ان الخطر قد نبه انطونيوس من رقدة الاهمال فجمع جيشه وسفنه وتقدم لقتال صديقه القديم وشريكه في السلطة والمجد فالتقت العمارتان بالقرب من راس اكتيوم وانتشبت الحرب وكانت عواناً وثبت الفريقان فيها ثبات الابطال الى ان ولت كليوبترا هاربة الى مصر فلحق بها انطونيوس لانه كان يوثر التمتع بجمالها على فخر الانتصار وملك العالم باسره فظفر حينئذٍ اوكتافيانوس على من بقي من جيوشه وسفنه وسار مسرعاً الى الديار المصرية لمحاربته هناك وبقتله

ومعلوم ان اصدقاء المرء يكثرون او يقلون حسب نجاحه وتاخره في العالم لان الصديق الصدوق نادر وجوده والاخلاص في سائر الاحوال امر شبيه بالمستحيل وعليه فحلفاء انطونيوس حينما راوه مقهوراً ذليلاً تركوه وشانه وتباروا في مصادقة اوكتافيانس والخضوع له حتى ان عمارته وجنوده بعد ان نازلت اعداءه مرتين او ثلث خانته وامنت الى اوكتافيانس ففازت منه بالامان

ودخلت كليوبترا الى قصرها واوصدت ابوابه واذاعت انها يئست

من الحيوة وقتلت نفسها و بلغ ذلك حبيبها فضاق ذرعًا وقال الويل لك
يا انطونيوس ماذا تامل في هذا العالم وقد مضت التي كنت تحب الحيوة
لاجلها ثم ذهب الى غرفته واخذ في النحيب وهو يقول يا كليو بترا ليس فراقنا
اعظم سبب لحزني لاننا سنجتمع مرة اخرى ولكنني اموت اسىً حينما اراك
قد فقتني بالشجاعة انا الذي تسلط على الابطال ودانت له سادة الناس
صاغرة وفي الحال دعا اروس اصدق خدامه وامره ان يستل سيفهُ ويقتلهُ
فلم يصدع اروس بامره بل اخترط حسامهُ وضرب نفسهُ وخرَّ قتيلاً عند
قدميه ولما رآهُ يتخبط بدماه صرخ قائلاً ياصديقي اروس اني اشكرك على
تعليمك اياي ان اعمل ما ابيت انت اجراءه اكرامًا واجلالاً لي ثم جرد
حسامهُ وضرب به صدره وسقط على فراشه فارسلت كليو بترا احد خدامها
واحضرته الى قصرها فقضى نحبهُ بعد برهة مسرورًا ان يراها قبل موته

وكانت كليو بترا آملة انها ستفتن اوكتافيانس بجمالها الباهر فخاب
املها لان ذلك القائد الفتى كان لا يعرف سلطانًا غير الاطماع ولا يحب
شيئًا سوى التسلط على البشر وكان مرادهُ ان يحضرها الى رومية لتمشي
امام مركبته حينما يحتفل بنصرته فبذل جهدهُ في ارضائها حتى تمكن من
القبض عليها ولما علمت هي بما نوى ذهبت الى ضريح انطونيوس وندبته
بعبارات تفتت الاكباد ثم عادت الى منزلها ولبست لباس الزينة و بعد ان
اكلت دخلت مخدعها ووضعت على ذراعها حية اتوها بها في قرطل تين
فلدغتها الحية وماتت عام ٣٠ ق.م في السنة التاسعة والثلثين من عمرها
والعشرين من تملكها على الديار المصرية وانقرضت بموتها دولة البطالسة التي
تسلطت مائتين واربعًا وتسعين سنة وجعلت مصر لذلك ولاية رومانية

وفي سنة ٢٩ ق.م رجع اوكتافيانوس الى رومية واحتفل بنصرته
واغلق ابواب هيكل جانس دلالة على السلام العام وتولى جميع المناصب
العالية ودعي ابا الوطن وامير السلام ومصلح العالم وهكذا تلاشت الحكومة

الجمهورية حقيقة واستبدلت بالحكومة الملكية وسمى المجلس اوكتافيانوس باوغسطوس اي المعظم وهو اول سلطان تسلط على العالم الروماني

قال مولفهُ نجيب ابرهيم طراد هذا ما اردت جمعهُ من اخبار امة سادت بشجاعتها وملكت الخافقين ببطشها وحكمة بنيها وزالت ولم تزل كتبها واعمالها تبصرة لارباب السياسة والنهى بها ينتصح الجاهل ويهتدي العاقل في ليل حياتهِ البهيم ولا بدع اذا راينا علماء الغرب يقضون سنوات عديدة في درس لغتها التي درست لانها مصدر لغاتهم واساس ادابهم وقد جهد اشهر كتبتهم مثل رولان ومنتاسكيه وغبون في وضع تاريخها وشرح اسباب تقدمها وسقوطها فشرحوا الصدور بكلامهم البليغ وحلوا جيد افعالها بعباراتهم الدرية فاكسبوها طلاوة جديدة ولكل جديد طلاوة ولا يخفى عن القارئ اللبيب انني سلكت في هذا المولف مسلك الاختصار كما نبهت مرارًا في عرض الكلام على بعض الحوادث لا سيما في صفحة ١٦٥ فليراجع كل ذلك في موضعهِ وساباشر قريبًا طبع تاريخ سلاطين رومية والدولة الرومانية الشرقية ايفاء بالوعد

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

اصلاح غلط

تنبيه . قد وردت في بعض الصفحات لفظة العدوان بدلاً من العداوة ولفظة زنة بدلاً من وزنة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤ و ١١٥	١٦ و ١٠	الرومانيين	الرومانيون
١٦	١٨	لهم	لهما
١٦	٣٢	التي	اللواتي
٣٤	١٦	ثلاث	ثلاثًا
٣٦	١٦	ضعفا	ضعفيًا
٣٩ و ٤٠	٦ و ٥	اغلال	غلال
٣٣	٩	(في بعض النسخ) موادًا	موادّ
٣٤	٩	اللذان تزيا	اللذين تزييا
٧٣	٦	خمس عشر	خمس عشرة
٨١	١٥	باريها	باريها
٨٨	١٩	يعذرهم	يعوذهم
٩٠	١٣	هذا الاثناء	هذه الاثناء
١٠٤	٩	الامراء	الاسراء
١١٨	٤	استاجرها	استاجروها
١٣٣	٣	الواردة	والواردة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢٨	١٠	ادلآء	ادلآء
١٢٩	٢	حار بوه	حاز بوه
١٤٠	١٦	الى كان	الى ان كان
١٤١	٦	الذين	اللذين
١٨٣	٩	حيثئذ	حينئذ
١٨٣	١٥	الزمار	الذمار
١٩٣	٢٣	بعسكره	بمعسكره
٢١١	١٢	اهواءهم	اهواءهما
٢١٢	٢٠	فقهرهم	فقهرهما